

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر - باتنة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

النزعة الزهدية في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي المغربي القديم
من إعداد الطالبة:
ليلى قجوج
تحت إشراف الدكتور:
"معر حجيج"

لجنة المناقشة:

رئيساً	جامعة باتنة	أستاذ التعليم العالي	محمد زغينة
مقرر	جامعة باتنة	أستاذ محاضر	معر حجيج
عضوا مناقشا	جامعة باتنة	أستاذ التعليم العالي	محمد زرمان
عضوا مناقشا	جامعة باتنة	أستاذ محاضر	محمد منصوري
عضوا مناقشا	جامعة بسكرة	أستاذ محاضر	علي عاليه

السنة الجامعية:

1426-1427 هـ - 2005-2006م

مقدمة:

إن أصعب الأمور بداياتها لأنها تكون مشوبة بنوع من التردد والخوف، حيث تتشتت الأفكار وتهرب الجمل والكلمات، لكن ميلي الشديد وشغفي بالأدب الروحي ذاك الجوهر الأصيل في تراث الإسلام، وفكره ونهضته وتاريخه، والذي غذى مشاعر الأمة الإسلامية على إمتداد العصور بكل قيم الإسلام وفكر الإنسان ، وتلك الرغبة القوية للأدب المغربي الذي صاغه القرآن الكريم صياغة حضارية جديدة ، ثم عمقته بعض النزاعات ومنها النزعة الزهدية دلالة وفنا وحضارة ، وحينما أدركت ذلك بدأت رحلتي مع الأدب المغربي وتأكد اللقاء مع الزهد، فكان محاولة للكشف عن هذه الأبعاد في العمق الذي أحدثه النص الزهدي ، ومن ثم فإن محاور البحث لن تكون إلا كشفا عن هذه التجربة الروحية التي تمثل التاريخ الحقيقي للمغرب.

إضافة إلى رغبتني في دراسة مثل هذه الظواهر الفنية لكون الشعر الزهدي له أبعاد نفسية روحية، فهذه الأشعار قليلة التداول وتتعدم فيها الدراسات الجامعية المتخصصة والمعقدة، وهذا ما أغراني وأمدني بالجرأة في البحث على الجانب الروحي كظاهرة ملفتة في أشعارهم. - كما أن الرغبة الملحة دفعتني إلى التعرف على هذه الظاهرة بأرض المغرب العربي لأقف على بوابة هذا الأدب الذي إغترب في موطنه مما ولد غربة لدى بعض الباحثين في هذا الجنس، وعدم الإعتراف به إعتقادا منهم بعدم وجوده أصلا.

إن هذا الموضوع يكتسي أهمية كبرى تكمن في محاولة الإطلاع عليه، وما يمثله من قيم جمالية فنية ، وظروب الفكر الجديد في المغرب وما يكشفه عن معاناة حقيقية وأصالة وعمق مغربيين ، ومدى تواصل الإنسان بواقعه المعيشي وتكيفه مع زمنه حينما يتأمل الكون والحياة ويرخي لشاعريته زمانا، وبخاصة حينما تتطلق هذه الأشعار من الذات موحية بالألم والعذاب راسمة بطريقة إيحائية أو بواسطة كلمات مشعة ظلال ورؤى هؤلاء الشعراء بحس وجداني يلفه الحزن ويسوقه العذاب ، ويقود الكل الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبمصير الإنسان في هذه الفانية.

ولقد آثرت تحديدا للموضوع قصر هذا البحث على الشعر دون النثر، وجعل أواخر القرن الثالث الهجري نهاية للفترة التي يتناولها البحث.

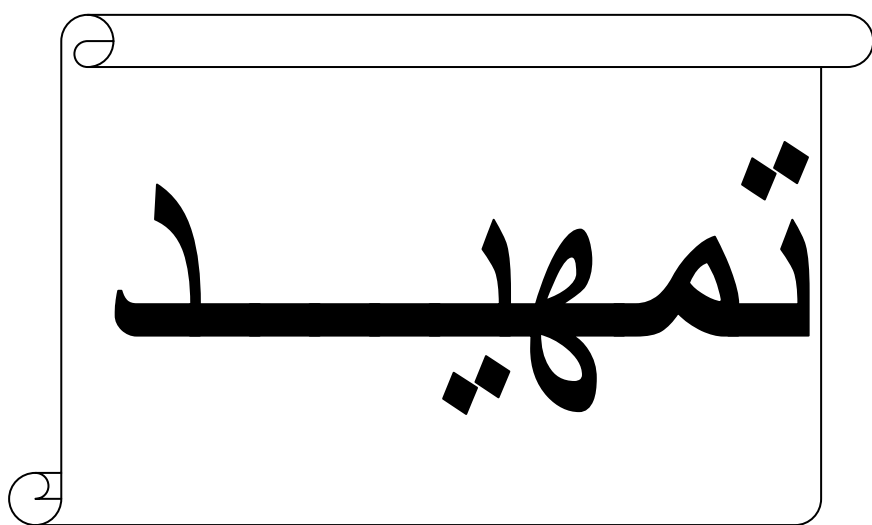
وأردت بهذا العمل لإخراجه إلى الوجود ليكون شاهدا على أصحابه وزادا لطلاب الحقيقة ومنتعة لرواد الفن ، وتكوين مدونة لهؤلاء الزهاد، وفي هذه الفترة للإطلاع على ما في شعرهم من رفعة وجلال تخلص من معاني النقص والترابية ، والتطلع إلى معارج النور والتوسل بالحكمة والمعرفة ، بأن الشاعر الزهدي عالمه وسداه ولحمته العواطف النبيلة.

وقد اعتمدت خطة منهجية، فقسمت البحث إلى ثلاثة فصول بالإضافة إلى مقدمة وفصل تمهيدي وأخرا خاتمة، فتحدثت في الفصل التمهيدي عن المفهوم والمصطلح للنزعة الزهدية وتاريخ شعرية الزهد من حيث نصوصها وأشكالها وموضوعاتها ورجالها، وربط ذلك كله بمفهوم البعد الروحي لثقافية المغرب، كشفت في الفصل الأول عن مصادر المدونة ومكوناتها النصية، فتتوعدت بذلك المصادر التي إستقيت منها المادة الشعرية المكونة، والتي تعتبر اللبنة الأساسية للبحث بين مغربية ومشرقية ، أشرت فيها إلى مدى إسهامات المكتبة المغربية والمشرقية على السواء في التعريف بشعر المنطقة ثم انتقلت في الفصل نفسه إلى طبيعة مكوناتها النصية الخليلية ، ويدرس الفصل الثاني موضوعات شعرية الزهد ومضامينها وبنيتها الفكرية ورؤيتها لكون شعرية الزهد ذاكرة للتقاليد الفنية القديمة والمستحدثة والهوية الدينية ، ويتناول الفصل الثالث الخصائص الفنية لشعرية الزهد وبخاصة صورتها الوجدانية ولغتها الرقيقة الحدسية، وموسيقاها المتلونة بالمشاعر والأحاسيس ، أما الخاتمة قد كانت حوصلة لأهم النتائج التي توصلت إليها.

وحيثما عزمتم بعون الله ظهرت في الأفق صعوبات جملة، وكأني باحث يحاول التاريخ لفترة من فترات تاريخ المغرب الإسلاميين وخصوصا إذا كانت تلك بداياتها الأولى ، لأنها من أغمض وأصعب فتراتنا وذلك يتطلب عملا جديا هادفا، والسبب في ذلك يرجع إما إلى عدم وجود المصادر أو وجودها مع فقرها الواضح للنصوص الكاملة، ولذلك تكبدت العناء الكبير أثناء إستقاء المادة الشعرية من مضانها، وقد بنيت البحث على كتب الأدب والطبقات أما ما أغلق من مسائل كانت المراجع مفاتيحا لها.

وفي ختام هذا أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور: معمر حجيج، والذي لم يدخر جهدا لإسداء النصيحة وتقديم توجيهاته القيمة، كما أنه لم يبخل علي ما بحوزته من مادة شعرية والتي لها علاقة بالبحث، فكان نعم المعين.

نسأل الله العون والسداد وصالح الأعمال، وأن ينفعنا بما نتعلم وأن يجنبنا الخطأ الظاهر والخفين فهو نعمة المولى ونعم النصير.



يقف الإنسان في لحظة من لحظات الكدر أو الصفاء متأملاً ملكوت الله فيتراءى له الوجود على أنه ذكرى عابرة، حيث تتوالى فيه الأحداث، وهي تتصارع وفجأة تزول وتختفي في لمح البصر، وكل مخلوق يلهث وراء سعادته ، وبعد غفلاته تلك وصحوته يجد فكره متجه ومشرب إلى العالم الآخر، فينتابه الجزع وأهوال القبر فيسارع إلى التوبة والندم على ما فات، فيرجو ويأمل رحمة الله ونيل رضاه بما أعده الله للمتقين، بينما نجد آخرين في نفس حالته يهرعون إلى الاستمتاع والحصول على زخرف الحياة قبل أن تدركهم الشيخوخة ثم الفناء، وبين هذا وذاك تختصر الحياة في نهجين : نهج اللهو والمجون ونهج الزهد والتقشف، وفي الحالتين يسعى الإنسان إلى التنفيس عن محنته باختياره التعبير بأנסاق فنية دلالية رمزية تتكشف له من خلالها الحقيقة "منارة هدى لا تموت بموته ولا يقف نورها عن حدود المكان والزمان، وكيف يدعها تتلاشى هباء، والكلمة عنده سلاح يقهر الفناء.

إنه ينبري للكلمة يجسد فيها نظراته حكمة باقية ما بقيت أصولها راسخة في أرض الواقع التي تشرب منه ماء الديمومة، وما بقيت نار الكلمة تشعل بوقد الأدب، وتتوهج بوهج الفن¹.

وإذا كان التعبير الشعري عن الزهد من الاتجاهات الوجدانية التي تقوم على التبصير بحقيقة الحياة عامة، واستخلاص العبرة بنهج فني خاص فإن الشاعر الزاهد في بثه للمتلقى هذه العبر الدالة على الزهد يركز خاصة على اختيار موضوعات منها تصويره لتقلبات الزمن وغدره والتذكير بالموت واستحضار صورة القبور لأخذ العظات وتجاوز صورتها المفجعة بمد أواصر الألفة معها من خلال النزعة الزهدية؛ ونصل الآن إلى الكشف عن سياقها المعرفي من حيث دلالتها اللغوية والفكرية، و جذورها التاريخية.

¹-ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط3، 1980، ص114-115.

أولاً - السياق المعرفي:

1- الدلالة اللغوية والاصطلاحية:

ولنبداً بكلمة النزعة وسنأخذ مقتطفات من معجم متن اللغة، "نزعه نزعا من مكانه، قلعه وجذبه من مقره" وهو الأصل في المعنى "فهو منزوع ونزيع ... ونزع نزعا ونزوعاً عن الأمر: انتهى وكف - وأباه إلى أبيه في الشبه: أشبه ... وتنزع: تسرع ورأيت فلا منتزعا إلى كذا أي متسرعا إليه وللصيد سهما: رماه به، وبالشعر تمثل ... نازعه غالبه فغالبه والنزوع الكثير النزوع والحنين إلى الأوطان"².

ونازعت النفس إلى الأمر نزاعاً ونزعت إليه إذ اشتتهته، نزع حول الشيء عن موضعه وأزاله ونازعتني هواها نزاعاً: غالبتني.

أما اصطلاحاً: فنزع يعني: رغبة أو ميل نحو عمل إرادي، عند لبينتر مبدأ باطن في الموناد يحدث تغييراً وانتقالاً من إدراك إلى آخر، وعند سبينوزا: الرغبة الواعية التي تسوق الإنسان إلى العمل³.

ويبدو من هذا المنظور بأنها شعور يتغلب على النفس فيسرع في التشكل وتتمثل به، ويكون هذا الشعور عن ميل ورغبة واعية، وهي أيضاً ظاهرة أدبية في العصر الحديث مقابل الاتجاه، أو المذهب (doctrine of systeme) الذي هو عبارة عن: "معتقد ديني أو فلسفي أو سياسي يسلم به المرء، ويوفق بين تصرفه في الحياة ومضمونه ما يعلم به هذا المعتقد ... [و] فنياً: آراء وتقنيات يعتمدها الفنان أو الأديب في تحقيق آثاره ويقرب هنا معنى الكلمة من مدلول المدرسة"⁴.

أما لفظ الزهد في اللغة فله دلالات متعددة ومختلفة تتقارب أو تتباعد بحسب الاستعمال وبحسب الإطلاق، وتركيباته التعبيرية تعني عدم الرغبة بحيث "يقال زهد في الشيء إذا لم يرغب فيه، رغب عنه، وموضوعه الدنيا، فالزهد ضد الرغبة، والحرص على الدنيا، وتارة تعني الإعراض عنه وتركه لاحتقاره أو لترحجه من أو لقلته وزهيد الأكل قليله. وتارة أخرى:

²- أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، 1960، ص 436-438-439.

³- يوسف خياط، معجم المصطلحات العلمية والفنية عربي - إنجليزي - لاتيني، لسان العرب بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 664.

⁴- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979، ص 245-247.

أزهد الرجل إزهادا إذا كان مزهد لا يرغب في ماله لقلته وهذا الانصراف انصراف عن وجه من أوجه الدنيا وهو الزهد في المال" ⁵.

ويلاحظ بأن أغلب المعاني الواردة تدل على الانصراف عن لذائذ الحياة، ومتعتها وعدم الركون إليها، وتحقيرها والإقبال على العبادة، وهذا هو المدلول اللغوي للكلمة باعتبار الزهد نزعة روحية ⁶.

وجاء في المعجم الصوفي أن أصل حروف كلمة زهد: "الزاء والهاء والdal تدل على قلة الشيء" ⁷.

ويفرق الجرجاني بين معناه اللغوي والاصطلاحي فيقول عنها بأنه: " .. في اللغة: ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك" ⁸، ويعرف الغزالي الزهد بأنه: "عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه [و] يستدعي [ذلك] مرغوبا عنه ومرغوبا فيه، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه" ⁹، ويعرفه شقران بن علي الفرضي ¹⁰ لأبي عثمان سعيد بن عباس الخياط فيقول له: " .. اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته في الدنيا ما وجد، ومسكنه حيث أدرك، ولباسه ما ستر والخلوته مجلسه والقرآن حديثه والله العزيز الجبار أنيسه، والذكر رفيقه والزهد قرينه، والصمت جنته والخوف محجته، والشوق مطيته، والنصيحة نهمته، والاعتبار فكرته، والصبر وسادته، والتراب فراشه، والصديقون كسبه، والجوع أدامه، والله عونته" ¹¹.

⁵ -ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مج3، ص 196-198، والزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، 1970، مج2، ص 50.

⁶ -spiritualisme: تعاليم مثالية عن الأصل الروحي للعالم فعند بعض أصحاب النزعة الروحية، العالم المادي هو وسط لتجلي الله وقدرته على حين أنه في نظر البعض الآخر وهم اخترعه الوعي الإنساني، ويذهب دعاة النزعة الروحية إلى أن النفس توجد مستقلة عن الجسد. مصطلح يستخدمه بعض الفلاسفة للإشارة إلى المثالية-ينظر: وضع لجنة من الأكاديميين السوفيات ترجمة سميع كرم، الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط4، 1981-ص524.

⁷ -سعاد الحكم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981، ص 552.

⁸ -أبو الحسن علي بن محمد الشريف، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، أفاق عربية، العراق، ص 67.

⁹ -الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الفكر، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافية، 1975، ج5، ص 208.

¹⁰ -قال أبو العرب في الطبقات: كان أبو علي رجلا صالحا ضرير البدين والبصر وكان يقال أنه يستجاب له، وكان مؤاخيا للبهلول وعالما بالفرائض، وله فيها كتاب لم نجده عند علمائنا عن شقران وغيره، روى عنه سحنون وعون بن يوسف وكان سنه نحو سن البهلول، ينظر المالكي رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994، ج1، ص 312.

¹¹ -الغزالي، إحياء علوم الدين، المصدر السابق، ص 315.

وأما الزاهد فيعرفه الكفوي بأنه " المعرض عن متاع الدنيا وملذاتها، والعابد هو المواظب للعبادة مثل: قيام وصيام النهار، والعارف هو المستغرق في معرفة الله ومحبته"¹².

لقد رصدنا مجموعة من التعريفات، وهي تتجه كلها إلى المعنى الديني للزهد وهو العدول عن الدنيا، والإعراض عنها بحيث يخلو القلب من ذكر ما هو دنيوي باعتبار أنها ليست في متناول اليد، وهنا قد توجه نظرة إلى الظاهر الباطن معا (اليد والقلب)؛ ومن ثمة فهو ميل النفس على شيء تتوق إليه، وأن تصد عن شيء ترغب فيه، وهو أخذ القليل مما يسد الرمق والتفرغ لعبادة الله والتوكل عليه.

كما صنفوا الزهد بحسب المراتب العابد ثم الزاهد ثم العارف، وبالإمكان اعتبار الزاهد عابد وليس العكس صحيحا.

وإذا كان الزهد "تقشف ونهج خلقي يقضي بالعزم على فعل الخير بقطع النظر عن اللذة والألم وتحقيق الغرائز الطبيعية"¹³ فإن التجربة الشعرية من التجارب التي تتحو إلى كل ما هو روحاني¹⁴، وتصد عن غيره لأن بدايتها حيرة وآلام ونهايتها آمال ويقين، والتوتر بين الاثنتين يختصره الزهد بكونه "اعتناق نهج ديني يفضي بتقبل الألم والسعي إليه في سبيل التكفير عن الذنوب أو قهر الغرائز."¹⁵

2 - وجهات تشكل المفهوم الإسلامي للزهد :

أ - وجهة مفهوم الزهد في القرآن والسنة:

ما دام الزهد هو طهارة النفس وانصراف عن الدنيا والإقبال عن العبادة، وهي ظاهرة دينية برزت بوضوح في الحياة الدينية والاجتماعية بعد الفتنة الكبرى حيث أراد الزهاد في عزلتهم البحث عن الصفاء الروحي، وإذا كان هذا هو مفهومه بصفة عامة فكيف ورد في الإسلام؟

¹²-أبو البقاء بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده للطبع عدنان درويش محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1992، ص 490.

¹³-جيبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 137.

¹⁴-الروحانية: "روحانية كل شيء حظه من صلته ما وراء الطبيعة، ومما يقوي هذه الروحانية بالنسبة للأفراد قيامها على المجهود الشخصي لا على التعاليم المعلومة والحدود الموسومة، عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن 3 هـ، مطبعة الرسالة، مصر، دط، 1955، ص9.

¹⁵-جيبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 137.

إن القرآن لم يذكر الزهد ولا الزاهدين، ولم ترد هذه الكلمة إلا في موضع واحد "وشروه بثمان بخر درهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين"¹⁶؛ أي اشتروه على زهد فيه.

ويقول الإمام الغزالي: "معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض، فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة، فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا، فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا"¹⁷.

إن الكلمة هنا لا تحمل أي دلالة روحية أو أي معنى لمفهوم الزهد *Astisme*، باعتبار أن: "الزهد في القرآن لم يشكل ترغيبا من حيث أنه لم يرد نص قرآني يحبب الله للزهاد، كما ورد في التوابين والمتطهرين وغير ذلك"¹⁸.

وإذا كان للفظتي الذكر والتوكل رنين واضح في القرآن فإن لفظة الزهد تبدو فيه خافته، فلم ترد مادته قوية واضحة، ومع هذا فإن "آيات كثيرة حثت على التقلل من الدنيا وإيثار الآخرة، وامتألت السنة القولية، بالأحاديث التي دعت المؤمنين إلى الزهد في الدنيا"¹⁹.

ويبدو أن الشريعة قد اكتفت بما في العبادات من تكاليف فلم تشأ أن تثقل على الناس مثلا بصوم غير الصوم المفروض وإن كان مفهوما أن في زيادة ممارسته تطهيرا وتنقية... أما حياة النبي فهي نموذج للتطبيق العملي لروح الإسلام ولا يتوقع أن يقلد الناس جميعا النبي كما لا يمنع أن يتخذه بعض الناس أسوة ومثالا²⁰، وفي هذا السياق يقول الله تعالى: "اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر..."²¹، ويقول عز وجل: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة"²². ويقول أيضا: "الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر"²³.

¹⁶- الآية، 26 سورة يوسف.

¹⁷- الغزالي، ج5، ص108.

¹⁸- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص553.

¹⁹- علي أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ - 232 هـ)، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

ط1، 1414 هـ، ج1، ص151.

²⁰- إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، 1969، ص67.

²¹- آية 20 من سورة الحديد.

²²- آية 14 من سورة آل عمران.

²³- سورة التكاثر.

إن دعوة الإسلام للزهد لم تأت في آيات صريحة ومع ذلك ففي ثناياها تدعونا إلى أن لا نرتمي في أحضان الملذات، فكانت بذلك هذه الآيات: "بيان لحقيقة الدنيا، وأنها حطام فان ومتاع زائل. كما توضح ما عند الله من النعيم والثواب، فهي تتضمن دعوة إلى الزهد في الدنيا والانشغال بالآخرة، ولقد سار القرآن على هذه الوتيرة، فقلل من شأن الدنيا، إن تغطي وجعلها مجالا لعمل الطاعات وسبيلا إلى الفوز والنجاة"²⁴.

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله دنني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبنى الناس فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"²⁵.

ويوضح لنا هذا الحديث أن الزهد في الدنيا طريق إلى الله وحبه، والعفة والعزة طريق لمحبة الناس فمن أحب الدنيا أبغضه الله والناس لأنها مفتاح كل شر وطلب الكفاية من الدنيا واجب، والزهد ترك الزائد منها)²⁶.

وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق....يجدي أسك ميت²⁷. فنتاوله فأخذ بأذنه ثم قال "أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا شيء وما نصنع به؟ ثم قال: أتحبون أنه لكم؟ قالو: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك. فكيف وهو ميت!! فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم"²⁸.

ونلمح من هذه الأحاديث: "التحذير الشديد من الافتتان بالدنيا والتنافس فيها لأن عاقبة ذلك الهلاك، وهذا ما يخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، إن هم انصرفوا إليه كما جاءت الأحاديث آمرة بالزهد مبينة فضله وثمرته وهي محبة الله تعالى ومحبة الناس"²⁹.

والإسلام قد "وضع حدود بين الإفراط والتفريط ونظرا لما يعلمه الله من أن بعض البشر لهم استعدادات خاصة، فقد جعل الفرائض، واجبا على الجميع وترك النفل والتطوع للنفوس التي تريد الترقى والسمو، وتقدر على ممارسة أنواع الرياضات التعبدية"³⁰.

²⁴-علي مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ - 232 هـ)، ص152.

²⁵-يحي بن شرف الدين النووي، شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1982، ط2، ص105-107.

²⁶-المرجع نفسه، ص107.

²⁷-صغر الأذن ولزوقها بالرأس وهو أسك وهي سكاء، الصغير الأذن.

²⁸- أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ - 232 هـ)، ص153-154.

²⁹-المرجع نفسه، ص 153-154.

والإسلام يدعو المؤمن أن يأخذ نصيبه من الدنيا كما لا ينسى نصيبه من الآخرة وخلاصة القول أن الزهد هو الحرص على ترك كل ما يشغل عن ذكر الله، وقد يكون معناه الواسع أوسع من الورع، وقد يأتي بمعنى التقشف التام، وتخليّة القلب من ذكر ما هو دنيوي، وقد تأتي بمعنى أوسع من القناعة التي هي كبح جماح النفس وشهواتها.

ب - وجهة مفهوم الزهد في الفكر السلفي:

وقد جاء عن السلف عدة تعريفات ذهب بعضها إلى مظهر أو نوع من أنواع الزهد والاختلاف فيما بينها إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

(فقد سئل مالك بن أنس عن الزهد؟ فقال هو التقوى، وكان الفضيل بن عياض يقول: الزهد في الدنيا هو القناعة، ويأتي بشير بن الحارث فيعرف الزهد في الدنيا: هو الزهد في الناس ولربما أجمع ما قيل في الورع والزهد قول ابن القيم الجوزية رحمة الله عليه: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة" وبهذا يكون الزهد أوسع من الورع. وعرف بعض السلف فقال: الزهد في الدنيا: هو الزهد في الجوف وما يدخله من الطعام والشراب³¹.

أما سفيان الثوري: "ليس الزهد بأكل الغليظ ولا بلبس العباء، ولكنه قصر الأمل وارتقاب الموت"³². قصر الأمل وارتقاب الموت يشمل كل أنواع الزهد من حب للمال والجاه، وكل ما يدخل في الجوف من طعام وشراب، وحب للباس والمسكن وكل ذلك من الشهوات، وقصر الأمل يقطع كل لذة وينسى كل شهوة فتكثر أعماله دون أن ينسى الموت، ويكون بذلك قطع أوصل الود مع الدنيا بعدم الطمع فيها ولا في ملذاتها، وبالتالي يتفرغ لعبادة الله ويستعد للموت التي هي الحقيقة الوحيدة الواضحة والأكيدة³³.

وقال عبد الخالق المتعبد³⁴: يا أخي أقصر نفسك عن شهواتها، ولا تمكنها من هواها، فتريدك فإنها لا تشبع ولا تقنع ولا ترضى منك إلا بهلاكك، إن أطعتها، وتعلم يا أخي أن الفقر مع الدين خير من الغنى مع الفجور، وارض من الدنيا باليسير، فإن القليل منها يجزي ولا

³⁰ -إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص 67.

³¹ -الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الفكر، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية، 1975، ج 5، ص 158.

³² -القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 56.

³³ -ينظر علي أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، مشكلاتها وأساليبها ومواقفها، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط 1-1414هـ - ج 1-ص 158.

³⁴ -رياض بالقباب، قال أبو العرب: كان من طبقة المجتهدين في العبادة، ومن أصحاب البهلول، وكان راغبا في الآخرة، كثير الخوف، دائم الحزن، كثير المعروف، قليل الهيبة للملوك، الرياض، ج 1، ص 324.

تشغل بحبها ولا بطلبها عن الآخرة التي لا غنى لك عنها، ولا بذلك منها، واعلم أنه ليس أحد ينظر لك إلا أن تتظر أنت لنفسك، فاعمل لها قبل أن يحال بينك وبين العمل واغتم بقية عمرك وصحة بدنك، واتعب نفسك في الدنيا تجد ذلك وأنت أحوج ما تكون إليه حين يندم طالب الدنيا الذي يستعرض لها ولم يدرك منها إلا ما قسم له وضيع آخرته حتى قدم ولم يقدم لنفسه شيئاً فلا دنيا بقيت ولا الآخرة حصلت³⁵.

فهو يتحدث عن جمح النفس عن شهواتها وتطهيرها بعدم تمكينها منها والقناعة بالقليل تهذيباً للنفس وإتاحة الفرصة للتعبد والتأمل والانصراف عن الدنيا والدعوة إلى ذلك والتزود للآخرة بالعمل الصالح.

ثانياً – السياق التاريخي لنزعة الزهد في الفكر الإنساني والإسلامي:

و ننتقل إلى تاريخ نشأة الزهد، وهنا تصادفنا قضيتان الأولى في تاريخ ظهور معناه، والثانية في تاريخ ظهور مصطلحه وما يدل عليه من علم وفكر وسلوك تعبدية.

أ – في التاريخ الإنساني :

يبدو أن نشأته ترجع إلى بداية " شك الإنسان في قيمة الحقائق الإنسانية، يوم رأى لكل قوة ضعف، وكل وفاء إلى غدر، وكل حياة إلى موت، وكل شروق إلى غروب، لا تسألوا متى اهتدى الإنسان إلى قيمته الذاتية، ويكفي أن تتذكرو أن البيئات العربية عرفت كثيراً من الأنبياء الذين آثروا الزهد والفرار من اللذات³⁶.

ومن هذا المنظور التاريخي الإنساني فإن الزهد بحسب الروايات وجد منذ القدم عند الأمم القديمة، كقدماء المصريين والهنود... فقد استعمل "في تاريخ الرهبانية المسيحية أو في تاريخ العديد من النساك الهنود المنتمين إلى مختلف الأديان، وهي تعني الاجتناب الاختياري للملاذ العادية والابتعاد عن الحياة الاجتماعية، وخصوصاً الزواج عند المسيحيين وتجنب الأشياء التي تعلق بالنفس وتعيق تقدمها الروحي، ولكن هذا الاصطلاح لا يعني الزهد بمنتهى الدقة بل يعني كبح جماح النفس وتطهيرها، والبساطة التي ترفض كل أبهة وتترف، وتحاول بمحض اختيارها المحافظة على أسلوب في العيش بسيط وبدائي ومنكر للذات³⁷.

³⁵–المصدر نفسه، ص 329-330.

³⁶–زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، 1-2، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص5.

³⁷–صابر طعمة، الصوفية معتقداً ومسلماً، دار عالم الكتب والنشر والتوزيع، ط2، 1985، ص54.

وعلى هذا الأساس قد يحل الزهد " محل النسك المرادف له في النصوص القديمة ويدل بوضوح على معنى أوسع من القناعة ... بل أوسع من الورع أيضاً، واتسعت فكرة الزهد من عهد الحسن البصري إلى عهد الدارين، ثم استقر بين القرنين الثاني والثالث فأضحى الترك مقتصر على اللباس والمسكن والطعام الشهوي بل يشمل أيضاً النكاح ثم نشأت فكرة محاسبة النفس التي توسع فيها (المحاسبي والملامتية) فأصبح التعويل على زهد النفس بترك الأغراض والشهوات مما يؤدي إلى فكرة التوكل"³⁸، وهذا تاريخ يخص الأمم الشرقية القديمة.

ب - في التاريخ الإسلامي :

أما تاريخ الزهد في الإسلام فقد نشأ من خلال معاني القرآن وحياة الرسول ذلك أن عائشة سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت "كان خلقه الإسلام" وأول جماعة مارست الزهد هي جماعة أهل الصفة حتى أن السهوردي يعدهم أقدم مثال للأربطة والزوايا"³⁹.

- أسباب وعوامل ظهوره:

هناك جملة من الأسباب أدت إلى ظهور وانتشار هذا النمط الديني، الذي يسلكه الأفراد منذ وقت مبكر في الإسلام منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أخذت حركته في الاتساع بمرور الزمن بما وجد من عوامل متباينة، ومن هذه الأسباب نذكر الآتي:

1- إعجابهم بالسلوك العملي للرسول صلى الله عليه وسلم وحياة زهد الصحابة والتابعين الذين استوطنوا الشمال الإفريقي منذ الفتح الإسلامي للمغرب من مثل "عقبة بن نافع الفهري، وأبي ذر الغفاري، وعبد الله بن الزبير وغيرهم كثير ... ولا شك أن سيرة بعض هؤلاء الصحابة والتابعين قد انتشرت بين الناس في مجالسهم يتداولونها في إعجاب يدعو إلى التأسيس بما كانوا يفعلون"⁴⁰.

2- تمكين الدين الإسلامي من قلوب البعض، ودعوته إلى الزهد دون الابتعاد عن الناس ومشاكلهم، لكن جولد تسهير يذهب إلى أن خوف العامة هو الذي عجل بظهور الزهد وسيطرة

³⁸-أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خور رشيد عبد الحميد يونس، دار المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مج10، ص451-452.

³⁹-بسيوني، نشأة التصوف، ص67.

⁴⁰-عبد العزيز نبوي، الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص91.

نزعتة في القرن الأول، ونسى رجاء العامة الثواب والنعيم، وخوف الأوساط من القطيعة والكدورة في صفاء المعرفة إذ "ارتببت بالمبالغة في الشعور بالخطيئة والرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة"⁴¹، وقد بنى صاحب هذا التفسير على بعض "التصورات الآخروية التي عرضها القرآن، فقد احتشدت السور المكية فيه آيات الوعيد التي تجسم في الشعور بالصور المتنوعة للنكال من سراويل من قطران ومقامع من حديد والماء كالمهل وطعام من ضريع، وشوب من حميم، وفي آيات أخرى قرن الخوف بالإيمان كقوله (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)⁴². وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان)⁴³... ولئن كان في بعض آيات القرآن وعيد ونذير فليست آيات القرآن كلها كذلك فإن هناك صورة مقابلة يشع في النفس الاطمئنان والرجاء بما يثيره شوق إلى النعيم الذي أخرج أيضا في صورة محسوسة بيد أن هذا الرجاء فإنه لا يرجو من المرجو سواه⁴⁴.

3- كثرة الثورات والفتن (الحروب والاضطرابات)، وردة فعل الأشخاص، وقد أخذ جولد تسهير هذا التفسير التاريخي إذ "رأي أن الحروب الأهلية الطويلة الدامية والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية، وازدياد التراخي، والاستهانة بالمسائل الخلقية، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها"⁴⁵.

وهذا الرأي الثاني له من التطرف الحزبي واستبداد السلطة والتراخي والذي هو موقف واحتجاج أو رد فعل مضاد يمثله الزهاد الذين يعبرون بسلوكهم النقشفي عن الوجه الآخر للحياة الاجتماعية، ولقد نتج عن بعد الحكام عن روح الإسلام ومبادئه وظهور الفساد ويأس وإخفاق بعض الناس تحقيق أمنيتهم والانهماك والانغماس في الشهوات كردة فعل عن فعل الزهد حيث كلما: "اتسع هذا التيار الجارف، وكثر المنخرطون في اللهو والمجون والفساد زاد الزهاد والوعاظ ورجال الدين على اختلاف منازلهم وزاد عددهم وكثر اتباعهم،

⁴¹-عاطف جودت نصر، شعر عمر بن الفارض، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص13، نقلا عن رينولدنيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلاء عفيفي، ط 1956، ص20.

⁴²-سورة آل عمران، الآية 175.

⁴³-سورة الرحمن، الآية 46.

⁴⁴-عاطف نصر، شعر عمر بن الفارض، ص13.

⁴⁵-المرجع نفسه، ص46.

والمستجيبون لدعوتهم، ولو من بعض الجوانب، بل إن جانب الإيمان والميل والالتزام جانب الدين كان أقوى وأكثر عدداً، إذ قيس هؤلاء بالملحدين والشكاك والمتحللين⁴⁶.

5- المحيط المهيب لذلك، فأهل المغرب أهل زهد منذ القدم لتواجد الديانتين اليهودية والمسيحية، ويمتد الوجود اليهودي⁴⁷ في المغرب العربي منذ القرن الثالث قبل الميلاد عندما هاجر إليها بعض اليهود من فلسطين في أعقاب سقوط أورشليم، ولكن هذا الوجود قد تغذى من خلال موجات لاحقة في عهد الرومان⁴⁸.

أما الهجرة الثانية: "فقد حدثت بعد الفتح الإسلامي لهذه المنطقة، فقد جاءت مجموعات مهاجرة منهم من شبه الجزيرة العربية مع القبائل العربية المهاجرة، وأخرى من مصر، واتخذوا المدن الساحلية مقراً لهم كما انتشر بعضهم في المناطق الداخلية"⁴⁹.

6- نظام الرباطات⁵⁰ المغربية: ودوره الإيجابي في انتشار الزهد، حيث كان من أكبر الحوافز المساهمة في تألق المناحي الروحية في المغرب، وقد ساعد على بنائها الحكام وولاية الأمور، وكرموا المرابطين ليتقربوا من الجماهير التي تحب من يحسن معاملتهم وتكبرهم⁵¹.

لقد كانت إفريقية⁵² قبلة للزهاد والمرابطين فهي دار رباط وجهاد عبادة، وبذلك قامت بإعطاء دفعة قوية سريعة لانتشار الإسلام، وفي أهل المغرب يقول أبو الأحوص:

⁴⁶ - محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ج 1، ص 44.

⁴⁷ - لقد بدأت الهجرات اليهود إلى المغرب العربي منذ القرن الثالث ق.م عندما سقطت أورشليم وطردوا من فلسطين، وكانت وجهتهم المغرب العربي ونزلوا تونس لوجود الفينيقيين فيها ... ثم تلت هجرات في عهد الرومان إلى المغرب الأقصى، وعمل هؤلاء على نشر اليهودية من قبيل قبائل البربر وتمكنوا من إدخال بعض البربر إلى الدين اليهودي، كذلك هاجرت جماعات يهودية أخرى إلى منطقة من مصر وبرقة، ودوافع الهجرة في الفترة القديمة كانت سهولة الهجرة نحو المغرب العربي لوجود العنصر السامي المتمثل في الفينيقيين الذين عاملوهم معاملة حسنة بالإضافة إلى خيرات المنطقة وموقعها الهام على البحر المتوسط، ينظر: عبد المالك خلق تميمي، الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي. دار الشباب للنشر والتوزيع، قبرص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص 113.

⁴⁸ - المرجع نفسه، ص 230.

⁴⁹ - المرجع نفسه، ص 113.

⁵⁰ - الرباط: هو الدفاع عن أرض الإسلام والجهاد في سبيل الله والعباد، الحركة المرابطية: أهم ظاهرة دينية وعسكرية عرفها العالم الإسلامي وبلاد المغرب على الخصوص، فإذا كانت الربط في إفريقيا والمغرب الأوسط قد ظل فيها أناس اعتزلوا حياة المدن التي شملتها الفوضى والاضطرابات السياسية وفساد العقيدة فانقطع هؤلاء على الربط والممارسة للعبادة وتلقي علوم الدين، ينظر: محمد الأمين بلغيث، رسالة الربط بالمغرب الإسلامي ووردها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف عبد الحميد حاجيات، 1986-1987، ص 147.

⁵¹ - إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شاعر المغرب حتى خلافة المعز، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1991، ص 119.

⁵² - يمكن أن تكون قصور طرابلس الغرب وقاعدة المغرب الإسلامي "القيروان" هي فجر حركة الرباط والمرابطية في هذه المنطقة إذ كان على هذه العاصمة الإسلامية الأولى في المغرب الإسلامي أن تقوم بدور رئيسي وفعال في نشر الإسلام وامتداد نفوذ في القارة الإفريقية، ... أصبحت القيروان رباط المسلمين النساك والمرابطين، وهم الجيل الذي أعطى للمغرب الإسلامي ثقافة ديننا جديداً. ينظر: محمد الأمين بلغيث، رسالة الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين، ص 99-101.

أبو أن يرقدوا الليل فهم لله قوام
أبو أن يخدموا الدنيا فهم لله خدام⁵³.

تعد الأربطة والثغور من أشد المناطق تدينا وإغراقا في الزهد بانتشار الزهاد فيها، فقد ساهمت الأربطة كالأديرة بالنسبة للمسيحية في نشرها وحركة التبشير التي تعد الأداة الروحية فانتشرت الحماسة الدينية فيه، وليس بغريب عنها منذ الوهلة الأولى بما أن العالم مزقته ودكت أركانه الحروب، وطفحت بالشهوات في العاصمة والتكشف على الحدود الثغور.

7- الصلة الروحية بين المشرق المغرب: كان المغرب عامرا بالزهاد كالمشرق واتصاله به دائب وحلقات التواصل بين طلاب العلم أخذ وعطاء، تأثير وتأثر فعلى سبيل المثال تتلمذ ذا النون المصري على يد الصوفي أبو علي شقران المغربي، هذه الصلة التي مهدت لانتقال الاتجاهات الدينية والفكرية المختلفة إلى الغرب الإسلامي وهي الصلة التي يظهر أثرها بجلاء في ذي النون المصري على يد صوفي مغربي هو أبو علي شقران علي الفرضي حيث قصده ذو النون في المغرب وسمع منه⁵⁴.

ج - روافده الفكرية والروحية:

إن الحياة الروحية لم تحمل في الإسلام هذا الاسم بما يرادف كلمة *Astisme*، ولم يطلق على النبي ولا على الصحابة لأنه مصطلح ظهر بعدهم بزمان طويل وأطلق على طائفة من العباد والنساک حيث يقول ابن عربي أن كلمتي "الزهد وزهاد أصبحتا علم على طائفة مع مطلع النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، ويرجع السبب في تأخير ظهورها كمصطلح أن الزهد في القرآن لم يشكل ترغيبا لرواد الروح الأوائل في الإسلام".

كان هؤلاء الرواد ممثلين بطائفتين يصورون الحياة الزاهدة في عصر الرسول: طائفة القراء وطائفة أهل الصفة، كما أنه وجد إلى جانب هاتين الطائفتين طائفة التوابين والبكائين بصورة أفراد غير منتظمين في حلقات، وقد ظهرت حركة الزهد بطابع سني نصي طول حكم بني أمية، ثم تطورت بالتدريج إلى أقدم صورة نعرفها عن التصوف⁵⁵.

⁵³ - القاضي عياض، تراجم أغلبية، مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر الجامعة التونسية، 1968، ص 99-101.

⁵⁴ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص 119، وعبد العزيز النبوي محاضرات في الشعر المغربي القديم، ص 91.

⁵⁵ - سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص 553.

يظهر من هذا النص أنه لم يكن ملحوظا في كلام الناس ولم يختصه بدرس ولا بيان، وكانت الأعمال الروحية تدرج في الأعمال الدينية ويؤكد هذا القول القشيري: "لم يتسم أفاضلهم في عصرهم تسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة فوقها، ف قيل لهم الصحابة.

ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ف قيل لخواص الناس ممن لهم شدة العناية بأمر الدين: الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعى فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المرآعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف"⁵⁶.

ويفهم من كل هذا أن الزهد كان نبئا إسلاميا، استمدته الصحابة من الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم سرت في التابعين وتبعي التابعين، أما تطور الألقاب التي تدل على العبادة وأهل النسك، ثم تحديده بمقامات المتصوفة لم يكن يعنيه بالمرّة (البتة)، فهم ليسوا في حاجة إلى توسيمهم بالزهد لأن صحبة رسول الله لا تدانيه ولا تضاهيه فضيلة أو أي علم من الأعلام أو لقب من الألقاب، أما بعدما دخلت تلك الأمة من اقبال الجمهور على اللذة والمال والجاه واختص العاكفون المقبلون على العبادة والانقطاع إلى الله باسم الزهاد والعباد، تمييزا وتقضيلاً لهاته الفئة من الناس: "فالقشيري يذكر النساك والزهاد على أنهم صفة عصر متأخر، وقد كانوا مهتمين اهتماما عظيما جدا بأمر الدين، ... إذ أن الأولياء في مطلع عهد الإسلام قد ألهمتهم روح التمسك الدقيق بحياة أسلافهم فرفضوا الترف على أنه بدعة ... وظل الزهد في هذه الحقيقة موجودا إلا أنه في الحين الذي بدأ فيه يتخذ شكلا أكثر دقة ووضوحا في تعمد طلب الفقر، وتعذيب النفس من ناحية، كان من ناحية أخرى يتقهقر إلى مركز ثانوي على اعتبار أنه مجرد مرحلة تمهيدية في حياة المتصوف"⁵⁷.

والبحت عن الدوافع قد أخذ جانبا واسعا من اهتمام الدارسين فمنهم من يرجعه إلى فكرة شاعت مؤداها أن نشأة الزهد الإسلامي متأثر بالمسيحية، وغيرها من المؤثرات الأجنبية، وقد اعتمدوا في ذلك سلبية بعض الزهاد المسلمين في عدم مشاركتهم في معترك الحياة واللجوء إلى العزلة والعبادة، وعدم الاهتمام بما يدور حولهم، وهذا تجني على العرب والمسلمين وتجريدهم

⁵⁶-مصطفى علم الدين، الزمن العباسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص245، نقلا عن الرسالة القشيرية في التصوف، القاهرة، 1963، ص9.

⁵⁷-صابير طعمة، الصوفية معتقدا و مسلكا، ص56-57.

من مظهر القوة الكامن في الحياة الروحية، وقد تابع الدارسون التشبث بهذا الرأي وخاصة المستشرقين.

وفي هذا يقول محمد عبد الغني الشيخ: "أما عن سلبية الزهاد المسلمين، وتجنبهم للحياة فالمغالطة هنا ناتجة من الإطلاق وتعميم هذه الظاهرة على الزهد الإسلامي، والحق أن هذا المسلك عرف عن بعض الزهاد الذين كانوا يهتمون بإيمانهم وأخرتهم، ولا يعبأون بما وراء ذلك مما يدور حولهم، ولكن أكثر الزهاد كانوا على خلاف ذلك تماما، إذ كان مفهوم الزهد عندهم يتفق ومبادئ الإسلام وتعاليمه وروحه وتوجيهاته الواضحة التي تحث على العمل للدنيا والآخرة معا، ... ولكنه لم يفهم من الزهد أن يعزل الزاهد عن الحياة ومشكلاتها، أو يمنع من الجهاد بالتنسيق في ميادين الحرب أو الجهاد في الحياة لكسب الرزق ولنشر العلم ومحاربة الشر"⁵⁸.

وكيف لنا أن نتجاهل المورث الزهدي الإسلامي من عهد الرسول والصحابة والتابعين ... ونغفل التأثير بالقرآن وعدم تجاوز أوامر الله ونواهيه، فنشأة الزهد إسلامية بحتة بعيدة عن أي تأثير أجنبي، ومصدرها القرآن أو سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي امتازت بخشونة العيش والبساطة التي لا تخلو من الأسودان (الماء والتمر) كي يظفر بالنعيم المقيم والحياة الطيبة وكذلك جما غفيرا من الصحابة آثروا حياة الزهد على ما سواها من الشهوات فلم تتجه إليها قلوبهم ولم تتعلق بها آمالهم بل اتجهت إلى طاعة الله تعالى ونيل رضاه وتعلقت بوعده الله وما أعد له يوم لقائه"⁵⁹.

فكانوا عمليين معتدلين يعنون بأمور معاشهم وواجباتهم الاجتماعية، يواجهون ويكافحون المشاكل ويجهدون لإيجاد أحوال أفضل في المجتمع فعمر بن الخطاب كان يحكم بلاد مترامية الأطراف، ومع هذا يرتدي لباس الزهد والورع، ويترك الدنيا، وليس أدل من أن عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بغسل جعل يدير الإناء في يده ويقول أشربها وتذهب حلاوتها، وتبقى تبعثها، اعزلوا عن حسابها وتركها"⁶⁰.

فما أكثر صور الزهد ومظاهره في حياة الصحابة والتابعين من إنفاق الطعام الطيب على الناس واقتصارهم على أكل الزيت والخل، وعدم نخل الدقيق ...

⁵⁸-محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص48-49.

⁵⁹-ينظر علي مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، ص154.

⁶⁰-الغزالي، إحياء علوم الدين، مج2، ج4، ص6، ص217.

فأبو عبد الله محمد بن مسروق⁶¹. من أغنى الأغنياء، وبعد موت والده نفذ يده من المتاع فكان يمر بالقرية من قرب أبيه فيخرج إليه أهلها ومن فيها ويقولون: نحن عبيدك، وكل ما لنا في هذه القرية فهو لك، فيقول إن كنتم صادقين فأنتم أحرار ومالكم لكم...⁶².

وكان إبراهيم بن أحمد الأمير يزور الأحوص المتعبد⁶³، فإن وجده يطحن قوته بيده جلس على التراب، وإن وجده فارغا جلس على جلد المطحنة لأنه لم يكن في بيته حصير ولا غيرها⁶⁴.

نضيف لما سبق أن معنى الزهد ترسيخ في النفوس بعد الفتنة التي قتل فيها عثمان وإلى غاية القرن الهجري الأول، ولم يكن هناك اتصال له خطره بين العرب وغيرهم، ولم يكن أمر الترجمة قد شاع وانتظم بل كانت محدودة إلى حد بعيد فمن أين كان التأثير الأجنبي في الصحابة والتابعين عند منشأ الزهد الإسلامي وظهور الزهاد في الصحابة⁶⁵.

إن التأثير الأجنبي لم يكن في نشأة الزهد الإسلامي، بل كانت النشأة إسلامية خالصة وإن كان هناك تأثير فقد أتى "في وقت متأخر بعد الاختلاط والامتزاج بين العرب وغيرهم بعد استقرارهم في البلاد المفتوحة والإقبال على الترجمة، وغير ذلك من وسائل الاتصال، التي يمكن أن يكون له أثر، وكان هذا الأثر الأجنبي من أكبر العوامل في تحول الزهد نحو السلبية، واللامبالاة بشؤون الحياة، ثم كانت من أهم الأسباب في انحراف التصوف أو مدعيه⁶⁶.

ومن الخطأ أن نرد هذا الزهد الإسلامي إلى الزهد المسيحي "الذي يمثله الرهبان بمجرد التشابه في بعض المظاهر والأعراض الخارجية؟! أليس الأولى أن يرد إلى الإسلام نفسه؟

⁶¹ -يعرف بالزاهد، كان رجلا صالحا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة، ترك الدنيا عن مقدرة رغبة منه فيما عند الله عز وجل ذكر ابن اللباد بإسناد يتصل بسعيد الأدم المتعبد بمصر أنه قال: كان يقال إن رجلين كان في الدنيا فرها فيها، وهما عمر بن عبد العزيز، ومحمد بن مسروق هذا، المالكي، رياض النفوس، ج1، ص193. وينظر: إبراهيم الدسوقي جاد الرب، الشعر المغربي حتى خلافة المعز، ص123.

⁶² -المالكي رياض النفوس، ص193.

⁶³ -أحمد بن عبد الله المتعبد بسوسة ت 284 هـ، يوم الجمعة قبل الضحى، وصلى عليه الناس يوم السبت قبل الضحى، قال أبو العرب: كان أصله من المغرب سكن سوسة، وأوطنها، وكان ثقة متعبدا كثير العمل والاجتهاد، كان يصلي من الضحى إلى العصر ثم يجلس فيسمع الناس وقد كان كف بصره. المالكي، رياض النفوس، ج1، ص482-483، جاد الرب، شعر المغرب، ص123.

⁶⁴ -المالكي، رياض النفوس، ج1، ص382-483.

⁶⁵ -ينظر محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول، ص51-52، وينظر شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، ط7، 1981، ص57.

⁶⁶ -نفسه.

وقد امتلأ كتابه بالآيات التي تصور الدنيا لعبا ولهوا وزينة وتكاثرا وتفاخرا وأن الأولى الأولين تركوا ما خولوا فيه من جنات وعيون وزروع ومقام كريم⁶⁷.

وعند الدراسة يتجلى لنا هذا الزهد السني النقي الخالص الذي كان في صدر الإسلام وأوائل عصر بني أمية. والذي ساد المشرق، وهذا هو المفهوم الذي نرتضيه في الدراسة وهو أيضا يتلاءم مع شعر الزهد المغربي القديم، الذي كان بسيطا ولم يخالطه زهد الأمم الأخرى، كما وحدث في المشرق وتلك المغالاة التي تعود إلى النموذج المسيحي، أضف إلى العلاقة بين الفكر والدين، الذي اتسم بالبساطة وعدم التعقيد كما هو عليه حاله في وقت متأخر.

و"هناك ظاهرة بارزة في الحياة الدينية الاجتماعية تميز بها المغرب عن المشرق، وهي ظاهرة التصلب الديني والاعتدال فيما يتصل بحياة اللهو والمجون وخاصة عند الجماهير كما نجد الفقهاء أنفسهم أكثر تشبثا والتزاما، وأحيانا تزمنا في الحياة الدينية، من زملائهم في المشرق الذين كانوا أكثر تسامحا في الدين بوجه عام، وأقل سخطا على اللهو والمجون وخاصة عند الجماهير كما نجد الفقهاء أنفسهم أكثر تشبثا والتزاما وأحيانا تزمنا في الحياة الدينية من زملائهم في المشرق الذي كانوا أكثر تسامحا في الدين بوجه عام، وأقل سخطا على اللهو والمجون⁶⁸، وكذلك إتباعهم واعتناقهم المذهب المالكي لميله للبساطة.

إن الزهد شأنه الوجدان في الأديان كلها قديما وحديثا، وهو ظاهرة اجتماعية نفسية وسلوك فردي وليس تعبيراً عن واقع معيش فقط أرجعها البعض كينكولسون إلى بعض العوامل الخارجية التي صورتها على أنها هي المسؤولة عن اختيار الزهد بدليل أنه لو كانت هذه النزعة قد تطورت نتيجة للعوامل التاريخية والاجتماعية في ذلك العصر من شيوع الترف والبخ والمجون والاحتيال على الدنيا نتيجة الفتوحات ودخول عدد من أهل البلاد في الإسلام لأصبح الكل زهادا فكيف تفسر تواجد شاعران في زمان واحد كأبوا العتاهية والنواصي وتوجه أحدهما إلى الزهد والآخر إلى المجون على الرغم من أنهما ينتميان إلى نفس العصر أي إلى عصر واحد "لو افترضنا مع نيكولسون هذه الدوافع وأنها عامة، لكانت النتيجة الحتمية لهذا الافتراض أن يصبح جميع الذين خضعوا لهذه الظروف العامة زهادا، والأمر ليس كذلك على ما اعتقد لأننا نجد أنماط شتى من الناس خضعوا لهذه الدوافع الخارجية العامة، أنماطاً من رجال الحرب

⁶⁷-عاطف نصر، شعر عمر الفارض، ص11.

⁶⁸-عبد الله شريط، أبو القاسم محمد كرو، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1966، ص147.

والشطار وشذاذ الآفات والطفليين والمكتدين الصوفية والماجنين وماذاك إلا أن هذه العوامل والدوافع المشار إليها ليست المكون الوحيد للزهد⁶⁹.

إن الزهد نمط سلوكي إنساني "يؤدي إليه التكوين النفسي لبعض الأفراد من جهة وتساعد عليه الظروف الاجتماعية من جهة أخرى فالناس بحكم تكوينهم النفسي منهم الانبساطي المنفتح للحياة والمقدم عليها في نهم، منها الانقباضي العازف عن الحياة الزاهدة فيها المنطوي على نفسه، وكما يكون الخوف من المصير الإنساني من الموت دافعا لبعض الناس في بعض الحالات على الإسراف في الانغماس في الحياة والانشغال بملاذاتها فإنه يكون كذلك لدى بعضهم في بعض الحالات داعيا إلى الزهد في الحياة والانصراف عن مغرياتها"⁷⁰.

وخالصة القول فإن الزهد ظاهرة في المغرب وذلك تقليدا للمشرق وللماديات المرهقة والسلطة في علاقتها بالدين وبمفاهيمها في الحكم، وقد نشأ إثر انغماس بعض المسلمين في الشؤون السياسية والملاذات الدنيوية في القرن الأول الهجري، فيما اختار فريق آخر التعلق بالله وبالدين وأن هذا الاختيار تجعلهم يشعرون بالاستعلاء على الآخرين واعتبار أنفسهم من خواص أهل السنة⁷¹.

ثالثا - التزاوج بين التجارب الزهدية والتجارب الشعرية :

إن النزعة الزهدية وتجاربها الفكرية والروحية والسلوكية عموما قد رافقها تجارب شعرية غزيرة صبوا فيها الزهاد كامل مواجدهم وقرائحهم وأصبح "بذلك فنا من فنون الشعر راج على ألسنة الشعراء في كثير من الآداب، وبرز لدى العرب في قصائد أبي العتاهية وأبو العلاء المعري كما يتجلى في إنتاج رجال التصوف"⁷²؛ فما حظه عند الشعراء المغاربة؟.

قبل التكلم عن شعر زهد المغاربة نشير إلى أن هذا التيار إنساني عرفته كل الأمم في شعرها ومنهم القدماء من المعالم الشرقي وعند العرب قبل وبعد الإسلام.

والمتصفح لأعمال القدماء من مصريين ... يجد شعر الزهد قد جاء في شكل هواجس كما يتضح في هذا النموذج لأحد شعراء المصريين القدماء:

⁶⁹-عاطف نصر شعر عمر بن الفارض ص 14.

⁷⁰-عز الدين اسماعيل في الشعر العباسي الرؤية والفن ص 77.

⁷¹-مصطفى علم الدين، الزمن العباسي دار النهضة العربية والنشر ببيروت 1999 ص 276.

⁷²-جيبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 137.

ما التكاثر في الأرض والنهائية القبر!؟

تشبه بالحي الأبدى العادل

الذي لا يظلم أحدا

السلام الذي لا يحب تعكير الصفاء أبدا

إليه يرجع الناس كلهم...

إذا خلق الإنسان، دعى إلى سبيل الرشاد

ووعظ بأن يكون سليما معافى،

يعمل الخير، ويذكر الموت

حتى إذا جاء أجله استقبل القبر جذلان مغتبطا

أيها الكاهن إن الموت الذي تتحدثون عنه ليس إلا الاتحاد بأرباب الأبدية⁷³.

كما نجد التوراة يكثر ويعج بهذا النوع من الخطاب الزهدي ، وذلك عند العرب "فالنزعات الروحية ... قد بدت في ألوان هي الحكمة المتصلة بما وراء الطبيعة في شعر الجاهلين ثم الروحانية الدينية في الشعر الجاهلي ثم شعر التحنف⁷⁴.

ولا يمكننا اعتبار الحنفاء⁷⁵ وغيرهم زهادا لأن "حياة الرهبان والمتحفين هي لون من ألوان الزهد وليست زهدا فهذه الفئة من الناس التي رفضت المجتمع بكل قيمه"، وهذه الجماعة راحت تبحث عن الحقيقة واتخذت لنفسها مسلكا معيناً، وأمرها يختلف عن الزهاد إذ الزهاد يرفضون حقيقة جملة من السلوكات الاجتماعية ولكن يفعلون ذلك عن قناعة ولأن الطريق واضحة أمامهم وفق مبادئ معينة ومن هنا لا يمكن اعتبار الحنفاء زهادا⁷⁶، يقول عدي بن زيد العبادي⁷⁷ في قصيدته المشهورة:

أرواح مروع أم بكـور أنت فأنظر لأي أمر تصير

⁷³-خليل شرف الدين، أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، ص56.

⁷⁴-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري ص 08.

⁷⁵-لقد أجمعت المصادر "على أن الحنفاء قد اخطوا لأنفسهم مسلكا عمليا مميذا قوامه تهذيب النفس وتصفيتها وإتاحة الفرصة للتعبد الذاتي والمعرفة التأملية إذ لجأوا إلى الزهد فحرموا على أنفسهم الخمر كذلك حرموا ما أحل العرف من أطيب الطعام كاللحم والدهن وارتدوا ثيابا من الشعر كمظهر من مظاهر الزهد الخالص وليس بعضهم الصوفية كأمية بن أبي الصلت"، ينظر إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص47.

⁷⁶-مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي، ص 280-281.

⁷⁷-لقد كان مصابحا للنعمان بن المنذر في رحلة ترحاله وكان يعظه حتى تنصر فهو شاعر يكون هو النموذج المقتدى من قبل أبي العتاهية لأن شعر عدي لا تتضمن غير فكرة عابرة عن الموت الناس وزوالهم بعد أن كانوا وملاحظة تغير الزمن ودورانه المرجع نفسه ص 281.

أيتها الشامات المعبر بالدهر
أم لديك العهد الوثيق من
من رأيت المنون خلدن أم من
أين كسرى الملوك
وبنو الأصفر الملوك، ملوك الروم
وأخو الحصن إذ بناه وإذا دخله
وتذكر رب الخورنق إذ
شاده مرمرا، وحلله كلسا
سره ماله وكثرة ما يملك
فأرعوى قلبه فقال وما
أنت المبررأ الموفور؟
الأيام؟ بل جاهل مغرور
دا عليه من أن يضام حقير
أنو شروان أم أين قبلة سابور؟
لم يبق منهم مذکور
تجبي إليه والخابور
أشرف يوما وللهدى تفكير
فلطير في ذاره وكور
والبحر معرضا والسرير؟!
غبطت حي إلى الممات
يصير⁷⁸

إن واقع الشاعر وما يعتريه من حالات اليأس والشك وتقلب الدهر من نعيم إلى جحيم، ومن شباب إلى شيخوخة لم يجد أمامه سوى التأمل واستجلاء حقائق الحياة من وراء سرابها الخادع فأنطقته بالحكمة الاعتبارية ولعله بهذا الشعر يهدئ من روع نفسه وهناك الكثير من الشواهد الشعرية تتحدث عن: "المصير الإنساني وما يقتضيه من ضرورة أن يتأمل في الحياة ويوجه سلوكه من منظوره"⁷⁹.

لكننا نكتفي بهذا الشاهد في هذا العصر المتقدم لنصل إلى الشعر الإسلامي الذي يعبر عن تأملات وأفكار عن الحياة والموت ويعظ الناس ويبصرهم بأمور دينهم مع العلم أن هاتين الأفكار الخاصة بالموت والفناء كانت مطروقة من قبل في الشعر الجاهلي، والفارق بينها واضح، وهو أن الشعراء الجاهليين يطرحون هذه القضايا بنوع من الحيرة، أما شعراء هذه الفترة، فقد كانوا على بنية من أمرهم بتأثير من الإسلام لهذا يعتبر هذا الإرهاص الشعري جديدا في الشعر العربي⁸⁰.

وإذا كانت هذه النزعة تبدو في إطار جزئي ضمن الموضوعات المعروفة في الشعر العربي فإن شعر الزهد في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، استقل من ناحية الموضوع وتخصص في هذا الموضوع بشعر التدين، وقد ارتبط مصيره بمصير الحياة الروحية في

⁷⁸- عز الدين إسماعيل، الرؤية والفن، ص 275.

⁷⁹- المرجع السابق، ص 75.

⁸⁰- عبد الحلیم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 155-156.

الإسلام منذ هذا التاريخ فبقدر تميز الحياة الروحية، وانعزالها على المجتمع الإسلامي العام كان تميز هذا الفن الشعري، وانعزاله عن الشعر العربي العام من ناحية الموضوع، وكما حققت هذه الحياة الروحية الصورة التي رسمها الإسلام وحاولت أن تطبقها في محيطها قدر المستطاع حقق هذا الفن الشعري المفهوم الإسلامي للشعر وحاول قدر المستطاع تطبيقه في محيطه"⁸¹.

إن الحياة الروحية في نهاية القرن الأول لم تكن استمرار للحياة، التي طبقها الإسلام في صدر القرن بل تطبيقاً جديداً لتعاليمه في الحياة، وبالتالي تناول الشعر الديني "بالتعبير والتصوير كل ما كان يظهر في الحياة، إذ ذلك بما في ذلك العواطف والتأملات الدينية، وقد وجدت البذور الأولى للشعر الديني في تلك الخطرات التي كانت تجرى على السنة أولئك المعترين بأمور الحياة والموت حين تعرض لذلك مناسبة تبعث على الاعتبار وتستدعي التذكير"⁸²، ولم يكن لهذا الشعر شعراء متخصصون للقول فيه "وإنما مقطعات على السنة الشعراء المختلفين الذين كانوا يقرضون الشعر في أغراض أخرى"⁸³.

أما فيما يخص موضوعاته، فقد قامت على غرضين رئيسيين: الوعظ والتذكير والذي يتناول فكرة الموت كفكرة رئيسية ويتبع ذلك بذكر التوكل والقبر وأهواله والحكمة الدينية التي تعتمد على النظرة الثاقبة في الحياة والناس وكلها نظرة من وجهة دينية، وفي هذا الصدد يقول الحجاج بن يوسف التميمي وهو من شعراء الدولة الأموية:

إذا كانت السبعون سنك لم يكن	لدائك إلا أن تموت طيب
وإن أمراً قد سار سبعين حجة	إلى منهل من ورده لقريب
إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهم	وحلفت من قرن فأنت غريب
إذا ما خلوت الدهر يوماً ما فلا تقل	خلوت ولكن قل على رقيب

84

ويقول الفرزدق⁸⁵:

ألم ترني عاهدت ربي و أنني
لبن رتاج قائم ومقام

⁸¹ - عبد الحليم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 146.

⁸² - المرجع نفسه، ص 147.

⁸³ - المرجع نفسه، ص 149.

⁸⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، نشرة السندوس، ط 1، 1936، ج 3، ص 174.

⁸⁵ - ولد في خلافة عمر بن الخطاب في أسرة استقرائية من قبيلة تميم، أما أمه من ضبة من أسرة شريفة، وهي أخت الشاعر العلاء بن قرظ، أسرته تعزز بنفسها وكرمها وجودها، فطبعته بطوابعها وأنجبتته على غرارها، وديوان الفرزدق في حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه، وتمجيداً غالباً لهم، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطاب قيلت في مديحهم، والفخر بهم فخراً لا تجف مادته في نفسه، إذا كان ليستمد من معين لا ينضب.

على قسم لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجا بن في سوء كلام
أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبى وتم تامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني ملاق لأيام المنون حمامي⁸⁶

وهاته الأبيات من قصيدة في هجاء إبليس وهي: "إفاقه من غفوة الصبا، وصحوة على الحقيقة العارية للحياة والناس وإنابة إلى الله بعد حياة شوهدت من نقائها الذنوب وشابت بياضها الآثام"⁸⁷.

وهذه القصائد و المقطعات تتلون بألوان نفس صاحبها وتصطبغ بصبغتها، ومن أشعار الحكمة الدينية نذكر على سبيل المثال قول أبو الأسود الدؤلي عندما دخل على معاوية فقال له:

لقد أصبحت جميلا يا أبا الأسود، فلو تعلقت تميما تنفي عنك:

أفنى الشباب الذي فارقت جدته كر الجديدين من آت ومنطلق
لم يترك لي في طول اختلافهما شيئا يخاف عليه لذعه الحدق⁸⁸

الإنسان غير مخلد وفيه طول الغفلة عن الموت، والشباب فان ذكرت الدنيا عند الحاد البصري فأنشد:

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا
يخدع⁸⁹

إن فن شعر التدين في القرن الأول الهجري له من المقومات والخصائص التي تجعله فنا مستقلا عن الشعر العام استقلالا موضوعيا يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. تمثيله للحياة الروحية: التي سادت القرن الأول الهجري وبخاصة في نصفه الثاني، تلك الحياة التي كان لها طابعها الخاص الذي يميزها عن الحياة العامة آنذاك، والتي كانت من أهم صفاتها السلبية وعدم المشاركة في الشؤون العامة.

2. انحصار أغراضه: في دائرة يرضى عنها الدين كالوعظ، والحكمة والأخلاق.

3. غلبة العنصر العاطفي: في هذا الفن على العنصر العقلي.

4. غلبة صفة التعويض: على هذا الفن، فإنه يعتبر دائما أدب أولئك الذين يؤملون في الآخرة ما فاتهم في الدنيا.

⁸⁶- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 154.

⁸⁷- المرجع نفسه، ص 153.

⁸⁸- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 159.

⁸⁹- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 159.

5. انعدام الغرض السياسي: والنزعة الحزبية، فإن الشعر الشيعي والخوارج لا يدخلان ضمن مفهوم هذا الفن.

6. اليقين الظاهر: في شعر التدين، والحيرة المطبقة في الشعر الجاهلي⁹⁰.

– تطور شعر الزهد في القرن الثاني الهجري:

تطورت الحياة الروحية بمرور السنوات ولم تمض فترة من القرن الثاني (حتى أخذت الحياة الروحية في الاستقرار والتعمق فظهر الكلام في بعض المعاني الروحية. وأخذ شكله التنفيذي العملي بشكل أقوى وأعنف بما تفترضه تعاليم الدين، وأخذت آثار الأفكار الأجنبية في الظهور، مما أعطى الحياة الروحية استقلالاً عن الحياة العامة أكثر مما كان لها)⁹¹.

لقد استجاب الشعر للأفكار الجديدة وكل المعاني التي طرأت على الحياة الروحية في الإسلام ومن أغراض ظهوره: الدعوة إلى ترك الدنيا، ودم الإقبال عليها، والاكتفاء منها بما يقيم الرمق، والإقبال لكن الهمة على الله تعالى، والانقطاع إليه والقناعة به، والثقة بما عنده، والمجاهدة في سبيل مرضاته، وظهر كذلك تجنيد التبتل، وعدم الانشغال بالنسل عن العبادة، والتزام ألوان من العبادة لا يفرضها الدين⁹².

إن الحياة الروحية تحولت من مجرد إقبال على العبادة، وانصرف عن مشاكل الدنيا التي لم تبين فيها وجه الحق في القرن الأول إلى مبالغة في العبادة وانصراف عن الدنيا، وأطلق على هاته الفكرة اسم الزهد "ومن الطبيعي إذن أن يطلق على شعر التدين في صورته الجديدة التي اكتسبها من التعبير عن حياة الزهد في القرن الثاني "شعر الزهد أو الشعر الزهدي هو طور جديد من أطوار شعر التدين ويختلف عن طوره الأول في شدة توغله في الروحانية، واشتماله على المقومات الجديدة للحياة الروحية في القرن الثاني"⁹³، ولقد تخصص في هذه المرحلة بعض الشعراء للقول في الزهد نذكر من شعراء الطليعة عروة بن أذينة:

لقد علمت و ما الإسراف من خلقي	أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعينني تطلبه	ولو جلس أتاني لا يغنيني
وإن خط امرئ غيري سيبلغه	لا بد لا بد أن يجتازه دوني
لا خير في طمع يدي لمنقضية	وغيره من كفاف العيش يكفيني

⁹⁰–المرجع نفسه، ص 165-166.

⁹¹–المرجع نفسه، ص 169.

⁹²– عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 169.

⁹³– المرجع نفسه، ص 173.

لا أركب الأمر تدرى بي عواقبه
 كم من فقير غني النفس تعرفه
 ومن عدو رماني لو قصدت له
 ومن أخ لي طوى كشحا فقلت له
 إني لأنطق فيما كان من أربي
 لا أبتغي وصل من يبغي مفارقتي
 ولا يعاب به عرضي ولا ديني
 ومن عني فقير النفس مسكين
 لم يأخذ النصف من حين يرميني
 إن الظواعت عني سوف يطويني
 وأكثر الصمت فيما ليس يعينني
 ولا ألين لمن لا يشتهي
 ليني⁹⁴

إن الأبيات الأولى تقرر مبدأ التوكل على الله والدعوة للقناعة، واتقاء الشبهات وإيثار الصمت، وهاته الأبيات أشبه ما تكون بالشعر الديني، فهي تعبر بوضوح عن فكرة التوكل على الله التي شاعت في بيئة الزهاد وما يتصل بها من الثقة بالله وطمأنينة النفس وقناعتها، وأما شعر عبد الله بن المبارك⁹⁵: فتبدو معالم الزهد فيه في هذا النص:

الصمت أزين بالفتى
 والصدق أجمل بالفتى
 وعلى الفتى بوقاره
 فمن الذي يخفى عليه
 رب امرئ استيقن
 فأنزله عن رأيه
 من منطلق في غير حينه
 في القول عندي من يمينه
 سمة تلوح على جنبه
 ك إذا نظرت إلى قرينه
 غلب الشقاء على يقينه
 فاتباع دنياه
 بدينه⁹⁶

هذا المقطوعة تبين لنا بعض الآداب الواجب التحلي بها وهي الصمت والحكمة واتصاف المسلم بالصدق "ولكن البيتين الأخيرين يعتبران قفزة روحية جزئية فحتى ذلك الحين لم يكن الزهد يتناول المسائل النفسية بعمق، بل كان يمر عليها مرورا سريعا دون ثبات ومكث... وفي البيتين ربط بين العقيدة والعمل، وترتب ثانيهما على أولهما، وبقدر ثبوت العقيدة يكون إطرء العمل وقوته واتزانه"⁹⁷.

وهناك ظاهرة جدت على الحياة الروحية في القرن الثاني وهي ظاهرة المجانين ولا نقصد بهم المرضى بل مجانين ينطقون بالحكمة فهو جنون في طاعة الله والتعلق به، وهي

⁹⁴-المرجع نفسه، ص 178.

⁹⁵-له شعر غزل ومعدود من الفقهاء والمحدثين، روى عنه مالك بن أنس، ولقد ذكر عند عمر بن عبد العزيز فأثنى عليه واستثنى غزله.

⁹⁶-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 179.

⁹⁷-المصدر نفسه، ص 179.

طائفة نشأت في التدين، وعكفت على العبادة وانصراف عن الدنيا، وزينتها وعزوف عن متعتها. وفي تاريخ الزهد يسجل الدارسون جملة من الشعراء يشاركون في الحياة ويخوضون غمارها مع الخائضين، وقد استهوتهم المتع والملذات، فاجتروا السيئات، ولم يجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، ومضوا يعبون من الشهوات بنهم، ويبادرون اللذة قبل أن تحل بساحتهم الشيخوخة⁹⁸.

هذه الفئة هي فئة التائبين من مجان الشعراء، والدافع إلى التوبة يختلف إما خوفاً من عذاب الله أو من سوء الأحدث كعبد الله بن مسروق، أو أن تلك المخلفات لا تتفق واحترامه لنفسه وفكرته عنها، أو خوفه من الموت كالرياشي أو رجاء من عند الله من حسن الثواب للتائبين والعابدين كآدم بن عبد العزيز، ولا ننسى النواصي الذي امتاز بإخلاصه في مجونه وزهده على حد سواء⁹⁹. ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه الفكري في الشعر العربي أبو العتاهية¹⁰⁰. والذي يعد رائد الأول للزهد فنيا والرائد الثاني تاريخياً بعد سابق، بما امتاز به من غزارة المادة وكذا لتخصسه القول فيه، وأما سابق المظماطي فقد سبق أبو العتاهية، وتفرغ للقول في الزهد وقصائده التي وصلتنا تدور كلها حول الزهد مما يعنى أنه أسبق من أبي العتاهية وبالتالي كان الأحرى أن يعد رائد هذا الفن الشعري الزهدي؛ ولنعد إلى أكبر دعاة الزهد ولنتركه يرسم لنا صورة عن حياة الزاهد:

رغيف خـبر يابـس	تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد	تشربه من صافية
وغرفة ضيقة	نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل	عن الورى في ناحية
تدرس فيه دفترا	مستنداً لسارية
معتبراً لمن مضى	من القرون الخالية
خير من الساعات في	فيء القصور العالية

⁹⁸-المصدر نفسه، ص187.

⁹⁹-ينظر المرجع السابق، ص188.

¹⁰⁰-نشأ أبو العتاهية في الكوفة، وفيها تأدب، ثم نرح إلى بغداد، واتصل فيها بالمهدي والهادي والرشيد والمأمون على التوالي، فأعجبوا جميعاً بشعره، وشعره سهل المبني حسن الديباجة، يجري في الغالب على البحور القصيرة، ويطرد على السبحية والطبع، وقد كان في شبابه ينادم الخلفاء على الشراب ويكثر من قول الغزل لكنه لم يلبث أن سئم الخمرة ومل المنادمة واعتكف ينظم الشعر في مهازل الحياة، وخداع الدنيا، وأباطيل المجد ويدعو إلى الاعتبار بحوادث الحياة ومصائر الرجال وجبروت الموت، كمال اليازجي-معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1974، ص110-111.

تعقبها عقوبة تصلي بنار حامية¹⁰¹

إن هذه الحياة هي الصورة التي يدعو إليها، وينصح بها لأنها السبيل الوحيد للنجاة من فاقة الحاجة وفقر الحرص، فيقنع برغيف يابس وكف من ماء، ويعيش بعيدا عن الدنيا والناس في خلوته متعبدا، ويعتبر بما مضى قبله بتلاوة ما ورد في القرآن أو الاعتبار بكتب الأخبار. وأبو العتاهية "قد استجمع... بين يديه تراث القرن الثاني في الشعر الزهدي وقد امتد عمره حتى أوائل القرن الثالث فشهد ظهور النبت الأول للمعاني الصوفية... وقد استطاع... بما امتاز به شعره من سهولة وكثرة وقبول عند العامة والخاصة أن يجعل من الشعر الزهدي فنا عاما يتناوله الناس جميعا بالإنشاء والرواية، ومهمة يجب أن يقوم بها الشعراء، وقد ورد عنه أداء هذه المهمة ابن له بعد موته"¹⁰².

وخلاصة الفصل أن الحياة الروحية كانت استجابة للمؤثرات جدت على المجتمعات الإسلامية فقد تطورت "كما يتطور الكائن الحي من الطفولة إلى الصبا، فالشباب ثم الكهولة فالشيخوخة، فكانت في أول أمرها تدينا، ثم تطورت إلى زهد، وتطور الزهد إلى التصوف"¹⁰³. لذلك بدت النزعات الروحية في الشعر العربي في صورة "الأبيات المفردة والمقطعات الصغيرة التي تأتي عرضا في قصيدة تعالج موضوعا آخر إلى أن عولجت في فن شعري خاص بها كان له استقلال عن الشعر العربي العام من حيث الشكل والموضوع على السواء في أواخر القرن الثالث الهجري"¹⁰⁴. وكان أبو العتاهية أشهر من تخصصوا للقول فيه، ثم انتهى في أواخر القرن إلى أن صار فنا يعبر عن حاجة اجتماعية، فتناوله شعراء صانعون لم يصدروا في شعرهم عن زهد عملي¹⁰⁵، ونصل لطرح هذا السؤال؛ كيف كان شأن شعر الزهد في المغرب؟

مما لا شك فيه أن المغرب كانت مهوى أفئدة الزهاد ولما رحنا نلتمسه ألفينا صبغ أدب المغرب في تلك الفترة، والناظر إلى ما يمر بنا من أبيات الشعراء كبكر مثلا يرفع شأن أبياته ويكشف مأخذ في غيرها.

¹⁰¹-عبد الحكيم، حسان التصوف في الشعر العربي، ص 209 نقلا عن ديوان أبو العتاهية، ص 204-205.

¹⁰²-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 235-236.

¹⁰³-المرجع نفسه، ص 05.

¹⁰⁴-المرجع نفسه، ص 05.

¹⁰⁵-المرجع نفسه، ص 200.

ومع ذلك فقد واصل الشعراء العزف على قيثارة الزهد بحيث سنرى أن نص الزهد في المغرب حضر أولاً على مستوى الدال العقيدي، بحيث أتت تلك الأشعار في البداية على شكل بدايات تتعلق بالزهد وتجسدت في شعر التدين، بعدها انزاحت القصيدة نحو الزهد حيث سنرى بعض الملامح الأولى والبدايات المشكلة للزهد، باعتبار أن الحضارة المغربية هي من صنع إسلامي عام ألا وهي الحضارة الإسلامية¹⁰⁶، ولكن بخصوصيات مغربية تشكلت في ظل الدويلات التي نشأت بالمغرب، فحاولت بذلك أن تجد لنفسها خصوصيات عقدية وفكرية؛ حيث اتسم الإنسان المغربي بالتزامات أكثر بالدين، وبالبساطة عكس المشاركة الذين اشتهروا باللهو والمجون، كذلك طبيعة الدولة في المغرب الإسلامي التي فرضت حضور الفقيه في الأدب، ولا ننسى أثر البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز والتي تتألف من عشرة من التابعين يشتركون في صفة أو يتميزون بها وهي: "الزهد في عرض الدنيا والعاطفة الدينية القوية، وسماحة النفس، ولين الجانب".

وأكبر الظن أن أثرهم... كان كبيراً في المجتمع الإفريقي، وأنهم استطاعوا أن يظفروا بقلوب أهل إفريقية، ويصلوا ما بينهم وبين العامة، وأن يؤدوا عن الإسلام صورة بعيدة عن صورة السيطرة والجبروت التي كان بعض الأمراء والعمال يظهرون بها.

رابعاً - مصادر شعر الزهد في المغرب:

تعد المدونة التي جمعت فيها شعر الزهد المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثالث الهجري الركيزة الأساسية التي يستند إليها البحث للكشف عن البنية الفكرية المغربية المولدة لسائر البنيات الأخرى الشعرية والثقافية والحضارية.

وقد حاولت قدر الإمكان الإحاطة بالمادة الشعرية اللازمة والكافية، وعليه فقد اعتمدت في جمع المادة الشعرية على مجموعة مصادر ينحصر أغلبها في كتب سير الزهاد وأخبارهم، ومنها:

1-رياض النفوس:

يعتبر رياض النفوس من المصادر الأساسية للأدب العربي المغربي حتى القرن الرابع الهجري، واغلب الباحثين في الشعرية المغربية يعتمدون عليه، وقد مدني بالمادة

¹⁰⁶-الحضارة الإسلامية في صميمها أدبية لغوية ومعنى الأدب التعبير الدقيق الجميل عن النفس الإنسانية في شتى حالاتها ومختلف خوالجها وهو أبرز ظواهرها.

الشعرية الموثقة اللازمة لهذا البحث بكونه يحيلني في مرات كثيرة بإشاراته المختلفة إلى ما كان ناقصا من تلك النصوص أو ما كان مشكوكا فيه.

وعلى الرغم من أن صاحبه أبو عبد الله بن محمد المالكي قد خصه لطبقات العلماء والزهاد والنسك في القيروان وإفريقية، وذكر لسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، فقد اهتم أكثر من غيره بنصوص أشعارهم والسياقات والأجواء الزهدية التي قيلت فيها، وحقائق عن سير أصحابها، ومن ثم فقد حقق المهمتين معا؛ فهو مصدر سير وتراجم لهؤلاء الزهاد و مصدر لرواية أشعارهم، ويعكس في الوقت نفسه تطور الحياة الفكرية والروحية بالمغرب إبان القرون الثالثة الأولى الهجرية بعد الفتح، إذ كانت القيروان وإفريقية في تلك الفترة مقرا لطائفة من علماء الفقه والأدب والزهد والتصوف، ولا ننسى أن صاحبنا كان زاهدا وعالما، وأحد الذين رسخوا المذهب السني والفقهي في المغرب والذي لا يزال المذهب السائد في دول المغرب العربي إلى غاية الآن.

2-ترتيب المدارك:

يجد الباحث في المكتبة المغربية مجموعة من كتب التراجم عرف مؤلفوها بأعلام المغرب، ويعد كثير من هذه الكتب من مصادر الشعر المغربي، وذلك بما تتضمنه من نصوص وأخبار، وهذه الكتب تمثل نمطين: أولها ترجمت لشعراء وسجلت نماذج من إبداعهم، وأخرى ترجمت صنفا أو أكثر من الأعلام منهم الشعراء ومنهم غير الشعراء، وهذه الكتب ليست كلها وفقا على المغاربة، ولا هي كلها من تأليفهم.

ومن الطائفة الأخرى " ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، واسمه الكامل أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ت455هـ.

وكان الهدف من تأليف هذا الكتاب محاولة القاضي عياض دحض خصوم المالكية شرقا وغربا، فهو مصدر فقهي فكري ثقافي ضخم أقيم تشريفا وتمجيذا للمالكية في عصورها المختلفة.

ومن الذين اختصروا الكتاب أحمد بن محمد بن علوان التونسي، الشهير بالمصري توفي 787 سنة هـ بالإسكندرية، وكذلك ابن حماد أو حماد السبتي هو من أصحاب القاضي أو تلاميذه، وكذلك الديباج.

3-تراجم أغلبية:

لمحققه محمد الطالب، وهو مؤلف لتراجم شعراء الدول الأغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، وقد أورد المؤلف ترتيب أصحاب مالك من الفقهاء في ثلاث طبقات

وقد استفدت من كتابي ترتيب المدارك وتراجم أغلبية في العودة إلى ترجمة بعض الشخصيات والاستفادة من بعض النصوص التي لم أجدتها في الرياض، الذي لم يحاول الانطلاق من البداية الأولى الخاصة بالشعر العربي في هذه المنطقة، بينما كان ترتيب المدارك أكثر استيعابا للنصوص الشعرية التي قيلت في تلك الفترة، كما امتاز بالدقة في ترجماته للشعراء الذين تحدث عنهم.

4- الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد:

ومن المصادر ما جاء في شكل مجموعات خاصة على غرار ما جمعه محمد بن رمضان شاوش من شعر بكر بن حماد التاهرتي: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، والذي ضاع أكثره ولم يبق منه إلا القليل متفرقا في كتب الأدب والتاريخ، ولقد تناولته المؤلف بالشرح والتعليق، وهذا بعد أن قدم عدة فصول يبين فيها حالة المغرب وتيهرت التي نشأ بها الشاعر أثناء القرن الثالث الهجري، وذلك من حيث الحضارة والرقى الفني والأدبي، وقد خصه بترجمة مفصلة عن حياة الشاعر وأثاره الأدبية ليكون القارئ على بصيرة من قيمة هذه الشخصية.

ولقد عثر على نحو المائة وعشرة أبيات من شعره، وبعد علمية إحصائية حسابية لعدد المقطوعات والقصائد التي تتألف منها هذه الأبيات ألفينا مجموعة تسعة عشرة مقطوعة وقصيدة، والمقطوعات منها هي الغالبة: أربع عشرة مقطوعة وخمس قصائد فقط وأطول قصيدة له هي القصيدة التي عارض بها الشاعر ابن حطان الخارجي على أنها لا تتضمن إلا ستة عشرة بيتا لكن أغلب القطع المثبتة له ناقصة لا تتألف إلا من ستة أبيات أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو بيتين أو حتى من بيت واحد فقط، وقصرها هذا يدل دلالة واضحة على ضياع أكثر شعره لأسباب عديدة¹⁰⁷.

وتراوحت أغراضه بين الزهد والوعظ (له فيها قصيدتان الأولى من عشرة أبيات والثانية من اثني عشرة بيتا وثلاث مقطوعات الأولى من أربع أبيات والثانية من خمس أبيات والثالثة من ثلاث أبيات)، والوصف (له فيه مقطوعة من أربع أبيات) وهجاء (له فيه قصيدتان الأولى من ستة عشرة بيتا والثانية من تسعة أبيات ومقطوعة من ستة أبيات)، ومدح (له فيه ثلاث مقطوعات الأولى من بيتين والثانية من ستة أبيات والثالثة من ثلاث أبيات)، واعتذار (له فيه مقطوعتان كل واحدة منهما مؤلفة من ستة أبيات) ورتاء (له فيه قصيدة من تسع أبيات وأربع مقطوعات الأولى من ثلاث أبيات والثانية من خمس أبيات والثالثة والرابعة من بيت واحد)، والملاحظ في هذه الأغراض خلوها من الغزل¹⁰⁸، وقد اعتمدت في بحثي تسعة نصوص من هذا الديوان.

5 — عبد الله سابق البربري،:

لصاحبه عبد الله كنون، الذي تعد مؤلفاته نموذجا للدراسات الرائدة للأدب المغربي، وقد أخذت من مؤلفه هذا ثلاثين نصا تعد من أنفس وأندر النصوص الشعرية التي لم أجد لها حضورا في غيره من المصادر، وهذه المادة الشعرية لأحد رواد الشعر المغربي سابق المظماطي، والتي لا تزال أخباره وأشعاره محل تضارب للآراء ومع ذلك لم يحظى بالاهتمام والدراسة التي يستحقها على الرغم مما يتسم شعره من الجودة بمكان في تلك الفترة الزمنية المتقدمة.

¹⁰⁷ - لمزيد من الإيضاح ينظر الديوان ، صفحة 54 .

¹⁰⁸ - لا ندري إن كان ذلك راجع إلى ضياع ما قاله في هذا الغرض أو كان ذلك تعففا ورغبة عنه.

طبيعة مكوناتها النصية:

إن المادة الشعرية التي توصلت إلى جمعها والتي تمثل غرض الزهد خلال القرون الثلاثة الأولى الهجرية قد صنفها تصنيفا كليا حسب عدد الأبيات، والجدول الآتي المدرج يوضح ذلك:

نوع النص	عدد التجارب
البيت المفرد	10
النتفة	31
المقطعة	33
القصيدة	24
المجموع	98

تضم المدونة 98 نصا موزعة على 585 بيت يعج بجميع أنماط التجارب الشعرية الخليلية، فقد جاءت تجاربهم في قصائد أو في شكل مقطوعات شعرية أو نتف؛ وهي أشكال قديمة موروثية عن الأدب العربي وقد أظهروا فيها براعة وإبداعا فيما يصوغونه فيها من تجارب شعرية، وكانوا يستأنسون بها ويكيفونها بما ينسجم مع متطلبات مجتمعهم وبيئتهم وهذا التوزيع كان بحسب المقاييس النقدية العربية القديمة التي ما تزال معتمدة وصالحة.

ويبلغ عدد القصائد 24 قصيدة؛ والقصيدة هي التي تتجاوز عدد أبياتها السبعة ولو بيت واحد، وكان ذلك اعتمادا على ما رواه ابن رشيق على العرب: "قبل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإبطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس، ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بيت واحد"¹⁰⁹، والرأي الأول هو الذي أخذت به في هذه الدراسة.

والمدونة موزعة بين القصيدة القصيرة التي تتراوح أبيات الواحدة منها ما بين الثمانية والعشرين بيتا (8-20)، وقد أحصيت في المدونة ثمان عشرة قصيدة قصيرة، كما حصرت القصيدة المتوسطة والتي يتأرجح عدد أبياتها بين واحد وعشرين وخمسين بيتا (21-50)، وقد بلغ عدد استعمالها خمس قصائد متوسطة، ولم تخلو أيضا من القصائد المطولة (51-100) وقد ظهرت في قصيدة واحدة.

¹⁰⁹ - ابن رشيق أبو علي الحسن، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح مفيد قميحة، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1، 1983، ص134.

أما المقطوعة والتي تسمى المقطعة أيضا "والتي تتجاوز عدد أبياتها البيتين ولم يتعد العشرة"¹¹⁰.

ولقد وجدت مقطوعات شعرية كثيرة بلغ عددها 33 مقطوعة وذلك لأنها أكثر شيوعا وأعلق بقلوب وأفواه الرواة والناس وأنها أسهل للحفظ¹¹¹، كما أنها يحكمها موقف واحد وتعبر عن موضوع واحد.

كذلك المصادر الأساسية التي روت الأشعار كان مؤلفيها في أغلب الأحيان لا يرون القصائد كاملة وإنما ينتفون منها أبياتا بما يلائم أذواقهم أو ينسجم مع الطرح الذي يسير في كتابهم، ولهذا كثرت المقطوعات.

أما بالنسبة للنتفة فأحصيت في المدونة 31 تجربة: ويطلق اسم النتف على البيتين الشعريين أو الأبيات الثلاثة المفردة¹¹².

وهي في الحقيقة مقطوعة قصيرة لا تتميز عنها إلا في عدد الأبيات وأعتقد أن هذه النتف هي كل ما وصلنا من تلك النصوص الشعرية التي أصابها الاتلاف والضياع أو التي خضعت لأهواء الشعراء ومتطلباتهم الذوقية.

وبالنسبة للبيت المفرد أو كما يطلق عليه بعض النقاد اليتيم فقد أحصيت عشرة تجارب شعرية، والبيت المفرد سواء قيل منفردا أصلا أم أخذ من نص طويل وصار مثلا سائر¹¹³، يعد أقصر هذه الأشكال وينفرد بميزة التكثيف والإبداع.

ومن جملة الحقائق التي ظهرت في هذا الجزء من البحث وجوب التنويه بأن معظم المصادر تتشابه وتتقارب إلى حد التطابق في عدد الأبيات فما وجدته في رياض النفوس للمالكي من كم شعري، يتكرر في ترتيب المدارك هو نفسه في تراجم أغلبية وفي الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات المستقلة، وكذلك ما وجدته في الدر الوقاد لبكر بن حماد يتشابه ويتقارب إلى حد بعيد بما وجدته في الجزء الثاني لرياض النفوس.

¹¹⁰-المصدر نفسه، ص134.

¹¹¹-أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قمحة، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص193-194.

¹¹²-رشيد حاوي، الشعرية العربية الأنواع والأغراض، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص11.

¹¹³-المصدر السابق، ص12.

كما يجب التأكيد بأن المغرب لم يكن معزولاً أبداً عن المشرق سواء من جهة السياقات المعرفية والفكرية أم من جهة الحضور الشعري لهذه النزعة بل إن المغاربة كانوا رواداً لهذه النزعة في تاريخ الشعرية العربية بفضل شعرية سابق البربري المطمطي، ومن هنا جاز لنا القول بأن هذه النزعة تعد من أقدم النزعات الدينية الروحية التي طبعت الشعرية المغربية في القرون الأولى من الفتح الإسلامي للمغرب.

الفصل الأول
الهواجس والموضوعات

أحاول في هذا الفصل أن أمتص من شعر الزهد المفلوظ الذاتي الذي هو جوهر نصوص شعراء هذه النزعة الزهدية، وأكشف عن علاقتها بأحاسيسهم نحو قضايا الوجود والكون، والزمن، ومصير الإنسان، ودلالاتها على خالقه، ولقد انضوت تلك الأحاسيس في غرضي: الوعظ والتذكير، والحكمة الدينية والأخلاقية.

أما بخصوص الوعظ والتذكير فيتولد من هاجس الموت بكونها " .. الفكرة الرئيسية... يتبع ذلك ذكر التوكل والعمل الصالح وفساد الناس والزمان، والقبر وأهواله، وما بعد القبر من مواقف لا ينفع فيها إلا العمل الصالح... أما الحكمة الدينية فتعتمد أساسا على النظرة الثاقبة في الحياة والناس"¹¹⁴.

ومن هذا المنطلق فإن هذه القضية من أهم الموضوعات المتواترة في أشعار هؤلاء الزهاد، وسنحاول الكشف عن هذه المعاني والصور ذات الدلالة عن الزمن والحياة والموت و العاكسة لموقفهم وسلوكهم.

1 - الزمان ومفهومه المعرفي والشعري:

إن تحول دلالات الزمن من الحقيقة الفيزيائية إلى الحقيقة الشعرية يجعل منها هاجسا نفسيا جماليا متمردا عن الزمن الفيزيائي، لأمر الذي يجعل منه موضوعا من الموضوعات الإنسانية الفلسفية والشعرية الكبرى، وقد تكبر هذه الهواجس وتتكثف دلالاتها بفعل الواقع الدرامي الخارجي والواقع الداخلي الزهدي الذي يمتلئ بهاجس الموت، و يضيف عليه ديمومة فلا ينقطع من تيار الشعور الإيماني .

أما واقعه المأساوي فيرجع إلى كون منطقة المسلمين كانت تعج بالصراعات "وعدم الاستقرار والموت المتواصل بسبب الحروب التي كانت تدور بين المشركين والمسلمين أو بين المسلمين بسبب السلطة أو المذهبية التي منها الشيعة والخوارج والسنة أو غيرها من المذاهب إذ كل ذلك يعلم الإنسان ويجعل منه حكيما"¹¹⁵.

¹¹⁴ - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص 150، 158.

¹¹⁵ - العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية الرسمية الإدريسية، ص 54.

ونظرا للأهمية التي تكتسبها الرؤية الشعرية للزمن من كونها تخلق أسلوبا معيناً في الحياة بل "هي الحياة نفسها"¹¹⁶؛ لذا كان حرياً بنا أن نعرفه من حيث معناه الفيزيائي والفلسفي والنفسي الشعري، والأول .. عبارة عن ساعات الليل والنهار، وقد يقال للطويل والقصير منه"¹¹⁷.

و لفظ الزمن يكبر ويصغر ويتلون بألوان الواقع بحسب أحاسيس النفس فالزمن العصر، و الدهر و الفصل ومدة ولاية الرجل "... ويقع على جميع الدهر وعلى بعضه، ويقال زمن الورد والرطب، وزمان الحر والبرد...والدهر لا ينقطع والزمان مدة قابلة للقسمة ولهذا يطلق على الوقت القليل والكثير."¹¹⁸.

وهذا رأى الكثير من العلماء حسب قول جواد علي: "واختلفوا في الزمان فقالوا الزمان الدهر وعارضه آخرون إذ قالوا يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع والزمان يقع على فصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه"¹¹⁹.

وأما فكرة الزمن الفلسفية فأفلاطون يرى بأن: "في عالم الأمر جوهر أزهياً يتبدل ويتغير ويتجدد وينصرم بحسب النسب والإضافات إلى المتغيرات لا بحسب الحقيقية والذات، وذلك الجوهر باعتباره نسبة ذاته إلى الأمور الثابتة يسمى سرمدياً، وإلى ما قبل المتغيرات يسمى دهرًا وإلى مقارنتها يسمى زماناً، ولا استحالة في أن يكون للزمان زمان عند المتكلمين الذين يعرفون الزمان بالأمر المتجدد الذي يقدر به متجدد آخر"¹²⁰.

وقد عرفه الأشاعرة بأنه متغير غير متعين: "متجدد معلوم يقدر به متجدد مبهم لإزالة إبهامه كما يقال: أتيتك عند طلوع الشمس، فإن طلوع الشمس معلوم ومجيئه موهوم، فالزمان غير متعين، فربما يكون الشيء زماناً لشيء عند أحد ويكون الشيء الثاني زماناً للشيء الأول عند الآخر، فقد يقال جاء زيد عند مجيء عمرو، وجاء عمرو عند مجيء زيد، وفيه ضعف أيضاً"¹²¹.

116- صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القوائد السبع الجاهلية، رسالة ماجستير، إشراف العربي دحو 1988، 1989، ص35.

117- ابن الأثير، الكامل دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص 10.

118- أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1959، مج3، ص 60، 61.

119- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة الهضبة، بغداد، ط2، 1978، ج 8، ص436.

120- محمد علي الفاروقي التهانوري، كشاف إصلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، ص 122، 124.

121- محمد علي الفاروقي التهانوري، كشاف إصلاحات الفنون، لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص 122، 124، نقلاً عن

شرح المواقف، ج1، ص 472، 478.

ويتضح مما سبق أن الزمن يتغير ويتبدل ويتجدد بتكرره.

ولا ننسى اهتمام اللغة العربية بالزمن، بحيث خصصت لكل زمن نوع من الأفعال حيث يقول عبد الكريم اليافي: "وأنا أجد اللغة العربية كاملة، وأفضل في التعبير من اللغات الأجنبية عن فكرة الزمان، ولكن الأفعال ليس تقوم بالإبانة عن فكرة الزمان بل تأتي الظروف والحروف أيضا، فحرف الشرط (إن) على سبيل المثال التي تجزم فعلين موضوعا للزمان المستقبل لا الحاضر ولا الماضي"¹²².

ونستعرض نظرات الشعراء المغارب في الدهر وتقلباته، وهي تشخصه وتتهمه بأنه مصدر ما يتعرض له الإنسان في حياته من شرور وتبدل، ونتيجة خوفه وذعره الشديد إما حرصا عليها وعلى مفاتها، أو جزعا لمآله، فتراه تارة يذم غرورها وتلونها، وتارة أخرى يعتريه الندم والتوبة على ما فات، ووفقا لمدى عمق إحساسه وشعوره به تختلف مواقفه من الحياة، فإما مشارك دون إفراط وتفريط، وإما منعزل انعزال تام، وقد تأتي دلالة الزمن مقترنة بدلالات المكان .

أ – هاجس الزمان والدينا:

لقد أحس الشاعر العربي والمغربي بالزمن إحساسا عميقا يشبه إلى حد كبير إحساس المتصوفة الذين: "اهتموا بالوقت، واعتبروه أهم شيء في حياة الإنسان، ولذلك لا ينبغي ألا يفوتهم"¹²³.

فالزمن بما يمثله من أيام وشهور يبدل ويغير الحياة والدينا من حال إلى حال فهو مصدر خير وكذلك لكل الشرور التي تلاحقنا بحيث لا يسلم منها حتى البطل الجسور المغوار، يقول في ذلك الحكم أبو جعفر أحمد بن سليمان داود الصوف الربيعي¹²⁴:

أرى الدينا تغمرها الليالي وأياما مؤلفة شهورا

أرى يوما يجيء بكل خير ويوما بالحوادث مستظيرا

¹²² - عبد الكريم اليافي، ندوة المعرفة والتصوف ومفهوم الزمان في الفكر العربي، مجلة المعرفة السورية، ع 233 ديسمبر 1981، ص 115.

¹²³ - المرجع نفسه، ص 114.

¹²⁴ - من تلامذة الإمام سحنون، اشتهر بالحكمة لأن أكثر كلامه كان حكمة، وهو فقيه كانت له بالشعر عناية في أول أمره، مولده سنة 206 هـ أو 208 هـ، توفي سنة 291 هـ ينظر القاضي عياض تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض - تحقيق محمد الطالبي، نشر الجامعة التونسية 1968، ص 271، 274 وبكر بن حماد، الدر الوقاد، تقديم وشرح وجمع محمد بن رمضان شاوش - طبع بالمطبعة العلوية بمستغانم، ط1، 1966، ص 49 - أبو العرب محمد بن تميم القيرواني - طبقات علماء إفريقية وتونس تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن الياضي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص 194، و 245.

كذا أحوال دهرك حال أمن وحال تجزع البطل
الجسور¹²⁵

يستهل الشاعر الأبيات بالرؤية المعبرة عن تغير الدنيا بفعل الأيام وتوالي الليل والنهار،

و الشهور، إن فعل التغير متروك للوقت قصرت مدته الزمنية أو طالت، لكن نلاحظ أن كلمة الرؤية تهيمن عليها دلائل الزمن من ليالي وأيام وشهور مما يشير إلى أن الشاعر مكتف بالملاحظة فقط، وهذا ناتج عن عجزه أمام سلطة وقوة الزمن، ويأتي البيت الثاني والثالث ليؤكد تلك الحقيقة، فما يصبه ويجيئه من خير أو شر، فهو غير قادر على صده، فالدهر إن طال سيطول الجميع: القوي والضعيف، ويبث الهلع حتى في نفوس الجبابرة، وما هذه الأبيات إلا تعبير عن برمه بالدنيا المنقبة وخوفه من مصيره ومصير الشرف:

حياة الفتى ما عاش بؤس وحيرة ومر الليالي قد يسر ويفجع
كأن خطوب الدهر بيني وبينها سوائف ثأر فهي بي
تتوقع¹²⁶

ومن الشعر المغربي الذي يعبر عن موقف زهدي هذه الحكمة لسابق المظماطي¹²⁷ الكاشفة لحال الدنيا وإقبال الناس عليها مع علمهم بسرعة زوالها ومكرها وخداعها:

يخداع ريب الدهر عن نفسه الفتى سفاها وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها وكم من حريص أهلكته مطامع¹²⁸

وتوضح هذه الأبيات للإنسان جهله للحقيقة من جراء خداع نفسه بمفاتيح الدنيا التي تعمي بصره عن نوائب الدهر، وكر الأيام التي لا تبقي على حال أو جاه أو مال، وأنظر إلى هؤلاء القراء عندما أقبل عليهم أحمد بن معتب¹²⁹ فقال بعضهم:

¹²⁵ - المالكي رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، تحقيق: بشير البكوش، محمد العروس المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994، ج1، ص 512 والعربي دحو، الشعر المغربي إلى نهاية الإمارات، ص197.

¹²⁶ - المالكي، الرياض ج2، ص112.

¹²⁷ - أول شاعر نبغ في الشعر، ولد بعد الفتوحات، شاب تمكنت منه العقيدة فصاعها إبداعا، ذكر غير واحد من مترجميه صلته بأعظم خليفة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، والذي كانت له عنده مكانة وقدر، ويطلب منه أن يعظه وينشده من شعره الحكمة أو من شعر غيره، لأنه كان متحققا من زهده وورعه، وإنه لا ينظم ولا يروي إلا ما كان من قبيل ما قيل إن من الشعر لحكمة، ينظر: رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص51.

¹²⁸ - عيد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1969، ص

دع الدنيا لمن جهل الصوابا فقد حضر المحب لها وخابا
يصلني فتارة يبكي يبيت ويطوى الليل بالأحزان
دأبا¹³⁰

وما الدنيا إلا سفر يأتي بعده سفر يقول سابق في قصيدته الرائية¹³¹ الكبرى عن هذه الحقيقة :

إن الأمور إذا استقبلها اشتبهت إذا انقضى سفر منها أتى سفر
لها حلاوة عيش غير دائمة وفي العواقب منها المر
والصبر¹³²

نلاحظ بأن تجربة الشاعر الزاهد قادرة على استيعاب قضايا الوجود وحقائقه فهي واضحة الرؤية لكنها جاءت نتيجة التأمل والتفكير الشعري، وما تلك الرحلة إلا رحلة الذات المؤمنة - (إذا انقضى سفر منها أتى سفر) - التي تحلم وتأمل بخاتمة الأتقياء من خلال رنين شعري في دلالتها دون حاجتها إلى تأويل أو توضيح ، ثم تأتي بعدها الأبيات الموالية لتضيف صورة فنية مشخصة مراوغة عن مكر الدنيا وخداعها وتقلبها وتغريها بالإنسان بإظهاره له مفاتها (حلاوة عيش) ، وتخفي له (غير دائمة) وفجأة تظهر الحقيقة فتكون (العواقب منها المر والصبر) ، ولهذه الدنيا صورة أخرى ، ويأتي صوت الشاعر ليحذر منها :

فحتى متى نلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع مالا تأكل الدهر دائبا كأنك في الدنيا لغيرك
خازن¹³³

¹²⁹ - كان ثقة ثبنا نبيلًا عالما بالحديث والرجال وحسن التفسير، سمع منه الناس، صاحب ابن المبارك، ينظر القاضي يصف ترتيب المدارك وتقريب المسالك المعرفة أعلا من مذهب مالك، دار مكتبة الحياة بيروت ودار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا، ج3، ص 230، 233، وأبوا العرب بن تميم، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 241.

¹³⁰ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ص 231.

¹³¹ - بسم الذي أنزلت من عنده السور والحمد لله أما بعد يا عمر: وردت هاته القصيدة في كتاب التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري لعبد الحكيم حسان ص 126 منسوبة إلى عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، لكن الأبيات في الأصل منسوبة إلى سابق فقد ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز قال (ذكر ما وعظ به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) عن أبي سليمان أحمد بن عبد الله الجوزي، قال سابق البربري لعمر بن عبد العزيز (القصيدة الرائية).

¹³² - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 8

¹³³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

ويصف الشاعر الذات قلقة ومضطربة غير مستقرة، وتأتي كاف الخطاب لعموم البشر، ثم تأتي دلالة فعل (نلهو) التي تربط بين الحياة وما ينسجم مع فكرة الرحلة، واللهو أو الرحلة سعي وحركة في مقابل البحث عن الاستقرار من خلال دلالات ألفاظ (منزل، ثابت، أصل، قاطن)، والتي تشير إلى السعي للحفاظ على التقوى وضمان استمراره، ولكن دوام التقوى من المحال أمام سطوة الدنيا.

ويأتي البيت الموالي حاملا معه مركبا إضافيا (جمع المال الدائب) ليوضح الوسيلة التي اختارتها الذات بإرادتها لتأمين دنياها، لكن هذه الأخيرة تعاكس فلسفة الذات الفردية فتصدم بفلسفة التفريق الجمعي الذي تخشاه (لغيرك خازن).

و يتراءى لنا مما أنشده أبو الفضل الرياشي تعبيره عن مدى غفلة الإنسان واستهتاره، وهو في هذه الدنيا الفانية، ويحاول بناء الديار والضياع، ويتصارع من أجلها مع غيره، ويفعل المستحيل من أجل تحقيق رغبته وشهوته تلك، وكأنه خالد فيها لا يتزعزع، وأن جذوره منتصبة في الأعماق، ثم يدرك بعد فوات الأوان بأنها زائلة، فينتابه الحزن الشديد :

ما مبتني الدار التي هو مسرع عنها الرحيل
وإن لم تنل خيرا أخوا فكأن له عبدا ذليلا
وتجنب الشهوات واحذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا
طويلا¹³⁴

ويتعجب الشاعر من الإنسان الذي يبني قصور الخلود والبقاء والآمال والأحلام، وهو غافل عن حقيقة أنه آيل إلى الرحيل ليجد في استقباله ثمار أعماله.

وقد تبدو الدنيا مسفرة بغير نقاب على الرغم من سرعة زوالها وخداعها، وتقبل النفس عليها فترتكب المعاصي، وهي دائمة التطلع للمزيد، وهذا يدل أن النفس ضعيفة أمام مغريات الحياة والدنيا قوية بأسلحة الزهد نتيجة التقوى، يقول سابق:

قد يوبق المرء أمر وهو يحقره والنبي بالنفس ينمي وهو يحقر
لا يشبع النفس شيء حين يحرزه ولا يزال لها في غيره وطر

¹³⁴ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 20

ولا يزال وإن كانت بها سعة لها إلى الشيء لم تظفر به
نظر¹³⁵

ويلوم الشاعر في أبيات أخرى تهافت الإنسان على الدنيا ولذاتها وترك للذكر:

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف في الخدم منى إلى لذاتها صعر
لا أرى أثرا لذكر في خلدي والحبل في الحجر القاسي له
أثر¹³⁶

ونلاحظ هنا رغبة قوية عن الفكاك من أسر اللحظة الراهنة، وارتباط السؤال بصيغة "حتى متى" يدل على أن الفعل لم ينحبس في داخل ذاته بل سيظل مستقبلي ومعلقا به حتى يدركه وكأنه في سباق محموم مع ما تبقى من الزمن، وتتسم المواجهة بين الذات والزمن بعدم هدوء الذات على مصيرها نتيجة كلفها بالحياة، ولكي تتغلب عليها وتقهرها يجب أن تحاول إدراك اللغز الذي تحمله وتبحث عن الحقيقة باللجوء إلى الذكر المؤدي إلى الزهد والمحقق للتقوى، ولقد روى الجراوي في كتابة صفوه الأدب المعروفة بالحماسة المغربية هذه القصيدة التي تبين أن الشاعر اهتدى أثناء بحثه وتأمله إلى أن النفس الكلفة بالدنيا تكمن سلامتها في تركها لها وكل ما فيها؛ لأن كل ما يجمعه من أموال وبينيه من قصور ودور سوف يعود لغيره وكل شيء في هذه الأرض سيفنى، وقد اختص الشاعر ظروف الزمن بالليل دون النهار لأنه ستر له، وبالتالي فهو ستر للدنيا والحياة، وهذه دلالة رمزية إيحائية لطيفة:

النفس تكلف بالدنيا وقد علمت أن السلامة منها ترك ما فيها
والله ما قنعت نفس بما رزقت من المعيشة إلا سوف تكفيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنينا
قس بالتجارب أحداث الزمان كما تقيس نعلا بنعل حين تحذوها
والله ما عبرت في الأرض قاطرة إلا وصرف الليالي سوف
يفنيها¹³⁷

ويصل في النهاية إلى دعوتنا لهجر الدنيا وطرحها والتفرغ للآخرة لما في الحياة من

غي ونسيان للحقيقة :

¹³⁵ - المصدر نفسه، ص 7

¹³⁶ - المصدر نفسه، ص 7

¹³⁷ - عيد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 4

ولا تبطروا وهجروا الدنيا فإن لها
غيا وخيما وكفر النعيم
البطر¹³⁸

وهذا نص آخر لأبي القاسم الفزاري¹³⁹ يحذرنا فيه من الدنيا ، ويدعو الزاهد إلى
التوجه إلى الله فيقول:

وإن ببابك اللهم عبدا
دعاك وقد رجاك فصنه مما
ولا تسلمه للدنيا فتھوي
سلامتها وإن دامت سقام
ومرعاها لراعيتها وخيم
تسر المرء يوما ثم تغدو
وإن وانتك إقبالا ونعمتي
وكل الخير فيها مستعار
وإن عزيزها عما قليل
وكل مؤمل أمل طويل
من الخذلان أصبح يستجير
يحاذر ذو المراقبة الجذور
به منها بطون أو ظهور
ونعمتها وإن راقبت غرور
وكثرتها لمكثرها يسير
فتسلب ما أتاح له السرور
فعبأها الفجائع و الصبور
وسوف يرد ذاك المستعير
ذليل و الغني بها فقير
وعمر لـ و تأمله
قصير¹⁴⁰

يقول في هذا الشعر إن مغريات الدنيا كثيرة، وصعبة، والإنسان ضعيف أمامها، ولا
يستطيع مقاومتها وقد تصيبه الخيبة، وهو يحاول الحصول عليها فتخذه، فلا يجد مفرا ومهربا
منها إلا اللجوء إلى الله، فرحمته وعفوه تبعث على الراحة والطمأنينة التي كان يبحث عنها
الإنسان ، و يدعو الله ويرجوه (دعاك وقد رجاك)، وننتقل إلى شاعر آخر ونظرته للزمن والحياة

¹³⁸ - المصدر نفسه، ص 8

¹³⁹ - اسمه الكامل على أصح الروايات، أبو القاسم بن عمر بن إبراهيم الفزاري بفتح الفاء ثم زاي، نسبة إلى فزارة بن ذبيان، اللباب: 229/3، عرف
به وجمع شعره الأستاذ محمد اليعلاوي في فصله المعنون شعراء إفريقيون محاضرون للدولة الفاطمية، المنشور في حوليات الجامعة التونسية، ع10،
1973، ص 119، 141. ينظر هامش المالكي، رياض النفوس، ج2، ص302.

¹⁴⁰ - المصدر السابق، ص 490، 491، وينظر إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 267، 268.

التي تتسم بكثير من التشاؤم ، فتراه سيستقبل القرن الرابع شاكيا من الدهر، بل هو شر الأزمان في رأيه ، وهو من الشعراء المعمرين إنه سعيد بن الحداد¹⁴¹:

مازلت من حادثات الدهر معتجبا حتى انقضى عجبى بعد الثلاثمائة
لا بارك الله في عام وفي سنة كانت لشر زمان كان محبته
عادت أسافله طرا أعاليه ولا أعالي إلا وهى
منكفة¹⁴²

تكشف هذه الأبيات عن إحباط وإحساس بالصدمة إزاء هذا العالم الذي تقوضت فيه القيم الإنسانية بعد أن استفحل الفاطميون واستقام لهم الحكم، وكل ما ارتكبه من قمع ومجازر ضد معارضيه فغدا بذلك الزمان من أتس أيام عمره الطويلة، واستعمل كلمة الدهر دون الزمن ليدل على طول تعميره الذي أوصله لحضور تولى الشيعة وحكمهم المستبد، ولعنهم للرسول والصحابة الكرام، وكل ذلك أدى إلى سخطه على زمانه (لا بارك الله في عام...)، وكما اشتكى سعيد بن حداد من الزمان فقد اشتكاه محمود بن سليمان القطان¹⁴³:

لا تطمئن فإن الناس قد حالوا واقبض لسانك عما قلت أو قالوا
وأحذر زمانك إذ أخرت عن زمن بادي النصيحة إما ملت أو مالوا
وبك الدماء على ما فات من زمن أعلى الفضائح آداب وأفضال
وامتع بجلسك إن تقبل نصيحتنا أو تصمتن فما يعينك
تسأل¹⁴⁴

إن هذه الأبيات والأبيات التي سبقتها توضح ما آل إليه المجتمع والحياة بعدما رفرفت رايات الفاطميين، وموقف بعض الزهاد المغاربة منهم، ومن مذهب الشيعة¹⁴⁵، كما أن كلمة

¹⁴¹ - أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني مولاهم، يعرف بابن الحداد، مولده أو قالوا 219 "ويقال 217 هـ، توفي سنة 302 هـ، كان عابدا زاهدا ورعا، مجاب الدعوة، له مقامات مشهورة مع بني عبيد (الفاطميين)، ينظر: القاضي عياض، تراجم أغلبية ص 359، 363، المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 57، 115"، أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 248.

¹⁴² - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 110، 111، وإبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 115.

¹⁴³ - كان ذا أوصاف جليلة وظهرت له إجابات وكرامات، وهو أخو ربيع بن سليمان بن عطاء الله القطان، الذي كان من الفقهاء المعدودين والعباد المجتهدين والنسك عالما بالقرآن وقراءته وتفسيره ومعانيه، ومن أهل الورع والدين متعينا بالمسائل والفقهاء، ينظر ترجمة ربيع القطان في طبقات علماء إفريقيا وتونس، ص 109، 245 ورياض النفوس، ج2، ص 323، 346. وترتيب المدارك، ج3، ص 323، 332. وفي ترجمة محمود القطان، رياض النفوس، ج2، ص 346، 349، نسبة الأبيات لمحمود في رياض ولربيعه القطان في ترتيب المدارك، وفي هذا يقول محققي الرياض (أن الأمر اشتبه على القاضي عياض في ترتيب المدارك فنسب بعض أخباره وحكم وأشعار محمود لربيع). ينظر هامش رياض النفوس، ج2، ص 346.

¹⁴⁴ - رياض النفوس، ج، ص 34، وترتيب المدارك، ج1، ص 327، وشعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص 116.

الزمن ترددت كثيرا في أشعارهم ، ولربما لا تكاد تخلو قصيدة منها وهذا شيء طبيعي، فقصائد الشعر القديم لم تخل منها أيضا على الرغم من أنها "لم تكن كثيرة الشيوع في الشعر الجاهلي إلا أن معناها كان شائعا بكثرة فخذ كلمة الليالي، والأيام والساعات ... " 146 .

وقصيدة أحمد بن أبي سليمان تشمل على الزمن بمعناها الأيام التي لها صرف فهي دائمة القلب من غنى إلى فقر، ومن يسر إلى عسر، ومن فاجعة إلى أخرى، لكن الشاعر أدرك الداء وتوصل للدواء، فبعد إدراكه لحقيقة الدنيا والزمان، وتضافرهما ضده-الحياة تراوغ الإنسان مستعينة بالزمن-فما كان من صاحبنا إلى أن استخدم ضدها نفس السلاح أو السلاح نفسه ألا وهو الصبر باعتباره زمن نفسي، فالإنسان يحتاج فترة من الزمن حتى تتعود ذاته على ما تحب أو تكره ، ويجب عليه أن يفرح لشيء يحصل له في الدنيا، و ألا يبتئس لما يصيبه منها، فما كان منه إلا أن خلا قلبه من حبها وزهد فيها، فلم يجزع ولم يفرح ولم يضعف ولم يضجر أو يشكو:

ولم ألبس لذل الفقير ثوبا	ولم أك في الغي بطرا فجورا
ولم أجزع، وللأيام صرف	يعود عسيرها سهلا يسيرا
و كم أفرح لأن لها انقلابا	يعيد يسيرها صعبا عسيرا
وإنني وإن توالى فجعتها	لجأ...دا...ص...بورا
ولا أنا وإن نابت نائبة خضوعا	ولا متضعفا جزعا ضجورا

وإن¹⁴⁷

وفي تتداول المسرات والأحزان والأتراح والأفراح تكمن حكمة الزاهد من الدنيا التي يقول عنها أحمد بن نصر¹⁴⁸:

لا يعجبك يا فتى	حسن فرش ومتكا
إن للعرس فرحة	بعدها النوح

والبكا¹⁴⁹

¹⁴⁵ - عد إلى رياض النفوس ج2 لتجد فيه أبيات لبعض الشعراء في هجائهم لبني عبيد الله كابن القطار وأبو القاسم الفزاري ص 494، 495، وأنظر أيضا ص 346.

¹⁴⁶ - صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص 35.

¹⁴⁷ - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 512، والعربي دحو، الشعر المغربي ص 196، 197.

¹⁴⁸ - أبو جعفر أحمد بن نصر الفقيه التاهرتي، كان من الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعهودين لا يدانيه في ذلك أحد في زمانه وله مناقب جلييلة توفي سنة 314 هـ، ينظر الرياض، ص 183، 187، وطبقات علماء إفريقية وتونس ص 250.

وقال أحمد بن أبي سليمان داود الصواف أيضا:

ألم تر أن الدهر أوقر أهله هموما ، وأن العيش صار منكدا
فما حل يوم فيه إلا بفجعة وأنت لأخرى فيه منتظر غدا
وما فرحة إلا ستصبح ترحة وما صاحب إلا سيصبح
مفردا¹⁵⁰

ويقول سابق المطماطي:

فما صفا لامرئ عيش سر به إلا ستبوع يوما صفوة
القدر¹⁵¹

وهكذا فإن الصفاء لا بد أن يتخلله الكدر، وكما تعقب الفرحة والسرور ودموع الفرح ودموع الحزن والسعادة والطمأنينة والمخاوف والهواجس ما يعكر صفو الحياة بالهموم التي تتعلق بالمصير المجهول الذي يخشاه الإنسان غير الزاهد ويرتاب منه.

ب – اقتران هاجس الزمن بهاجس الشيب والشباب:

لقد شغل المشيب والشباب حيزا من الشعر المغربي مثل أقدم عصوره ولا غرو فأحساسه بوطأته إحساس إنساني، ومن الطبيعي أن يستمر هذا الشعور في سائر العصور والأمصار، وإن تخللته السمة الإسلامية في ثنايا صوره كسائر شعر التأمل الزهدي، فهذا أبو العرب¹⁵² أحمد بن محمد بن تميم صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية يشكو فقده الشباب بعدما أعياه الكبر:

ضعفت حيلتي وقل اصطباري وإلى الله أشتكى كل ما بي
وهن العظم بعد أن كان صلبا وفقدت الشباب أي شباب
ولقد كنت والشباب لباسي أسحب الذيل عابثا في الثياب
وتراني أمس كالغصن حسنا وقد لي كمثل ريش الغراب

¹⁴⁹ - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص186، والعربي دحو شعر المغرب ص 178 والقاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 369.

¹⁵⁰ - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 509، براهيم الدسوقي، وشعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص 143، والعربي دحو، شعر المغرب ص 193، 194.

¹⁵¹ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 6

¹⁵² - أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام توفي سنة 333هـ، كتب رضي الله عنه بيده كتب كثيرة، أكثر من ثلاثة آلاف كتاب، وكان ضابطا كثير اليقين لكتبه، عالما بما فيها، وكان يصنع الشعر ويجيده، ينظر الرياض ص 306، 312، طبقات إفريقية تونس ص 23، 31.

وترى الغائيات نحوي صورا يتراءين مرجعي وذهابي
ولقد كن يشتهين حديثي فادعهن خشيّة
العقاب¹⁵³

ويبدأ الشاعر كلامه بإظهار ضعفه وعجزه ونفاذ صبره، فهو لا يجد حيلة يبت منها همومه وأحزانه إلا الشكوى لله لأن الشكوى لغيره مذلة ولا طائل منها، وفي البيت الثاني يشير إلى مأساته التي لن تكون غير (الكبر)، ومن علاماتها وهن العظم وسقم الجسم وانتفاء الصلابة والقوة التي هي رمز الشباب، ويبيد تحسره على فقده، ثم ويعود إلى التغني بالزمن الأخيلي البائد حيث النساء الحسان والقوة والعنفوان، وما التغني بالماضي إلا " رحلة يبدأ بها الشاعر... ثم يتوغل داخل الذات الفردية والجماعية من أجل معرفة السر وعلاقة الإنسان بالزمن، وفي هذه الإطلالة يكون الشاعر في موقف ضعف حتى يذرف الدموع"¹⁵⁴.

وما هذا الضعف المنبثق من إحساسه الحاد بالرغبة للانعتاق من زمن الشيخوخة والعودة إلى زمن الشباب إلا تجليا لتلك العاطفة القوية المشدودة إلى الزمن الماضي، ثم يصدم باستحالة رجوعه فتعيش الذات الشاعرة دراما حقيقية، وبذلك جاءت الأبيات بكاء وتحسرا وشكوى. يقول صاحب كتاب شعر المغرب حتى خلافة المعز: "إنه بادي الحسرة على فقد الشباب لا حيلة ولا صبر على الواقع فإلى الله المشتكى ضعف البدن بعد قوة وذهب الشباب البديع، زمن الخيلاء واستواء القامة، وسواد اللمة، واختلاب النساء اللائي لم يكن يصرف عنهن صارف غير مخافة الله"¹⁵⁵.

وتعكس هذه الصورة موقف الشاعر من الزمن، فالإنسان لا ريب سيصلى حرقه الشيخوخة، وهذا يوضح أن نظرة شعراء الزهد إلى الزمن لا تختلف عن نظرة أي مؤمن تقوي سواء كان مشرقيا أو مغربيا، لكنها تختلف عن نظرة الشاعر الجاهلي الذي لا يأبى الاستسلام في قصائده ويواصل صراعه العنيف، ويزداد عمق إحساسه بمجرد أن يضعف جسمه، ويشتل الرأس شيئا فيحس بعدم جدوى الحياة، ويزداد اضطرابه كلما طالت به السنون.

¹⁵³- المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 312، القاضي عياض، ترتيب المدارك ج32 ص 336، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 417.

¹⁵⁴- صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص 49.

¹⁵⁵- إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 118.

وعلى الرغم من تجنبه النساء في شبابه مخافة الله الذي يوضح اعتدال الشاعر الزاهد، وتقواه في شبابه لكن هذا لم يمنعه من التوجس من خاتمة مستقبله ومصيره ومآله الذي لا يعلمها إلا الله، فهذا عيسى بن مسكين¹⁵⁶ وهو من شعراء الزهد يتحسر من انقضاء شبابه فيقول:

لعمري يا شبابي لو وجدتك بما ملكت يمين لارتجعتك
ولو جعلت في الدنيا ثوابا وما فيها عليك لما وهبتك
فقدت فافتقدت لذيتي نومي وطيب معيشي لما فقدتك
ونحتك وانتحت عنك دهرا فلم تغن النياحة حيث
نحتك¹⁵⁷

وتمثل هذه الأبيات انقضاء الشباب الذي يعد مصدرا للقوة في مقابلة الشيخوخة التي تعد مصدرا للوهن والضعف لهذا كانت حسرة الشاعر شديدة وبادية بوضوح في البيت الثالث لأننا نحس أنه فقد الراحة والاطمئنان بفقدته التمتع بلذة النوم والحياة.

ونتوجه إلى أحمد بن أبي سليمان الذي يضعنا هو الآخر في ثنانيا نصوصه أمام زمن إنساني مفعم بتقلباته وتناقضاته يشكو من حاله بعد الكبر لفقدته الشباب، فهو لا يضعنا أمام زمن وجودي بقدر ما يضعنا أمام زمن إنساني يؤدي به إلى توقف الخصوبة والنماء كنتيجة لفعل الزمن ، إذ يفتتح أبياته برؤية البرق وهذا نذير لما هو آت، لأن البرق يسبق المطر، ومن ثم فهو يصور توقد البرق ثم غياب لمعانه، وهذا البرق ما هو إلا رمز للشيب، ولمعانه رمز للمعان بياض الشعر أما غيابه فهو نتيجة اختلاطه بالسواد ، وقرب أجل الشخص، ثم يدعو في البيت الموالي إلى الإفاقة من غفلته عن الزمن والاعتبار بمن سبق و تبدد وتشتت ، ثم يذهب ليستذكر ويتذكر أيام كان شعره أسود وشبابه ، وفتوته حيث كانت نساء الحي يهمن به، وكن قريبات منه بدليل منادتهن له بابن عمي، وأما الحال قد تغيرت، وقد غزا شعره الشيب، فابتعدن عنه بدليل منادتهن بيا عمي:

أرى البرق من نحو القريب توقدا تغيب طورا لمعه وترددا

¹⁵⁶ -عيسى بن مسكين بن منصور بن جريح بن محمد الإفريقي، من أهل الساحل، كان من أهل الفقه، والورع، مهيبا وقورا، وكان شبيه بسحنون في هيبته، مولده سنة 214هـ وتوفي سنة 275، ينظر: ترتيب المدارك ص 212، 228، وطبقات علماء إفريقية ونصوص ص 242 وتراجع ص 252، 253.

¹⁵⁷ -القاضي عياض، ترتيب المدارك ص 226 ج 3، وتراجع أغلبية ص 250، والعربي دحو، شعر المغرب، ص 175، 176 وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 115.

أفـق أيها الباكي المسائل منزلا
كفي عجباً أنا جهلناه ما خلا
ألفت به غيراء إذا هي ناهد
وكنـت قريبا إذا دعنتي ابن عمها
وكان نساء الحي يهوين طلعتي
لبست به ثوب الوقار وكلما
جزى الله طول العمر خيرا فإنه
ولمانحا عمري ثمانين حجة
تركـت تكاليف الحياة لأهلها
رأيت حلـيم القوم فيهم مقدما
ويحيا من الزلفى غدا في معاده
أراني بحمد الله في المال زاهدا
فخلـيت من دنياي إلا ثلاثة
غـنيت بها عن كل شيء حويـة
وقـد ذم قوم ما فعلت جهالة
ولو فهموا أمري ورأيي لأبصروا
تشتت منه أهله فتبددا
ملاعب ولدان ونوما ومرقدا
وإذا كنت مرموق الزيارة أمرا
فلما دعنتي عمها كنت معبدا
ليالي كان الشعر أرجل أسودا
بليت وأبليت الشباب تجددا
هداني إلى التقوى ودل أرشدا
وأيقنت أني قد قربت من المدى
وجانبتها طوعا جانبي الردى
ومن نال علما نال جاها وسؤدا
يا ضعاف ما يحيا الذي قد تعبدا
وفي شرف الدنيا وفي العز أزهدا
دفاتر من علم وبيتا ومسجدا
وصرت به أغنى وأفتى أو أسعدا
فعدوا من الجهال والجهل أحمدا
وقالوا رأي رأيا رشيدا
مسددا¹⁵⁸

وما إن تخلو الذات بنفسها حتى تستحضر صور الماضي الغائب فتتهيج الذكرى ويعظم الأسى ويتضاعف الإحساس بالفقد؛ ويترك ذلك الفقد أثرا في حياته، ولكن ليس بنفس الكيفية، والقدر الذي أثر فيه على الشاعر الجاهلي الذي يرى فيه رمزا لذهاب قوته، و من ثم لا يستطيع مواجهة الفناء الأمر الذي يدخله في صراع رهيب مع نفسه والزمن، ومما يزيد من مأساته جهله بمصيره، فيعيش دمار الكآبة، وهذا بخلاف الشاعر الإسلامي وبصفة خاصة الزاهد فيجعل من الشباب ومجيء المشيب كشفا لحقيقة الدنيا، وسر الكون والوجود، فطمئن ذاته، ويهدئ من روعه، فيزداد تقوى على تقوى، وتلبسه الوقار، ويصبح قادرا على تدبر الأمور

¹⁵⁸، القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3 ص244، 245، وتراجم أغلبية ص274، 275، والعربي دحو، شعر المغرب، ص193، 194.

بروية وحكمة وتعقل، فتصير لحياته معنى جديداً وحياءً أخرى، ومهمة دعوية متجددة تختلف عن السابق، ويتضح له الطريق الصحيح والسليم أكثر، ويتعمق الأمور ليعرف أكثر طريق الهدى والتقوى .

إن العودة إلى الذاكرة التي هي أشبه بوعاء ضخم يستوعب الماضي كله، والحديث عنه بما تحمله من ذكريات طواها الزمن، ومحاولة استرجاع ما ضاع منه، فالماضي الإيماني هو نقطة البدء، وعليه يتشكل الحاضر الشعري، وهذه الجدلية الزمنية تخص شعر الزهد، وفي مقابل ذلك فإن الشاعر الآخر تختلف فيه جدلية الزمن والشعر، فهو كما يقول أدونيس: "الشعر العربي القديم هو حركة ابتعاد مستمر عن الأصل الماضي، وليس الحاضر والمستقبل إلا انحطاط على النموذج الأصلي الذي هو الماضي لهذا كان دور الشاعر هو أن يملأ الحاضر المستقبل بما يرتفع بهما إلى مستوى الماضي الأصل"¹⁵⁹.

وهكذا فإن العلاقات بين الأزمنة والشعرية تختلف من نزعة إلى أخرى، فما هو مأساوي منه عند نزعة يعد حسن ختام عند نزعة أخرى، وهذا ما نلاحظه عند هذا الشاعر الزاهد الذي جعل من دلالة زمنه الأول الماضي وسيلة استكشاف لتأمل زمنه الثاني الحاضر، ومن ثم ينشأ تخالفاً دلالياً بين الزمنيين أو تآلفاً، وفي كل الحالات فإن الشاعر الزاهد قد يصبح زمن الشيب أسعد من زمن الشباب إذا اهتدى فيه أكثر إلى طريق التقوى، وزاد زهده أكثر في كبره إلا في ثلاثة: العلم والبيت والمسجد، وهذا ما يجعله يحس بالاطمئنان في آخر أيامه، وهذه الصورة التي رسمها الشاعر المغربي الزاهد هي نفس الصورة التي رسمها أبو العتاهية للزاهد يقول:

رغيف خبز يابس	تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد	تشربه من صافية
وغرفة ضيقة	نفسك فيها خالية
أو مسجد معزل	مستنداً لسارية
معتبر لمن مضى	من القرون الخالية
خير من الساعات	في القصور العالية

¹⁵⁹، أدونيس (علي أحمد سعيد)، مقدمة الشعر العربي، دار العودة بيروت ط3، 1979، ص 199.

تعقبها عقوبة تصالحي بنصار
حامية¹⁶⁰

ونجده في نص آخر وهو في الثمانين يكرر فيه تلك المعاني الخاصة بسن الشيخوخة، ووقعها عليه وعلى أقرانه يقول:

ولما محما عمري ثمانين حجة هجرت تكاليف الحياة لما فجا
ولاقيت أترابي: فأحدب ماشيا وآخر مكفوفاً، وآخر أعرجا
وخالط عيني العشا بعد حدة وصار لساني إن تكلم لجلجا
وفي أدني وقر، وظهري به حنا وما ابتغى منها أنا فيه مخرجا
رأيت الذي قد كنت فيه لدى الصبي من الشيب والشيخ أشنا و أسمجا
وأصلح أزماني أو إن زماني لزمت العصا من بعد مشيي تبرجا
وأصبحت مما كنت أبغي من الغنى إلى الزهد في الدنيا الدنية أحوجا
وحبست نفسي بين بيتي ومسجدي وقد صرت مثل النسر أهوى
التعرجا¹⁶¹

تصور الأبيات ما يؤول إليه الإنسان عند الهرم، فقد انتفت عنه كل مظاهر القوة وبثت فيه مظاهر الوهن بحيث: "ترك الزمن آثاره على وجدان الشاعر وبصره، فقد فعل الشيء ذاته مع سمعه، وكما تحول البصر من الحدة إلى الضعف فقد تحول السمع كذلك، فأصبح غير قادر على السمع والرؤية بعد أن كان يسمع الصوت على بعد ويرى الأشباح في ظلمة الليل، إنه التحول الحاد، أو التحول من النقيض إلى النقيض، وأكثر ما يؤرق الشاعر ويعمق مأساته هو خضوعه لهذا التحول، وإحساسه بأن الزمن، ومفارقة عصر الشباب الذي طالما كساه أريدة الزهو والصحة والمغامرة، وتحول إلى شيخ هرم لا بكاء يسمع أو يرى ولا يجد الأنس أو الأليف"¹⁶²، ولقد استعدى أيضا الزمن على أقرانه، وأفراد أسرته فمنهم من أصابه الدهر فأحدوب وتقوس ظهره، ومنهم من أصبح أعرج يستعين بعصا، وآخر مكفوفاً...

¹⁶⁰ - فؤاد البستاني، أبو العتاهية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 304، 305، وعز الدين اسماعيل الرؤيا والفن في الشعر العباسي المكتبة الأكاديمية ط1 ص 285.

¹⁶¹ - المالكي، رياض النفوس، ص 509، 510، العربي دحو، الشعر المغربي ص 195.

¹⁶² - فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، الناشر، منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال جزوي وشركاه، مطابع القدس الاسكندرية، 1997، ص48.

ومادام مرور الزمن ورفضه للشيخوخة لا طائل من ورائه، فالإنسان مرتبط ارتباط وثيق به، وأنه ليس حر في التخلص من زمنه أو بإمكانه، أو مقدوره العيش طليقا في زمنه، فلا بد للاستسلام للقضاء والقدر، وقد ينصرم الزمن الذي كان يملك فيه الشاعر غير الزاهد إرادة الفعل وزمام الأمور، ولا يرى في الشيخوخة غير زمن الجذب والخواء، بينما الشاعر الزاهد يزداد قوة أمام كل ذلك بفضل زهده وتقواه.

وهذه صورة أخرى تصور حالة الشاعر الزاهد حين يؤول حاله إلى الشيخوخة وتقبله لواقعه الجديد، وهي صورة تختلف بحسب اعتقادي عما عهدته الناس بتغلب الفرع عليهم عند المشيب يقول:

دعيت معلما إذا صرت شيخا	وأيام الشبيبة كنت
لئن كان المشيب اتخذ نذيرا	بوراً ¹⁶³
فأهلا بالمشيب لنا لباسا	فإن سوف أدعوه بشيرا
وجزت تسعة وسبعين عاما	وقارا نستزيده وقورا
وصيرت كرايع يمشي ديبيا	وقد ضمنت أصحابي القبورا
وألقى الدهر وقرا فوق أذني	وأصبح خاسيا بصبري حسيرا
وفي فقهه الفقيه أبي سعيد	وفي بدني ونظقي فتورا
لزممت فناءه عشرين عاما	رأيت الحق متضحا منيرا
	أغادييه وأغشاه
	هجيراً ¹⁶⁴

نلاحظ بأن رؤية الشاعر الزاهد تخالف رؤية الشعراء الجاهلي الذي، يهوله المشيب، ويحن إلى عهد الشباب لكون المشيب نذير لقرب الأجل والفناء كما أثبت ذلك الشاعر (لئن كان المشيب اتخذ نذيرا) فهو بالنسبة له بشير سعد وليس نذير شؤم (سوف أدعوه بشيرا) لذلك نراه في البيت الموالي يهمل ويرحب بمجيئه فقد أكسبه الاحترام والوقار والتجربة والحكمة والرأي السديد، بينما يرجح أكثر الدارسين بأن رؤية الشاعر غير الزاهد أمام صيرورة الزمن تتجلى ذاته" وهي حالة ضعف وعجز بعد أن فارقت زمن الفتوة والشباب وتحول النظر من

¹⁶³ - هناك بيت لأبي العلاء المعري يمكن أن يكون قد عارضه بها يقول: دعيت شيخا، بعدما * سميت في زمن فتيا، ينظر: اللزوميات دار صادر، بيروت، مج2، ص 249.

¹⁶⁴ - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج3 ص 244، تراجم أغلبية ص 273، والعربي دحو، شعر المغرب ص199.

القوة إلى الضعف، وهو دالة موحية إذ يرتبط بالرؤية التي لا تتسحب على الجسد فحسب بل تنعكس على المرئيات كلها، وتتعمق مأساة الشاعر وإحساسه بالزمن والحياة، فيدرك في لحظة كشف عميقة، ما لم يدركه الآخر، وهو أن الصحة والسلامة تحملان في حقيقتهما بذور الداء لأنهما قابلتان للتحول أو بمعنى أكثر دقة مرهونتان به، لأنهما تؤديان حتماً إلى الهرم والشيخوخة¹⁶⁵.

وتوصل أيضاً أن أحسن مؤدب للإنسان الشيب الذي يدل على أن الشخص مرت عليه وبه حوادث وتجارب كثيرة، يشيب من كثرتها أهوالها وتفكيرها وبعد أن خبرها توصل إلى أن أصبح ينظر للأمور بعقلانية وتدبرا وإحقاق للحق، كما يقول أبو القاسم الفزاري:

تلفع في مفارقه القتير وقوس غصنه اللدن النضير
وليس يؤدب الإنسان شيء كتأديب الحوادث إن

تدور¹⁶⁶

ويروى بأن استعداد هذا الشاعر لقبول واقعه جاء بعد إطلاعه على فقه أبي سعيد الذي أنار قلبه ودرّب حياته، ووجد فيها ضالته المنشودة في الكون، وأصبح بفضلها متفهماً بأمور دينه ويمكن لنا أن نزعّم أن أبياته هذه كانت نتاج مرحلة متأخرة من حياته (وجزت تسعة وسبعين عاماً) وهي مرحلة استسلم فيها الشاعر للشيب بعد عجزه عن إعادة أيام الشباب، فكانت هذا تعبيراً عن قبول المرحلة جديدة من حياته بكل اطمئنان وإيمان، ومن ثم يصبح لا يجدي معها الحنين ولا ينفع معها التمني، وبالتالي هذا المديح للشيب وتفضيله عن الشباب ما كان إلا للتوافق مع مرحلة جديدة من أخريات أيامه التي لا رجعة فيها للوراء، وسيحاول فيها زرع تلك الأرض البور بالورود والأزهار التي تعبق منها الرائحة الزكية والأشجار التي تثمر منها الأعمال الخيرة ليتلذذ بمذاقها وطعمها ورائحتها بعد اندثاره النهائي، مع أن هذه الأبيات نتاج لمحاولة تخفيف وقع الإحساس على فقد الشباب وقرب الآجال إلا أنها أتت على صورة طريفة، تتم عن رقي عقلي، وجهد فكري، واستند إلى حسن التعليل، والنظر في الأمور بعيداً عن نزعات الشباب اللاهية، ومن ثم فالشباب ليل وظلام حالك يضل فيه صاحبه، والشيب صبح ونور يهديه، وهذان البيتان من أصدق ما يصف به حاله وندمه على أيام الصبا:

يا لذة قصرت وطال بلاؤها عند التذكر في الزمان الأول

¹⁶⁵ - فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة ص 47.

¹⁶⁶ - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص490، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 267.

لما تذكرها وقال ندامة من بعدها: يا ليتني لم
أفعل¹⁶⁷

يقول عيسى بن مسكين مصورا حالته بعد الهرم وتحسره وندمه على فقد الشباب، بحيث
تراه إن أراد القيام يتكئ على يده، وإن مشى يتكئ على عصاه:

لما كبرت أتتني كل داهية وكل ما كان من زائد نقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وإن مشيت تصحبنى ذات اليمين
عصا¹⁶⁸

هذا الموقف من الشيخوخة، وشكواه يتفق مع الشعور الإنساني بالشيب فالضعف يتخلل
حياته، والفناء يسري في صميم وجوده وكيانه ، وليس أكثر تعبيراً وجمالاً من صورة
المصافحة للأرض الموحية بمقدار الضعف الذي وصل إليه ، وهي مأخوذة من التراث المغربي
(مقابر ومدافن المغاربة)، وكذلك الاقتراب الشديد من الأرض وفيها تلميح لموقف الإحساس بدنو
الأجل و العودة إليها ليضمه اللحد ويتوسد التراب ،ويستوعب الشاعر الزاهد هذا الموقف بفضل
تقواه وثقته في الله ،وعكس هذا التيار يقول محمد النويهي عن هذا الموقف عند الشعراء
الجاهلين: "فمن وراء هذا الشعر يكمن إحساسهم بالزمن ومأساة انقضائه إحساساً قوياً بليغا عظيم
المرارة، تجلى هذا الإحساس في مختلف موضوعاتهم الشعرية في وصفهم لرحيل المحبوبة
وانقسام الصدقات، وتبدد الشمل وخراب الديار التي كانت آهلة... والشباب الذي يولى سريعا
بكل عنفوانه ومباهجه وملذاته، وتقلبات الصراع بين الإنسان والإنسان من نصر إلى هزيمة
،ومن حياة إلى موت"¹⁶⁹، ولعيسى مسكين نص آخر يصور فيه أيام كان شابا ،ثم يتحسر عن
ساقه التي أصابها السقم والوهن:

أصاب الدهر مني عظم ساق به قد كنت مشاء جليدا
إلى الفقهاء أنقلها وأطوي بها للحاجة البلدا البعيدا
إذا رجل الفتى يوما أصيبت وطال سقامه ألف القودا

¹⁶⁷ - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج2 ص 245، وتراجم أغلبية ص 274، والعربي دحو، شعر المغرب ص 193.

¹⁶⁸ - القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 249، ترتيب المدارك، ج3، ص 226، دحو، الشعر المغربي، ص 175.

¹⁶⁹ - محمد النويهي، الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج1، ص 423.

وصار لبيته جلسا وأمسى
من الأخوان منفردا
وحيدا¹⁷⁰

يصور الشاعر في هذه الأبيات ما أصابه في كبره من هموم الوحدة والهواجس والفراغ والصمت الموحش والاعتراب النفسي وبخاصة زمن الهرم بعد أن يتفرق من حوله الأحباب والخلان، وما هذا البكاء على الساق ما هو إلا بكاء على الزمن البديع الجميل وبكاء على الشباب الذي راح، وهذا أمر طبيعي عند الشعراء كافة، ولكن الشاعر الزاهد يختمها بتقبل القضاء والقدر بنفس مؤمنة، ومن هذا القبيل نجد بكر بن حماد¹⁷¹ يرثي نفسه قبل وفاته وقد دخل عليه بعض أصحابه فلم يستطيع القيام فأنشد يقول:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجميل
قد جاء ما ليس لي فيه
حيل¹⁷²

إن الشاعر صار في حال لا يستطيع معها دفع الموت بحال من الأحوال لهرمه، وضعفه وعجزه عن التصرف، وما دلالة صورة الحبو إلا نذير وناقوس قرب أجله، وأبو العرب أحمد بن محمد تميم يبكي في شعره نفسه بعد أن عم الشيب مفرقة بكاء الصابر المحتسب لله:

أ إن سجعت أكيية بتغرد
ب كيت بدمع و أكف متردد
وهاجت بي الأحزان حيت تجاوبت
حمام بكى من غير دمع جرى له
فما تنسى الأيام لم أنس حبتي
ولما رأيت الشيب عمم مقرفي
وأقصرت عن ذكر الصبي وهجرته
وصبرت فريدا لا أبالك
أوجد¹⁷³

¹⁷⁰ - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج3، ص226، تراجم الأغلبية ص249، 250، العربي دحو، شعر المغرب ص 175.

¹⁷¹ - هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة ودار ووفاة فقيه محدث شاعر ولد بتاهرت عام 200هـ، وبعد أن درس ببلده رحل إلى المشرق حيث أخذ عن المحدثين وفي الرجوع توقف بالقيروان أين تعرض له بعض اللصوص قتلوا ولده وجرحوه، ارتبطت أخباره بالخليفة المعتصم، وبالشاعر دعلب الخزاعي والحسن البصري، توفي سنة 296هـ، ينظر: أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص112، 246، والدار الوقاد، ص43، 53، وعن العربي نبوي، محاضرات في شعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات، الجامعة - الجزائر 1983، ص 128، 141، ومحمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع في الجزائر 1981، ص33، 37.

¹⁷² - طبقات علماء إفريقية وتونس ص246 والدر الوقاد ص 22.

¹⁷³ - المالكي، رياض النفوس، ص 311.

إن مثل هذا البكائيات تظهر جليا في مقدمات الشيب والشباب عند الشعراء الزهاد التي أتت بعد طريق إيماني طويل أو طارئ، وليست مثل تلك المقدمات لشعراء من غير الزهاد حتى وإن بكى فيها شبابه وجزع من مثيبيه فهو لا يتورع في استعراض " تاريخ حياته الحافل بالفتوة والبطولة من تسلل إلى النساء وخروج للصيد ورحلة في الصحراء، وقرى للضيفان ومنازلة الأقران، وتهالك على مجالس الخمر والميسر"¹⁷⁴.

ويلاحظ الاستعراض نفسه من شاعر زاهد لهذه الصور الماجنة لفترة الشباب لكن القصد يختلف عند الشاعر الزاهد الذي يتوخى منها تنبيه الغير، وتذكيرهم من سوء الفعل، وأصدق من يمثل هذه الظاهرة أبو عقاب¹⁷⁵ الشاعر الماجن النائب الذي يعيدنا في قصائده لماضيه لنعيش معه تلك الفترة من شبابه وكأنها وقعت له في تلك اللحظة، فنغوص معه في رحلته تلك، و يتذكره وتذكره لمغامراته لينهيها باستهجانها لهذه الأفعال، وإعلانه للتوبة:

أيا من يرى الرشد في غيه	وينخبط في الداجيات القتادا
تجاف بنفسك عن حتفها	وخذ لأمانك منك القيادا
أجب داعي الله لا تعصه	فقد جاد بالنصح جهرا ونادى
و لا تله بالموبقات التي	أبادت بوائقها من تمادى
و أفقرت الربيع من أهله	وأبقيت حلوف الندامى فرادى
وشتت الشمل بعد ائتلاف	فلم تبق للرائدين ارتيادا
بلوت الزمان ودست البلاد	ونافست كل شيء عنادا
شربت المدام وسست القيان	ورضيت الجياد ورعت الشدادا
أصيد الغزال وأم الرئال	بطرف أراه يجيد الطرادا
وصعلكت في البر والبحر دهرا	أخلف أهلي على حدادا
أسوم البعاد، وأهوى اللذاذ	وأظهر في الأرض مني الفسادا

¹⁷⁴ - حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1970 ص 229.

¹⁷⁵ - هو غلبون بن الحسن بن غلبون، نشأته في القيروان العاصمة القديمة ورقادة العظمة المستحدثة، قال في الزهد فأحسن كان صاحب لهو وصبوة مع مروءة وفتوة في الصبا، خرج من القيروان فأوطن الحرم وسكنه حتى مات وبغض الدنيا وتركها ولزم السهر وسرد الصيام، توفي وهو ساجد خلف المقام. ينظر رياض النفوس ج 1 ص 527، 545، إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب ص 153، 167.

أروح على هـذا ذاك أديم السهاد، وأجفوا
المهاد¹⁷⁶

إن القارئ لأبيات الشاعر وهو يعيد لأذهاننا ماضيه ويسرد وقائع مغامراته القديمة يتراءى لنا داعيا إسلاميا زاهدا من الدرجة الأولى، وليس كبعض الشعراء الجاهليين الذين يعرجون بمعاني شعرهم نحو حقارة الدنيا بنعمة زهدية غير إسلامية على غرار طرفة الذي يقول عنه أحد الدارسين بأنه: "لا يعتني بالتفكير فيما بعد الموت الماورائية لأنه غارق في هذه الحياة سعيا منه في إشباع غرائزه حيث كان همه الأوحده هو ممارسة الوجود في السعي وراء الملذات حتى لا يلحقه الموت الذي هو في سباق معه"¹⁷⁷، وهذا موقف يختلف عن موقف الشاعر الزاهد الذي يقول عنه أحد الدارسين: "بوسعنا أن نقول ليس ذكر أبي عقاب لآثامه في شعره من قبل الجهر بالسوء، ولكنه من قبيل التحدث بنعمة الله عليه، إذ كان على شفا حفرة من النار فأنقذه وبوسعنا أيضا أن نقول: إنما ذكر أبو عقاب الآثام بعد النصح العاصي وتحذيره لكي لا يقنط العاصي وهو يرى الناصح كيف كان وكيف أصبح... ولكننا نميل إلى القول بأن النصوص التي على شاكلة الدالية تتلو التوبة، وتسبق نصوص التفكير فلأبي عقاب... وضع خاص، كان شاعرا حاد الإحساس خفاق القلب مولعا بالمباهج فأقبل على الحياة يعجب ويعب، ثم تملكه الشعور بالإثم، وأراد الخلاص لنفسه... ولقد كان من الطبيعي أيضا أن يخطر على باله بعد العيش الخشن... وهو في أول الطريق خواطر سيئة وغير مستحبة تنتمي إلى زمن رقادة والقيروان زمن اللحن والشمل فيستريح إلى أن يذكرها في شعره ذكرا مصفاة من الفحش"¹⁷⁸.

وهكذا تغير حال شاعرنا بعد أن تشبع قلبه بالإيمان وأدرك حقائق الأمور من خلال تعمقه في الدين الإسلامي وتفقهه في الحياة، وأصبح يمتلك قلبه الإيمان والصبر والتوبة والندم مما صدر منه زمن جاهليته:

إلى أن تناهت حدود القضاء وأنفذ سلطانها ما أرادا
فجلى من القلب إظلامه وأنور ما كان منه سوادا
فألزمت نفسي مدى صبرها وخالفتها في هواها عنادا

¹⁷⁶ - المالكي، رياض النفوس، ص539، 540، العربي دحو ص 200، 201 .

¹⁷⁷ - عبد الله فيدوح، القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد، رسالة ماجستير، إشراف عبد الغني شيخ جامعة وهران، سنة 1983، 1984، ص 58.

¹⁷⁸ - إبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 162، 163.

وبأينت ما كنت ألهو به فأمسى وأصبح عندي

سهادا¹⁷⁹

وما قلناه عن حاله يؤكد بعض الدارسين فيقول عنه: "يمضي الوقت، فتعتاده حياته الجديدة وينهمك في المجاهدات ويوغل ماضيه في الزمن مستعبدا عنه، فتخف وطأة الخواطر غير المستحبة أما الخواطر الشريرة فما تكاد تكون حتى يطردها ولا يفكر في ذكرها إن نظم شعرا ثم يهاجر إلى مكة، وهناك ليتزوج ليقيم بينه وبين الخواطر سدا"¹⁸⁰، ويعبر عن هذا التحول وحالاتها ومواقفها شعرا فيقول:

أبصر بالقلب سبيل الرشد فباين الأهل معا والولد

وجد في السير إلى ربه مشمرا يطلب ملك الأبد

قد صارت الدنيا بأفطارها عليه كالسجن فمنها

شرد¹⁸¹

وبعد أن تحول واقعه وحياته إلى سجن كبير استطاع أن يفر منه، لكثرة آثامه، والشخص قد يدخل السجن لجرم اقترفه، ولا يخرج منه إلا بعد نفاذ القصاص، وهذه التصوير الجامع بين الحاليين: حال العابث في دنياه الذي يعده تحررا من القيود الاجتماعية والدينية لكنه يصبح في رؤية الشاعر الزاهد الإسلامي التقى فقدا للحرية، والحرية فك الذات من أسر ملذات الدنيا وسجنها الرهيب؛، فما أعذب هذه الصورة التي تقدم الحقيقة بطريقة أخرى لكنها مقنعة، ولا شك أن هذه الأبيات تقدم صورة عن حاله بعد توبته وندمه مما اقترفه في شبابه:

فلئن مضى صدر الزمان بصفوه فلأخدمن لسيدي المنان

و لأقطعن علائقي مع غيره حتى أحل بساحة الميدان

ولأنفين أحبتي ومعارفي ولأقطعن عصابة المجان

ولأبكين على الصبا ولما مضى من غرني في سالف الأزمان

فلعل من شمل العباد بفضله يحيي الفؤاد بكثرة الأشجان

يا من إليه حسن ظني قادني أنت المؤمل عند كل أوان

¹⁷⁹ - المالكي، رياض النفوس، ج1 ص39، دحو العربي، الشعر العربي، ص 202.

¹⁸⁰ - إبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 163.

¹⁸¹ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص156 نقلا عن الدباغ، معالم الإيمان تونس 1362هـ، ج2 ص 145.

قطع الشاعر كل العلائق التي لا تربطه بيده إلا في التي تزيد في زهده في الدنيا وتقواه
و إيمانه بربه.

ج - تقاطع هاجس الزمن بهاجس الموت:

عندما نظر الإنسان إلى المصير الذي تنتهي إليه حياته انتابه القلق، وسئم الحياة، و عز
عليه الاستسلام للموت، وهي ظاهرة طبيعية وحتمية، وتدخل في جوهر قضايا الإنسان
وتفكيره وفلسفته كيفما كان جنسه أو دينه، ويجمع الشعر الزهدي كل هذه الأبعاد الإنسانية
للموت، ولا يختلف الشاعر المغربي عن غيره في إحساسه الرهيب لهذه القضية، ولكن الذات
الشاعرة المؤمنة تخفف من مأساويتها، وتوجهها نحو خير الإنسان وسداد رأيه، فتزيد شعره
عمقا وجمالا، ومن المفيد لمنهجية البحث الكلام عن مدلولها اللغوي، ونرجع إلى لسان العرب
فيقول: "الموت خلق من خلق الله تعالى... الموت والموتان ضد الحياة والمؤات بالضم. والموت
مات يموت موتا... والأصل فيه موت بالكسر موت، ونظيره دمت تدوم، إنما هو دوم، والاسم
من كل ذلك الميتة... وقبل الميت الذي مات والميت المائت الذي لم يميت بعد... والميتة:
ضرب من الموت... والميتة الحال من أحوال الموت كالجلسة والركبة... يسمى النوم موتا لأنه
يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها لا تحقيقا، وقبل الموت في كلام العرب يطلق على
السكون... وقيل المنام: الموت الخفيف، والموت: النوم الثقيل، وقد يستعار الموت للأحوال
الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهزم والمعصية، وغير ذلك"¹⁸³.

ولا ننسى تلك الآيات الكثيرة في القرآن التي جاءت تذكرنا بالميعاد منها قوله سبحانه
وتعالى: "إليه مرجعكم جميعا، وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق، ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا
الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون"¹⁸⁴.

¹⁸² - المرجع السابق، ص 159، والعربي دحو، شعر المغرب ص 203.

¹⁸³ - ابن منظور لسان العرب، دار صادر بيروت، ط 1، 1992، مج 2، ص 90، 94، ولسان العرب بالمحيط، دار الجيل بيروت، 1983، مج 4،
ص 546، 547.

¹⁸⁴ - يونس الآية 04.

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول نعيده وعدا علينا إن كنا فاعلين"¹⁸⁵. وقال تعالى: "وكل من عليها فان"¹⁸⁶، وقال سبحانه وتعالى: "إنه يبدي ويعيد"¹⁸⁷.

وقد شغل حدث الموت تفكير الإنسان منذ الأزل، وكان محورا أساسيا من محاور تفكيره وشعره، فكان موقفه منه يختلف من شخص لآخر بحسب فلسفته ودينه وإيمانه، ومن زمن إلى آخر قبل الإسلام وبعده، يقول مثلا عفت الشرقاوي عن فكرة الموت عند الجاهلي: "إذا كان الموت كما تصوره الجاهلي هو نهاية الوجود الإنساني والتوقف عن ممارسة الحياة بكل متعتها، فإن الموقف الوجودي للشاعر الجاهلي إنما يبرز عنيفا في تحدته للموت والفناء بالخوض في لذائذها، لا حبا في اللذة بوصفها لذة ولكن حبا في الحياة وتعلقا بها، وكرهية للفناء الذي تتوقف عليه ممارسة هذه الذات"¹⁸⁸؛ وهكذا فإن الإنسان الجاهلي يجهل ما بعد الموت لذلك انتابه القلق لتوقفه عن ممارسة الحياة بكل متعتها لكن الإنسان المسلم يدرك أن هناك حياة أخرى هي دار الخلود، وهي حياة بعد الموت باعتبارها مرحلة انتقالية إلى تلك الحياة الأبدية، فهذا عبد الله بن غانم القاضي¹⁸⁹ لما عاد أبو الوليد المهري في مرضه الذي مات فيه قال "هو الموت والغاية التي إليها نهاية الخلق وما لا بد منه فصبر يؤجر صاحبه، خير من جزع لا يقي عنه"، ثم تمثل قائلا:

فهل من خالد إذ ما هلكنا وهل بالموت يا للناس
عار¹⁹⁰

وكلمة الهلاك مرتبطة بالزمن، والخلود أيضا، وأفكار الشاعر عن الزمن ومأساويته جاءت مرتبطة بهما لارتباطها القوى والوثيق بأفكاره عن الموت، فهو بعد أن خبر الدنيا أدرك أن الموت حقيقة الحقائق، وحتما محتوما، وقدرا مقدورا.

¹⁸⁵ - الأنبياء الآية 104.

¹⁸⁶ - الرحمن الآية 26.

¹⁸⁷ - البروج الآية 13.

¹⁸⁸ - عفت الشرقاوي، دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، 1979، ص 287.

¹⁸⁹ - هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل، كنية أبو عبد الرحمن كان ثابتا ثقة، فقها عدلا في قضائه، ومن أهل العلم والدين والفضل والورع والتواضع، مولده سنة 128هـ مع البهلول بن راشد في ليلة، توفي سنة 190هـ وقيل 196 من فالج أصابه وقيل أن بصره كان قد كف والأول أصح، ينظر: طبقات علماء إفريقية وتونس ص 116، 117، ترتيب المدارك ج 1 ص 316، 325، وتراجم أغلبية، ص 8، 21.

¹⁹⁰ - ترتيب المدارك ج 1 ص 325، وتراجم أغلبية ص 20، 21.

لكن هذا لا يعني أن قضية الموت وما تثيره من جزع وخوف تنتفي نهائياً من أشعار الزهاد فهذا سهل الوراق يصور جزعه وألمه الشديد وبكاؤه على فراق حبيبه سعيد بن الحداد الذي أذهب صبره، ويكاد يفقده صوابه لعجزه عن دفع المنية عنه أو فديته، مما يفسر حتمية الموت وعجز الإنسان أمامه، فأخذته بغتة وهو ما يزال في ريعان فتوته، فأمسى في النعش بعدما كان يزهو بشبابه، وما هذا إلا تذكير بالزهد في الدنيا الزائلة الدنيا:

يؤرق عيني من لذيذ غموضها فليس لها إلا سهاد وأدمع
عجت لنفسي بعده كلف لم تمت وما بحياة بعد إن مات أصنع
فلو أن شيئاً كان يفدي فديته وهيهات ما في الميت للحي مطمع
لقد راح صبري يوم راحوا بنعشه فثووه لحدا ثم أبوا وودعوا
أريحانة قد صرت ريحانة الثرى فأضحى البلا في جسمك الغض يسرع
ألا يأبى الغصن النضير الذي ذوى فعيني على تلك النظارة تدمع
سقى قبرك الصوت الموشى لأرضه وحادث عليه مزنة ليس
تقلع¹⁹¹

وهذا محمد بن أبي دواد رثى محمد بن سحنون¹⁹²، وكان من أصحابه:

أذر الدموع على أغر محجل بسطت له أيدي المنون حبالها
ما ضرها لو أمتعت بمحمد هيهات! رب العالمين قضى لها
قل للمنية بعد محمد تكسو الخليفة بعده
أحبها¹⁹³

وهذا محمد بن يزيد الفقيه لما يرثي أبا الفضل الممسي¹⁹⁴:

آها عليك وليس ذاك بنا فعن وأرى البقاء مني ومنك
بعيد¹⁹⁵

¹⁹¹ - المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 114.

¹⁹² - ابن سعيد سحنون بن حبيب الشنوفي، مولده على رأس المائتين، كان الغالب عليه الفقه والمناظرة، وكان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب، ألف كتاب المسند في الحديث وكتاب الورع، وتفسيره الموطأ،...توفي بالساحل 256 بعد موت أبيه بستة عشرة سنة وحيء به إلى القبروان، فدفن بها وسنة أربع وخمسون سنة، ينظر تراجم أغلبية ص 170، 188.

¹⁹³ - المرجع نفسه ص 187.

¹⁹⁴ - أبو الفضل عباس بن عيسى بن العباس المسمى، استشهد سنة 333هـ فقيهاً، عالماً صواماً، وقواماً، وكان معه ورع كثير، ينظر الرياض ج2 ص 292، 305.

وروى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري وهو ينشده شعرا فانتهى إلى هذه الأبيات التي تضعنا أمام صورة الموت التي تحمل فجأة وسرعة تفوق سرعة الخاطرة فتأخذ الأوصياء قبل السقام والأغنياء قبل المعدمين، واستحضاره لأجواء الموت من بكاء وعويل، وذكر لمراسم الدفن:

فكم من صحيح بات للموت آمنا أتته المنايا بغتة بعدما هجع
 فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة فرارا ولا منه بقوته امتنع
 فأصبح تبكيه النساء مقتعا ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
 وقرب من لحد فصار مقيله وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
 فلا يترك الموت الغني لماله ولا معدما في المال ذا حاجة
 يدع¹⁹⁶

نلاحظ من خلال هذه الأبيات أن كلمة الموت ومدلولاتها تهيمن على النص، فلا يخلو شطر منها، مما يؤكد أن الموت والذي هو إحدى صور وأشكال الزمن يسيطر على الإنسان بحيث يعجز كليا عن مواجهته وصدده، وبالتالي جاءت الأبيات لتوضح حقيقة فاجعته، واستحالة الإفلات أو الفكاك من قبضته، فهو السيد المطلق الذي لا سلطان آخر دونه إلا الله، وهذا ما حاول أنور روميه وصفه بقوله إنه: "الشاطئ الصخري الذي تتكسر أمواج الحياة العاتية عليه تصارعه دهرا، وتمتد عليه دهرا، وتكليل له الضربات الموجعة، ولكنها تتحطم في النهاية على أقدام هذه الصخور"¹⁹⁷.

وفي هذا الصدد يصور لنا سابق مشهدا دراميا حين آتاه ملك الموت، وحاول الفرار والهروب، ورغم محاولاته المتواصلة والمتسمة بالقوة والإصرار، إلا أنه انهزم أمامها، ثم يصف ما يصنعه به أهله بعد الموت بحيث وضعوه في مدارج الكفن، ثم لحدوه ودفنوه، ثم انتقل إلى وصف مشهد آخر للميت، وما ينتظره في قبره، وبقائه منفردا لا نصير ولا قريب إلا أعماله دون أمواله وخلانه وأحبابه.

وأنشد له الشريشي في شرح المقامات قصيدة زهدية طويلة منها هاتاه الأبيات يصف فيها فعل الزمن وسطوته في حياة الإنسان والوجود، إنه معول الفناء لكل شيء، وهذا من حقائق

¹⁹⁵ - الرياض ج2 ص 302.

¹⁹⁶ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 9

¹⁹⁷ - أنور رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1979، ص

عظمة الخالق ، واللبيب اللبيب من اتعظ بها ، وهياً نفسه لذلك ، وأحسن منهج لذلك منهج الزهد الناتج عن إيمان وتقوى:

نلهو ونأمل أياما تعد لنا سريعة المر تطوينا ونطويها
كم من عزيز سيلقى بعد عزته ذلا وضاحكة يوماً ستبكيها
وللحتوف تربي كل مرضعة وللحساب برى الأرواح باريها
لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة حتى يقوم بنادي القوم ناعيها
ولن تزال طوال الدهر ظاعنة حتى تقيم بواد غيروا
واديها¹⁹⁸

يقول إن غياب الوعي والإدراك الصحيح للحقائق الخاصة بمصير الإنسان سببه ما أطلق عليه "اللهو" بجعله منهجا في الحياة، والصحيح إيقاظ الذات للعظة والعبرة من غفاتها باستحضار صورة الأعداء الذين نفتقدهم يومياً، وما التذكر والتدبر إلا إدراك لتلك الحقائق والوجود والمصير، ثم نراه في البيت الثالث يصور الزمن وهو يمارس ملهاته الساخرة، وينسى ما ينتظره من الحساب، ومن ثم يتحول المشهد إلى موقف مأساوي بطله الزمن.

وهذا بكر بن حماد يقابل بين الصورتين: صورة حياة الإنسان الهادئة المطمئنة، وصورة النعش الذي ينتظر الإنسان، والحقيقة الدرامية للعلاقة بين الصورتين هو التحول الجدلي للصورة الأولى إلى الصورة الثانية:

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بينما نرى المرء في لهو وفي لعب حتى نراه على نعش وأعواد
هَذَا يباكر دنياه منعضة فيها حزازات أحشاء و أكباد
وكلتا واقف منها على سفر وكتا ظاعن يحدو به الحادي
في كل يوم نرى نعشا نشيعه فرائح فارق الأحباب أوغاد
الموت يهدم ما بنيه من بذخ فما انتظارك يا بكر بن
حماد¹⁹⁹

¹⁹⁸ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 5

¹⁹⁹ - رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص 81، 82، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 150، 151، والمالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 25.

ويتساءل أبو المعمور بن حمزة الربيعي²⁰⁰ كيف أن اللبيب يلهو ويستلذ عيش ،وهو إلى التراب عائد :

الموت لا بد آت فاستعد له إن اللبيب بذكر الموت مشغول
وكيف يلهو بعيش أو يلذ به من التراب على عينه
محمول²⁰¹

الموت كما قال سابق لا مفر ولا مهرب منه إلى بروج مشيدة من قبض أرواح الناس كلهم سواء كانوا بدوا أم حضرا:

الموت جسرا لمن يمشي على قدم إلى الأمور التي تخشى وتنتظر
فهم يمرون أفواجا تجمعهم دار إليها يصبر البدو
والحضر²⁰²
من كان في معقل للحرز أسلمه أو كان في خمر لم ينجه
الخمر²⁰³

إن الإنسان لا يمكنه الاعتصام من الموت، فهو يرقى إلى المعازل والعقول المخدرة الغير مدركة الشبيهة بحال الميت التي تزول معه الحركة والعقل، فالفناء مصير كل بني أنثى فقد أصبحوا كلهم جزرا له:

إلى الفناء وإن طالت سلامتهم مصير كل بني أنثى وإن كثروا
أصبحتم جزرا للموت يقبضكم كما البهائم في الدنيا لكم
جزر²⁰⁴

هناك صراع محتدم للذات بين الزمن الداخلي ألا وهو زمن السلامة والخصوبة والزمن الخارجي زمن (الموت والجذب)، وكانت الغلبة للزمن الخارجي باعتباره الطرف الأقوى، ومن ثم تكون السيادة لرموزه الدلالية : الفناء، الموت، المصير، الجزر، وبذلك ينتصر الزمن والموت على الإنسان (كل بني أنثى).

²⁰⁰ - كان من أصحاب سحنون، وسمع منه بكر بن حماد، وكان يقول الشعر ويحسنه، مولده سنة 208، وفاته: 265.

²⁰¹ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ص328.

²⁰² - يقول أبو العلاء المعري: الموت حاس ما تعيف أجنا * تضيف الأعراف والأنباط، ينظر للزميات، دار صادر بيروت، مج2، ص105.

²⁰³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

²⁰⁴ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

تشير دلالة القبر المظلمة التي تعلو جوانبها بالتراب إلى ضبابية الرؤية وعدم اتساحها للجهل بالمصير بعد الموت، فيتسرب القلق إلى الأعماق، ويتحول إلى واقع مأساوي مسكون بالإحباط والانكسار، ولا علاج له سوى الحلم بالفردوس الموعود، ولن يكون ذلك إلا بالتزود له، يقول (أعشى حمدان):

وبينما المرء أمسى ناعما جدلا في أهله معجبا بالعشى ذات أنق
 غر أتيح له من حينه غرض فما تلبت حتى مات كالصعق
 تمت أضحي ضحي من غب ثالثة مقتعا غير ذي روح ولا رمق
 يبكي عليه وأدنوه لمظلمة تعلو جوانبها بالتراب والقلق
 فما تزود مما كان يجمعه لإحنوطا وما زاد لمنطلق
 وغير نفحة أعواد تشب له وقول ذلك زاد
 لمنطلق²⁰⁵

وروى عثمان بن عبد الحميد قال: دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عطني يا سابق وأجز. قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله، فقال له هات، فأنشده:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ووافيت بعد الموت من قد تزودا
 ندمت على أن لا تكون شريكه وأرصدت قبل موت ما كان
 أرصدا²⁰⁶

إنه يدعو إلى التزود لما بعد الموت، والذي لا ينفع بعده ندم أو حسرة وخير زاده التقوى، وقد كان أيضا على بن أبي طالب، وهو من هو يتخوف من قلبه الزاد لآخرته فيقول: "يا دنياي إليك عني غر غيري، إلي تعرضت أم إلي تشوقت؟ هيهات قد باينتك ثلاثا، لا رجعة لي إليك، فعمرك قصيرك،... وخطرك حقير، وخطبك يسير، أه من قللة الزاد وطول الطريق ووحشة السفر"²⁰⁷.

وهذا الحكيم أحمد بن أبي سليمان يدعو الناس أيضا إلى التزود بالأعمال الصالحة ليوم البعث ولحساب، وهذا بعد أن يضعهم أما صورة الإنسان القوي الذي يتخلله الضعف بسبب

²⁰⁵ - المرجع نفسه، ص 9

²⁰⁶ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 19

²⁰⁷ - عزيز السيد حاسم، الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الأندلس، ط1، 1986، ص50.

الكبر والوهن، فيطاوله الموت، ويسارع الناس إلى دفنه ولا يبقى معه أحد بعد ذلك، وكأنه شخص يودون التخلص منه، ولا يبقى معه إلا غير أعماله:

أراني قد كبرت ورق عظمي وصرت مخامرا ضرا ضريرا
كأنني بالبكاء على فاش وقد حملوا بجثتي السريرا
إلى دار البلا حملا سريعا وينصرفون عن قبري نفورا
وخلوني بأعمالي فروحي على الحالات تنتظر
النشورا²⁰⁸

و يأتي الموت على صغائر الأمور كما يأتي على كبارها فلا فائدة من جمع الأموال لأنها عائدة للورثة، وأما بناء الدور والقصور فالدهر كفيل بخرابها:

أمواننا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنينا
والله ما عبرت على الأرض قاطرة إلا صرف الليالي سوف
يفنيها²⁰⁹

ويعد هذا الزخم الشعري الزهدي لسابق المطاطمي تجربة متميزة رائدة في الشعرية العربية التي استطاعت أن تترك ظللا قوية في شعره المتبقي، فهو شديد الحرص على أخذ نفسه بالشددة والقسوة، ولا ينفك يذكرها بالموت ويدعوها للتزود بزاد التقوى، وهذا ما جعل من الخليفة عمر بن عبد العزيز ملازما له يأخذ منها النصح والمشورة فكان يغشى عليه لقوة تأثيره عليه²¹⁰.

وهذا أبو القاسم الفزاري يعزي نفسه على فقد أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي الذي تخيره الموت الذي لا يأخذ إلا كل ذي شأن، وأكثر الخلق شأنا النبي محمد وصحابته الكرام، "فالموت مثلما يأتي على الأمور الحقيرة يأتي على الأمور الجليلة، وأن كل امرئ وإن طال به الزمان فمآله الموت، ومنزله قبر سحيق، وأن الدنيا عند امتحانها من قبل صاحب العقل المبصر العواقب الأمور المدرك لغرورها ونعيمها-وفناء زينتها يجدها عدوا في ثياب صديق"²¹¹، ومن هذا المنظور يقول الشاعر:

²⁰⁸ - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص513. وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص145، والعربي دحو، شعر المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص198.

²⁰⁹ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص5

²¹⁰ - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص155، 156.

²¹¹ - مصطفى بيطام، مظاهر المجتمع وملاحم التجديد من خلال الشعر في العصر العربي الأول، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص187.

مضى عالم العلم الرفيع طالما أصابت فتاة الموت كل رفيع
ولولا التآسي بالنبي محمد وأعظم به من أسوة
لمروع²¹²

ولنعرج إلى الشاعر بكر بن حماد الذي ترددت كلمة الموت في شعره بكثرة، فبات يذكر به، وحاجة النفس البشرية إليه لأخذ الموعدة منه :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقتها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها
إلى مشهد لا بد لي من شهوده ومن جرع الموت سوف أدوقها
ستأكلها الديدان في باطن الثرى ويذهب عنها طيبها وخلوقها
سحاب المنيا كل يوم مظلة فقد هطلت ولاح بروقتها
وللنفس حاجات تروح وتغتدي ولكن أحاديث الزمان تقودها
تجهمت خمسا بعد سبعين حجة ودام غروب الشمس وشروقها
وأيدي المنيا كل يوم وليلة إذا فتقت لا يستطيع رتوقها
يصبح أقواما على حين غفلة ويأتيك في حين البيات
طروقتها²¹³

يبدو هذا النص كالنصوص السابقة التي تدور حول الزهد في الدنيا، والتأكيد على الأمور الدينية لغرض الوعظ، والشاعر لم يستعمل الزمن استعمالا طبيعيا، بل استعمله استعمالا وجدانيا شعريا، وبعد أن شبه النفس بالفرس حين إفلاتها وجموحها من صاحبها التي تلقى مقاومة، ولكنه يفشل في كبح جماحها، ويصور مروقتها بصورة السهم يخرج من القوس بسرعة، وبالتالي فتلك المفردات أوضحت ذلك الصراع بين الشاعر والنفس، ثم ينتقل إلى استعمال الليل والنهار على أنهما رمزان للخير والشر، لكن إذا ربطنا بين الليل الذي يقود النهار وهذا يسوقه نجد أنه قد استعملهما استعمالا مجازيا لأن الليل لا يقود لظلمته ولا النهار يسوق لوضوحه ونوره.

أما البيت الرابع ففيه تصوير تعاقب الليل والنهار على النفس وتهافت كل منهما عليها للأخذ بقيادتها، وهذا التهافت عليها لكونها تمتلك الاستعداد للانقياد كالشباب والمال وكلها من الزائل، ويقول: (فقد هطلت حولي ولاح بروقتها): وما أشبه دلالة لمعان البرق في السحب على

²¹² - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 304.

²¹³ - محمد شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص 78، 79، والمالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 23، 24، محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 36، 37، وع العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم، ص 135، إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 149.

نزول الأمطار بالعلامات تطراً على الإنسان، وتدل على اقتراب الفناء إليه، وتوقع الموت للغير ما هي إلا توقع موتنا، وبذلك جاء لمعان البرق كإنذار وإشارة إلى المصير نفسه الذي ينتظرنا، وفي هذا التصوير دعوة للعلم والاعتبار²¹⁴.

وبما أن فكرة الموت شغلته كثيراً فقد حاول خوض التجربة من خلال غيره، حيث يقول في رثائه لابنه عبد الرحمن²¹⁵ الذي اختطفه الموت وهو في عنفوان شبابه ونضارة صباه:

بكيّت على الأحبة إذ تولوا	ولو أنني هلكت بكوا علي
فيانسلي بقاؤك كان ذخرا	وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كفى حزنا بأنني منك خلوا	وأنتك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما	رميت الترب فوقك من يديا
فليت الخلق إذا خلقوا أطاعوا	وليتك لم تكن يا بكر شيئا
تسر بأشهر تمضى سراعا	وتطوى في ليالهن طيا
فلا تفرح لدينا ليس تبقى	ولا تأسف عليها يا بنيّا
فقد قطع البقاء غروب شمس	ومطلعها علي يا أخيا
وليس لهم يجلوه نهار	تدور له الفراقـ

والثريا²¹⁶

يصور الشاعر البكاء على الأحبة في الشطر الأول، أما في الشطر الثاني فيصور بكاء آخر مستقبلي ضمنى متوقع يخص الشاعر نفسه (بكوا علي)، والفرق بين البكائين زمني إذ لو مات قبلهم لبكوه مثلما هو يبكيهم الآن، وهو عندما بكى على الأحباب كان عاجزا عن رد فعل القدر وفعل الزمن، ولقد لجأ الشاعر لهاته الوسيلة ليخفف من شدة العواطف، فالدهر تربص لبكر بن حماد فأصابه في الكبد بفراق حبيبه، فاشتكى من تلك الغربة العاطفية الناجمة عن هذا الفراق، وهو ذو دلالة عن الموت الروحي العميق لأن مثل هذا الفراق يشعر المرء بنهاية الكون، والذات "تفقد مقومات الحياة إذا حيل بينها وبين ما تحبه وتألّفه وتأنس إليه، وتقع فريسة للوحدة والفقْد إذا أقيمت حولها الحواجز والسدود مثلها في ذلك مثل الأقحوانة المحاطة بسياج من أشواك"²¹⁷.

²¹⁴ - ينظر إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 149، 150، وهامش رمضان شاوش، الدر الوقاد ص 78، 79.

²¹⁵ - لما كان بكر بن حماد عائدا من إفريقية إلى مسقط رأسه تبهرت مصحوبا بولده تعرض له اللصوص في الطريق بقلعة ابن حمة فجرحوه وقتلوا ولده عام 295 هـ، ينتظر رمضان شاوش، الدر الوقاد ص 52.

²¹⁶ - رمضان شاوش، الدر لوقاد ص 87، 88، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 191، 192، ومحمد الطمار تاريخ الأدب الجزائر ص 36، وعبد العزيز بنوي، الشعر المغربي، ص 136، 167.

²¹⁷ - فوزي عيسى، النص الشعري وآلية القراءة، ص 516.

تكون هذه الصور الشعرية الزاهدة مشاهد مأساوية، وقد نجدها حتى في الشعر الجاهلي وجمعهما البعد الإنساني الوجداني على الرغم من اختلاف الخلفية الفكرية والإيمانية لكل منهما وهكذا نجد الإنسان في نظر الشاعر الجاهلي يبدو من جراء الفراق وكأنه: "قطع يتفتت لها قلب الشاعر، فهي تذكره بالرحيل النهائي من هذه الحياة كلها، ومن هنا نجد عبارات التقطع والتمزق تشيع في الشعر الجاهلي عامة والمعلقات بصورة خاصة، ونجد بالمقابل شيوع الألفاظ الدالة على قوة التشبث والارتباط كرد على الحالة الأولى"²¹⁸.

الحب هو الحياة، والحياة تحمل الموت في صيرورتها، ويبرز الموت في الحب، فبقدر حبنا للآخر نحيا وتزهر الحياة وتكبر السعادة، وبقدر حبنا له نمقت الموت ونمقت معه الزمن، لكن الشاعر يستبدل هذا الحب بعبارة لقاء ربه وحسن خاتمته .

ولقد كان الشعر عند الجاهلين بمثابة الولد بل أعظم بقاء فهو يتضمن العواطف والآمال والرغبات لكونه رمز للخلود ومواجهة الفناء: "فالشعر هو موقفهم_الديني،...فيه يقهرون هذا الموت القهر الوحيد المتاح للإنسان في هذه الدنيا...فهو يبقى بعد أن يفنوا هم...ومهما يكن إيمان الفرد بحياة أخرى، فإنه يحب أن يخلف من ورائه خلقا يبقى، وإذا كان البشر العاديون يجدون في الولد الكافي عن زوالهم من الدنيا فإن الفنان لا يجده إلا في خلقه الفني...فالشعر كان سلاحهم القوي ضد الزمن وردهم القوي على قساوة الحياة وتقلب الدهر وحتمية الموت"²¹⁹، وأنظر سعيد بن الحداد وهو يطلب من خليله أن ينعاه بعد موته :

يا خليلي قد دنا الموت مني فابكياني هديتني
وانعاني²²⁰

إن الحياة ترتبط لسائلها بمقوماتها كالفن والنسل وبانعدامها تصبح موتا، الإنسان لم يستسلم للموت وفي الوقت نفسه لا يواجهه مواجهة الند للند، وإنما يتحايل عليه بالنسل والكلمة، وما تتضمنه من فضائل أخلاقية لا تقنى، فكان شعرهم حلبة للمصارعة مع الموت، لكن بمجيء الإسلام انزاحت هذه العقدة الذي كان يعاني منها الإنسان الجاهلي حين يفكر في الموت، ونرى بكر بن حماد في هذه القصيدة قد غلب الموت على عقله وفكره وقلبه وعواطفه: وله أبيات أخرى قد تخففت من الحزن وشدته بالمقارنة إلى شعره السابق، واستطاع أن يفكر بهدوء

²¹⁸ - صالح مفقود، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص 36.

²¹⁹ - محمد النويهي، الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ج1، ص 432.

²²⁰ - المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 111.

وأصبحت أحزانه وآلامه أهون بعد إقراره بالموت ، والنظر إليه على أنه حقيقة لا بد منه ولكنه لا تثير الخوف ، وعلاجها الزهد والإيمان والصبر والتقى:

وهون وجدي أنني بك لاحق
وأن ليس يبقى للحبيب حبيب
وأن طول الحزن مما يردده
للازمني حزن عليه
طويل²²¹

بلى ربما دارت على القلب لوعه
فيرجعها صبر هنالك جميل

ولعله من الطريف أن بعض الشعراء إذا أحس داعي الموت ندب نفسه، ووصف ما يصنعه أهله بعد موته وانصرفهم لحياتهم، ونسيان محبته باستبداله بلهو آخر:

إذا انقرضت عني من العيش مدتي
فإن غناء الباكيات قليل
ستعرض عن ذكري وتنسى مودتي
ويحدث بعددي للخليل
خليل²²²

أما أبو القاسم الفزاري فقد هاله وراعه مآل ومصير الإنسان بعد الموت وأهواله، فحاول تصويره في هذه الأبيات:

وبعد الموت أهوال عظام
وتذهل كل مرضعة لكرب
وبعد الموت للأرواح إما
عجبت لفتنة أعمت وعمت
تزلزلت المدائن والبيوادي
بهها وتلوننت منهاها
الدهور²²³

هذا تصوير شعري تعبيرى عن الشجو والهم والمرارة والتأسف على ما انقض من العمر الوهم في لهو وغفلة، ثم تستيقظ ذاته فتفجع على المصير المنتظر، بل مصير البشرية

²²¹-المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 420، شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص89، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص193.

²²²-القاضي عياض، ترتيب المدارك ج1 ص 324.

²²³- إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص267-268.

جمعاء، وامتداد دلالة الموت والفقد تعمق هول المأساة التي تحاصر الإنسان وتفقده القدرة على المقاومة، فيصير أسير زمن الموت الذي يتخلل ماضيه وينتقل إلى حاضره ومستقبله و أهوال الآخرة.

والشاعر الزاهد قد يرسم للإنسان مستقبلا سعيدا ينتظره كل مؤمن تقي ليتنعم بالجنة ، وما أعدّه الله له من حور العين، وشراب من سلسبيل...كما يقول أحمد بن أبي سليمان:

وقد حبس اللسان فلا كلام وقد سمع الصياح المستطيرا
فإما مؤمن يرجو خلاصا وإما كافر يصلي سعيرا
فويل للشقي إذا تردى وصار إلى التي ساءت مصيرا
إلى نار تظيها شديدا وتزفر في تغيظها زفيرا
وطوبى للسعيد إذ حباه إليه العرش في الفردوس حورا
وصار شرابه من سلسبيل وأنهار مفجرة
خمورا²²⁴

غير أن بعض شعراء يقدمون صورة أخرى ناتجة عن عدم اليقين بالمآل الآخروي وجهل المصير في الحياة الثانية أهي الجنة أم النار ؟ ولا ثالث لهما ، ويصور أبو الفضل مولى نجم هذا الموقف في قوله :

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدري أي المحليين
تنزل²²⁵

ومع هذا كان إحساسه يتميز بالهدوء والاستسلام والاطمئنان مقارنة بما احس الجاهليون حيث كان إحساسهم "إحساسا قويا بالموت وحتم وقوعه ورأوا رأي العين تلاعب القدر بهم وتغلب صروفه عليهم في هذه الحياة المحدودة الفانية، صحيح أن غيرهم من الشعوب في مختلف الأزمان والبيئات أدركوا هاتين الحقيقتين فأثرتا فيهم لكن إحساس الجاهلي بها كان زائد الحد يبلغ درجة العنف"²²⁶.

²²⁴ - المالكي، رياض النفوس، ج1 ص 512، 213 ، العربي دحو، شعر المغرب، ص197، 198.

²²⁵ - المالكي، رياض النفوس ص 244، القاضي عياض، تراجم الأغلبية، ص244.

²²⁶ - محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ص419.

وهذا يعود إلى عدة أسباب منها: تذكير الأشعار بالموت ودعوها للاستعداد لما بعده، ووعظ أصحاب نزعة المجون للاستقامة، والدعوة في شعرهم الزهدي إلى تحبيذ العزلة والاعتكاف، وجمعهم بين الشعر والفقه والورع والتقوى .

ج - ذكر ذهاب الأمم والملوك وما وقع لهم وهاجسه الشعري:

يدعونا شعراء نزعة الزهد إلى التدبر والتأمل والتذكير بأحوال البشر وتجاربهم في مواجهة الزمن وذلك باستدعاء قصص الغابرين وتذكير الذات بماضي البشرية لأخذ العبرة وتحقيق التوازن بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ونستهل الكلام بيوسف عبيد الله القفصي²²⁷ الذي صرح أن الدهر لديه ما هو إلا ليلة بعد يومها ونجم طالع ثم أفل:

وما الدهر إلا ليلة بعد يومها ونجم تراه طالع ثم آفلا
وقرن جديد خلف قرن ودولة تعاقب أخرى لا يزلن
شوامل²²⁸

ولبكر بن حماد أبيات يصور فيه الانتقال إلى الدار الأخرى بغير عمل صلح بصورة السفر بغير زاد، وفي صنيع الزمان بالأمم والملوك، إذ حدثنا عن الزمن الذي يمشي بين خطواتنا، ويلاحقنا أينما ذهبنا، ويغير أشياء كانت ثابتة أو يضيف أشياء أخرى فيقول:

نهـار مشـرق وظلام ليل ألح بالبيـاض وبالسـواد
هما هـدما دعائم عمر نوح ولقمان وشداد وعاد
نمت على فراشك مطمئنا كأنك آمنت من الميعاد
فيا سبحان من أرسى الرواسي وأوتدها مع السبع
الشداد²²⁹

²²⁷ - زهد في كل ما يتنافس فيه الناس من الدنيا وأسبابها، يقول الشعر الجيد، توفي سنة 332هـ، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2 ص278، 282.

²²⁸ - المالكي، رياض ج2 ص278، هذا البيت الأول للشاعر شبيه بما قاله كل من أبو الخير العبد وأبو ذؤيب الهذلي:

ما الدهر إلا ليلة * من بعدها يوم جديد وكلاهما بكا فاعل * ما تريد ولا تريد.

(و) هل الدهر إلا ليلة ونهارها * إلا طلوع الشمس ثم غيارها !؟

لقد أحس كل من أبو الخير وأبو ذؤيب الهذلي بمأساة إنقضاء الوقت وأثره على الإنسان وما يصحبه من إنقضاء العمر فعز عليهما ذلك فصوراه في هاتئ الأبيات إلا ليوصلا لنا جزءهما من الدهر ومن عواقبه التي لن يسلم منها فهو فاعل ما لا نريد، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص439، وأبو ذؤيب الهذلي، حياته وشعره، دراسة توثيقية نقدية وتحليلية وفنية، ص212. نقلا عن ديوان الهذليين، طبعة دار الكتب، ص21.

²²⁹ - رمضان شاوش، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص76 وعبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر الجزائري، ص135، هذا البيت أصله وأوتدها على السبع الشدائد وقد أصلحه أحمد بن أبي سليمان عندما أنتشه الشاعر هذه الأبيات بالقيروان ينظر رمضان شاوش، الدر الوقاد ص49 وما يليها.

وتعد كلمة الليل " شعرية موحية لعلها أعظم كلمات الشعر رومانطقية لدى سائر الشعراء فالليل وهمومه، وما يكتنفه من سويداء ويحيط به من قلق ووجل متصورا لخيال الشاعر الرومانطقي ثوبا أسود شاملا يرخيه القدر على كيان امرؤ القيس²³⁰ مثلا، فالنهار عنده مثل الليل الذي يحل ومعه الهواجس، كذلك الصباح ظلام آخر فمن ورائه قدر غاشم يخبئ للإنسان ما لم يعلم:

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل
بصبح وما الإصباح منك
بأمثل²³¹

وقد رأى الشعراء الجاهليون هذا المستقبل وهو يحمل لهم الموت كما قال عمرو بن كلثوم:

وأنا سوف تدر كنا المنايا
مقدرة لنا ومقدر
بنا²³²

فسئم الحياة وتكاليفها، لأن المنايا خبط عشواء من تصبه تمته ومن تخطئه يعمر حتى يهرم، فهو يسير على غير علم بمصيره كما قال زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
وأعلم ما في اليوم والأمس قلبه
ولكني على علم ما في غد
عم²³³

مثل هذا السأم نجده مرويا عند لبيد بن ربيعة إذا يقال أنه حين بلغ سبعا وسبعين قال:

قامت تشتكى إلى النفس مجهشة
وقد حملتك سبعا بعد سبعين
فإن تزدادي ثلاثا تبلغني أملا
وفي الثلاث وفاء
للثمانين²³⁴

²³⁰ - علي شلق، نقاط التطور في الأدب العربي، دار القلم، بيروت، لبنان، ص 25.

²³¹ - امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس بن حجر الكندي لأبي الحجاج يوسف بن سليمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 68.

²³² - ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الجاهلية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، بمصر، ط2، 1980، ص 374.

²³³ - الأصفهاني، الأغاني ج 14، ص 213.

²³⁴ - صالح مفقود، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص 64.

وإن صحت هذه الأبيات "فإن لبيدا صار بعد كبره يشكو الزمن وطوله، وهذا ليس لأنه كره الحياة بل لأنه لم يستطع أن يحيا كما كان، فقد أصبح مغلوبا على أمره، وأصبحت الأيام لا تعنى عنده إلا أرقاما تتابع ليل ونهار من جديد سوى ضعفه وهزاله، وهذا الموقف المعبر عن الضجر نجده بصورة خاصة عند الشعراء الذين عمروا طويلا، والذين اشتهروا بالحكمة أو التعقل أمثال زهير ولبيد"²³⁵، وسعيد بن الحداد الذي عمر طويلا فكره الحياة وسيطرت عليه فكرة الموت نتيجة واقعه المرير:

كم عساني أعيش كم عساني كم عساني أبقى على الحدثنان
بعد سبعين حجة وثمانين فقد توفيتها من
الأزمان²³⁶

إن الزمن الذي يمثله الليل والنهار كان من نتائجه أخذ نوح بعد أن عاش زمنا طويلا، وكذلك لقمان وأدهبا قوة عنتره من شداد وقوم عاد. فهو في سرعة ودوران، فلما التعجب إذن من رحيل قوم وأناس إلى ديارهم الثانية دون زاد وأعمال تشفع لهم؟. فهو يحاور نفسه ويكلمها حوارا داخليا: أنت تتعجب وتحسب نفسك قد اكتفيت من أعمال الخير، فلا تظمن كل الاطمئنان، وأعمل لآخرتك، لأن الحياة الدنيوية "مزرعة الآخرة، ومطية لها، وأن مثل بقاء الإنسان فيها مثل الراكب قام في ظل شجرة ثم راح وتركها، وأن دار البقاء: دار الآخرة نسبة هذه الدنيا الفانية كما قال (ص): "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدهم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع". وأن الفرصة المولية لكل إنسان لها أهميتها وأبعادها، حيث يترتب على حسن استغلالها أثر طيب في الحياة الآخروية ويترتب على سوء استغلالها أثر سيء متأسف في الآخرة"²³⁷.

أو كما قال محمود القطان: "الدنيا أمل ووجل، والآخرة جزاء وعمل والمتوسط بينهما أجل"²³⁸.

²³⁵ - المرجع نفسه، ص 64.

²³⁶ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 111.

²³⁷ - وكيع بن الجراح، صحيح كتاب الزهد، حققه وأخرجه أحاديثه عبد الرحمن بن الجبار الفريوائي اختصره بن عبد المقصود، مؤسسة الكتابة الثقافية، ط 1، 1993، ص 20.

²³⁸ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 349.

إن بكر بن حماد لا يختلف كثيرا عن غيره من الشعراء فهو يعي تاريخ الفناء، وقصصه مع الملوك والعظماء ليعتبر بها من أراد أن يعتبر، وبخاصة صورة المحمول على آلة والناعين خلفه، وفي هذا السياق يقول سابق:

وكيف يأمن ريب الدهر مرتهن
ألقى على الجيل من عاد كلا كله
غرت زمانا بملك لا دوام له
وصبحت قوم عاد في ديارهم
وتبعنا ثمودا بحجرا غادرهم
فكيف يبقى على الأحداث غابرنا
بعدوة الدهر إن الدهر عدا
حتى سقاها بكأس الموت ساقيا
جهلا كما غر نفسا من يمينها
بمفزع يوم عادتهم عواديها
ريب المنون رميما في مغانيها
كأننا قد أظلتنا
دواهيها²³⁹

والشاعر لم يكتف بهذا القدر فقد أورد في غير هذا الموضع شعرا ينم عن تجربة شعرية رائدة، ورؤية أصيلة للحياة والناس والمصير:

كم من جموع أشتت الدهر شملهم
وكم من أصيد سامي معتصب
يظل مفترش الديباج محتجا
قد غادرته المنايا وهو متسلب
أتعد آدم ترجون البقاء وهل
كم بيوت يمستن السيول وهل
إلى الفناء وإن طالت سلامتهم
إذا قضت زمر آجالها نزلت
ثم اقتقدوا بالأولى كانوا لكم غررا
حتى تكونوا على منهاج أو لكم
وكل شمل جميع سوف ينتشر
بالتجاج نيرانه للحرب يستعر
عليه تبنى قباب الملك و الحجر
مجدل ترب الخدين منعفر
تبقى آدم ترجون البقاء وهل
كم بيوت يمستن السيول وهل
إلى الفناء وإن طالت سلامتهم
إذا قضت زمر آجالها نزلت
ثم اقتقدوا بالأولى كانوا لكم غررا
حتى تكونوا على منهاج أو لكم
تبقى على الماء بيت أسه مدر
مصير كل بني أنثى وإن كثروا
على منازلها من بعد زمر
وليس من أمة إلا لها غرر
وتصبروا عدم الدنيا كما
صبروا²⁴⁰

²³⁹ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

²⁴⁰ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

وفي ذكر الغابرين والاعتبار بمصيرهم يقول أحمد بن أبي سليمان:
أرى الدنيا تغيرها الليالي وأياما تؤولفه شهورا
كذا أحوال دهرك حال أمن وحال تجزع البطل الجسورا
وكم ملك عظيم ذي احتيال أعد خزائننا وبني قصورا
وكان مداه ذا خطر عظيم فصار مؤجلا أجلا قصيرا
ومن ذاك التملك و التعالي وسكن قصره، سكن الحقيرا
واضطجع في التراب بلا مهاد يضيّق اللحد منجدلا عصيرا
وكم من طالب للمال يسعى ويركب في مطالبه البحورا
فصاره يود أن لو كان أضحي على تقريب ما حوى قديرا
وعاد يود أن لو كان أمسى وليس بمالك منه
نفيرا²⁴¹

يصور الشاعر في البيت (1) و(2) عدم استقرار الدنيا على حال وتغيرها وتقلب الزمان وهذا يتضح جليا من خلال الأبيات الموالية حيث يذكرنا بمصير الناس، ومنهم الأبطال الجبابرة والملوك العظماء، و"إن الالتفات إلى صنيع الزمن أيامه ولياليه بالإنسان والاعتبار بمصير النفس والآخرين من العظماء والعلية وغيرهما من المناحي المعروفة في الشعر العربي منذ الجاهلية، غير أن هذه المناحي قد لقيت رواجاً، فصارت تتكرر في الشعر الروحي، ولاسيما ديوان أبو العتاهية"²⁴².

ونجد الصورة نفسها في رثاء بكر بن حماد لمدينة تيهرت بعد تخريبها فيندمج مع الجماعة ويقف على أطلال الدنيا، وما حوته من قبور دون تخصيص ليحقق البعد الإنساني لشعره:

زرنا منازل قوم لن يزورنا إني لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا: الزاد ويحكم حد الرحيل فما يرجو المقيمونا
فالآن فابكو فقد حق البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا

²⁴¹ - المالكي، رياض النفوس، ج 1 ص 512، والعربي دحو، الشعر المغربي ص 197.

²⁴² - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 146.

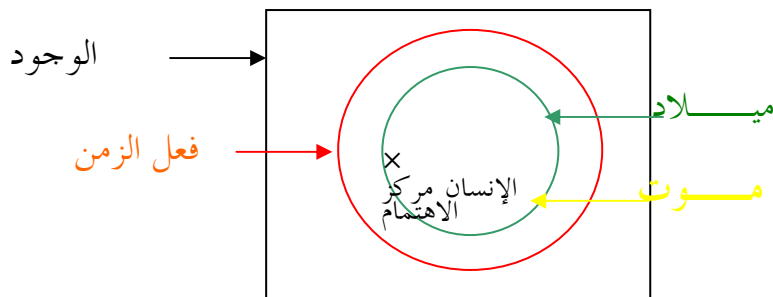
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها لو كان جمع فيها كنز
قارونا²⁴³

وهذه دعوة أخرى منه للوقوف بالقبور:

قف بالقبور فناء الهامدين بها من أعظم بليت فيها أجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم من الوصال وصاروا تحت أطوار
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا فلن يروحوا ولن يغدو لهم
عاد²⁴⁴

"لقد نجح الزهاد بمسلكهم في كشف حقيقة الدنيا وتهوين شأنها، وآثاروا في الحاكم والمحكوم فكرة الموت والقبور واليوم الآخر، وآثاروا فيهم في نفس الوقت الشعور بالخطيئة وعدم الخلو من الذنوب، فطبعوا شعر العصر بمسحة لا تخلو من الانقباض، لأن وقفة الإنسان أمام الموت وقفة رهيبية تتمثلها الخواطر سواء في لحظات النعمة أو لحظات الحرمان...ولهذا الإنكار نجد شاعرا قصر في حديث الموت من شعراء العصر"²⁴⁵.

تمثل النصوص السابقة الصورة الواضحة لموقف الشعراء من الكون والوجود، والتي كان فيها الإنسان مدار شعرهم الزهدي، فهو يرمز للزمن في جميع أشكاله وصوره من [ميلاد وموت، وتجدد وزوال، وقوة وضعف، وشباب وشيخوخة، وخلود وفناء،...]. وما بين ذلك من اطمئنان ووجل، وسعادة وتعاسة، وإليك هذه الترسيمية التي توضح هذا التصور:



د - السلوك والأخلاق:

²⁴³ - رمضان شاوش، الدر الوقاد بكر بن حماد ص90، المالكي، رياض النفوس، ج2 ص23، والعربي دحو، شعر المغرب ص150.

²⁴⁴ - شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص80، المالكي، رياض النفوس، ص24، 25، العربي دحو، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص150.

وعبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي، ص170.

²⁴⁵ - إبراهيم بيسوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، 1969، ص101.

لم يتكلم الزهاد وحدهم في الأخلاق 'فالأخلاق موضوع هام تناوله الفلاسفة منذ أقدم العصور، واهتمت به الأديان منذ عرف الإنسان التدين...وقد عرف الصوفية والزهاد منذ القديم باهتمامهم بالأخلاق، والمؤكد أن الجاحظ حين اهتم بهم لحظ فيهم شيء: جودة الأدب، وقوة الأخلاق، ولذلك تراه يقول في مطلع كتاب الزهد: نبدأ باسم الله وعونه شيء من كلام النساك في الزهد وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم²⁴⁶.

وما ذاك الإقبال إلا تفسير لاتساع أشعارهم لكثير من النظرات، ومنها، تلك التي تتصل بالكسب، والغناء، والقناعة، وموقف شعراء الزهد واضح فهم من دعاة القناعة، وتربية النفس على هذا المسلك يقول سابق:

والله ما قنعت نفس بما رزقت من المعيشة إلا سوف
يكفيها²⁴⁷

يقول أحمد بن أبي سليمان "وليس شيء على الأبدان أروح من الزهادة في الدنيا ولا للقلوب أروح من القناعة"²⁴⁸.

أما أبو عقاب الشاعر الماجن التائب بعد أن أكثر من اقتراف المحرمات والشبهات، وكل ما فيه ريبة ورغبة ولذة شعر بأنه لا بد من التحول نحو طريق المريدين و الزهاد و المتعبدين:

فلم أرى عيشا كعيش القنوع ولم أر مثل التقي لي
مرادا²⁴⁹

وفي تفضيل الناس على بعضهم في الرزق وهي دعوة ضمنية إلى القناعة يقول بكر بن حماد:

تبارك من ساس الأمور بعلمه وذل له أهل السموات والأرض
ومن قسم الأرزاق بين عباده وفضل بعض الناس فيها على بعض
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده فقولوا له: يزداد في الطول
والعرض²⁵⁰

²⁴⁶— عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص258، 259.

²⁴⁷— عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 4

²⁴⁸— القاضي عياض، تراجم الأغلبية ص276.

²⁴⁹— المالكي، رياض النفوس، ج 1 ص540.

ومن الأخلاق التي يتوأسى بها الزهاد التوكل ولا أدل على ذلك من حادثة أبي الأحوص المتعبد بسوسة الذي أتى إليها مرابط فأقام بها مدة حتى نفذت نفقته وأراد الرجوع إلى بلده المغرب، فأتى إلى جامعها ليركع فيه وينصرف، فبينما هو راكع إذ رأى عصفورا دخل الجامع وفي فمه شيء يطعمه فراخه فسقط من فم العصفور ما كان فيه فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ما سقط من فم العصفور فخاطب نفسه بان قال: فأر خلف الحصير فيفي الله تعالى من رزقه كما قد رأيت.

"ولم يضيعه فكيف أضيع أنا؟ الله على ألا أدع مدينة الرباط إلى غيرها أبدا فاشتهر بها ولزمها حتى مات" ²⁵¹.

وكذلك قصة إبراهيم المتعبد ²⁵² الذي طلب من الله عز وجل أن يموت وأن لا يترك لبناته عدة من الدنيا إلا الله عز وجل ²⁵³.

وأشده أبو بكر سعدون الجزيري ²⁵⁴ في حزن الناس للقتل مخافة الجوع وعدم توكلهم على الله في طلب الرزق هذين البيتين :

إذا القوت تواتت لك الصحة والأمن
أصبحت أخوا حزن فلا فارق لك
الحزن ²⁵⁵

وكان أبو إسحاق الجيباني ²⁵⁶ يسمع في الليل إذا بقي أهل بيته بلا شيء يقتاتون به فيقول:

مالي تلال أستطرت من نسب وما أومل غير الله من أحد
إن القنوع بحمد الله يمنعي من التعرض للمنانة والنكد
إني لأكرم وجهي أن أعرضه عند السؤال بغير الله

²⁵⁰ - رمضان شاوش، الدر الوقاد ص77، ومحمد الطمار، محاضرات في الشعر، ص36.

²⁵¹ - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص482، 483.

²⁵² - توفي سنة 349هـ، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص454.

²⁵³ - توفي سنة 349هـ، ينظر المالكي، رياض النفوس، ص454.

²⁵⁴ - أبو بكر محمد بن سعدون الجزيري التميمي، المتعبد توفي سنة 344هـ، آثاره وأدابه ومرءاته كثيرة، وحج حججا مع كثرة الرباط، لزم قصر ابن

جعد، حسن الصوت بالقرآن، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص414، 418.

²⁵⁵ - المصدر نفسه.

²⁵⁶ - أحد الأئمة المسلمين، وأبدال أولياء الله الصالحين، توفي سنة 399هـ.

وفي التوكل على الله والركون إليه في كل شيء واعتقاد أنه سبحانه هو الصانع على كل حال وبالتالي الاعتماد عليه في طلب الحوائج يقول بعض الصالحين:

إن الذي فوضت إليه أمري هو الذي خلفت في أهلي
لا عدمو فضل إلا هي الذي أفضاله أعظم من
فضلي²⁵⁸

ولما حمديس القطان²⁵⁹ اعتل احضر له طيبب فابتسم وقال: ما أقبح المخالفة بعد الموافقة من أردا الله به حالا وأراد غيره فقد خالف ثم قال:

بيد الله دوائبي الذي يعلم دائبي
إنما أظلم نفسي بإتباعي لهوائبي
كلما داويت نفسي غلب السداء
دوائبي²⁶⁰

إن طلب الحوائج سفاهة فكل شيء مقسوم، ولا تجدي معه عناء وتعب فلا بد من التوكل على الله والقناعة بما قسم للإنسان.

أما الرضا آخر مقامات الصوفية، يقول أبو عقاب:

رضيت بدون الكفاية قوتا وبالله عن كل خلق
عمادا²⁶¹

كل شيء قد قدر وكتب فلماذا الحرص والذل في طلب الحوائج؟ وفي موضع آخر

يقول:

فامضي القضاء على الرضى مني به وإنني رأيتك في البلاء
رفيقا²⁶²

²⁵⁷ - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج 3 ص 502، 503.

²⁵⁸ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 454.

²⁵⁹ - من ولد أبي موسى شعري، كان كثير الكتب شأنه العبادة، مجانيا لأهل الأهواء والسلطان، من أصحاب سحنون توفي 289هـ، مولده 230هـ،

ينظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 3 ص 254، 259.

²⁶⁰ - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج 3 ص 255، وتراجم أغلبية ص 289، والعربي دحو، الشعر المغربي ص 176.

²⁶¹ - المالكي، رياض النفوس، ج 1 ص 548.

²⁶² - المصدر نفسه، ص 532.

لقد رأى أن الاستسلام للقضاء والقدر بالرضى فهو خير رفيق إذا حلت به المصاعب.
ومن المقطوعات التي تدور حول بعض الآداب التي يجب أن يتحلى بها المسلم العفو
والتسامح عند المقدرة قال أحدهم:

العفو أولى لمن كانت له القدر لا سيما عن مصر ليس
ينتصر²⁶³

ويرى سابق أنه إذا طلبت كل مذنب ولم تسامحه وتعفو عنه فتستجيب كل الناس لذا ليس
هناك ضرر في المعاتبة:

إذا كنت طالب كل ذنب ولم تحل أخاك على العتاب
تباعد من تباعد بعد قرب وصار بك الزمان إلى
اجتناب²⁶⁴

وأما عبد الله من أبي حسان اليحصبي²⁶⁵ فرأيته يخالف سابق فهو يدعو إلى عدم العفو
والتسامح لأنه مفسدة وعقوبة المذنب لصلاحه، ولأن يلدغ المؤمن من حجر مرتين:

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته
صلاحه²⁶⁶

ومن النصوص التي تشمل على كثير من الآداب الدينية من مثل إيثار الصمت والدعوة
إلى القناعة هذه الأبيات لأبي بكر بن سعدون الجزيري:

سجن اللسان هو السلامة للفتى من كل نازلة لها استئصال
إن اللسان إذا حلت عقاله ألقاك في شنعاء ليس تقال
وأنشد:

الخير أجمع في السكوت وفي ملازمة البيوت
فإذا تهيباً ذا وذا فاقنع إذن بأقل
قوت²⁶⁷

²⁶³ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ص 258.

²⁶⁴ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 8

²⁶⁵ - تفقه من مالك مباشرة، مولده سنة أربعين ومائة، توفي سنة سبع وقيل ليس وعشرين ومائتين وقال ابن سحنون مات وهو ابن سبع وثمانين سنة
ينظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 2 ص 480، 485، العربي دحو، الشعر المغربي، ص 169، تراجم أغلبية ص 767.

²⁶⁶ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ص 74، و ترتيب المدارك ج 2 ص 483.

وهناك أشعار أخرى للزهاد تصور طبائع الناس، ومنها شعر القطان يقول:

لا تظمنن فإن الناس قد حالوا واقبض لسانك عما قلت أو قالوا
واحذر زمانك إذا أحدثت عن زمن نادي النصيحة أما ملت أو مالوا
وبك الدماء على ما فات من زمن بادي أعلى الفضائح أدابه أفضال
واقنع بجلوسك إذا تقبل نصيحتنا أو تصمتن فما بعينك
تسال²⁶⁸

ومن صور الصداقة والوفاء أو الجود والإنكار يقول أبو العرب محمد بن تميم:

إذا انقطع الصديق لغير عذر فزاد الله خلتة انقطاعا
إلى يوم التئاد بلا رجوع فإن رام الرجوع فلا استطاعا
إذا ولي أخوك قفاك عنك قول قفاك عنه وزده باعا
ونادوا وراءه يا رب تمم ولا تجعل لفرقتة اجتماعا²⁶⁹

ومن صور تغير السلوك بعد الغنى و قطع علاقات التواصل والود بعد الفقر، يقول أحمد

بن أبي سليمان:

وإذا كان الفتى عني غنيا فليست إليه محتاجا فقيرا
وأوصله إذا يبغى وصاليا وأمنحته إذا قطع الدبورا
وليس من الجميل يرى كبير يتابع مدبرا حادثا
صغيرا²⁷⁰

ومن الخواطر المتعلقة بالإخوان قول أبي عقاب:

لئن عرف الإخوان عني نزاهة وخلفني عنهم يصبني من الفقر
لقد سرني أني خلي من الذي أضاعوه من حقي ولو كنت في الأسر
ولو كنت في الدنيا على مثل حالهم أبحتهموا رحلي وعدت إلى طمري
فما لي إلى خلق سوى الله حاجة ولكنه شيء تجاذبه فكري
على الدنيا إذا ما تعذرت وأدثر الموجود منها على الضر

²⁶⁷ - المالكي، رياض النفوس، ص 417.

²⁶⁸ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 3 ص 327، 328.

²⁶⁹ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 310، 311.

²⁷⁰ - المالكي، رياض النفوس، ج 1 ص 512.

سأرعى لهم ما هان من عليهمو وأجمل نفسي في الجفاء على الصبر
عليهم سلام الله مني رسالة مقسمة بين التواصل والهجر
فما ألفه الآلاف إلا تشاغل عن الجد والتشمير في النهي والأمر
رضيت بوصل الله عن كل قاطع صال الإخاء فما ينوب من الدهر
وأيقنت أن المنع من فيض جوده وفضلا لأهل القرب باح به شكري
بلا عوض منها إلى النفس راجع على بجاه في الأمام قدر
فقتت على صول الزمان مفكرا بأربعة أنبت فيها على الصبر
فقل لحصون العرب طرا من بها أبحتكم حظي من البر و
البحر²⁷¹

وحين نقرأ هذا الشعر نظن أن أبا عقال على قدر من السلوك الإسلامي الرفيع في نشدانه المثالية في العلاقات الاجتماعية، والمثالية في التفرغ للعبادة :

فمن دام دمت له الوفاء وزايدته أبدا ما استزادا
ومن تاه تهت يمين لا يدل به من أعز ولا من أسادا

يقول عبد الرحيم بن عبد ربه الربيعي الزاهد: "زيادة الأخوان نقص من العمل: قال بعضهم: يريد أن يقطع عما فيه الإنسان من عمل"²⁷².

ويقول سابق محذرا من الأصدقاء الذين يظهرون الود ويضمرون البغض داعيا إلى الترتيب في النظر إلى الأمور وعدم الأخذ بظواهرها بل يجب تقصى بواطنها قبل كل شيء:

أرربما صار البغيض مصافيا وحال عن العهد الصديق المثانف
فلا تغتر ما عشت من متجمل بظاهرة ود، قد تعطى
البطائن²⁷³

وروى له مما أنشده أبو الفضل الرياشي قصيدة²⁷⁴ يرى فيها أن الصديق إن لم يكن منصفا في الود الأجدى به استبداله، وفي جود الأبناء لأبيهم يقول أحمد بن نصر:

²⁷¹ - المالكي، رياض النفوس، ج 1 ص 542.

²⁷² - القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 163.

²⁷³ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 18

²⁷⁴، إن كنت متخذا خليلا*فتوق وانتقد الخيلا، من لم يكن لك منصفا*في الود فابغ بدبلا، وعليك نفسك فارعا*واكسب لها عملا جميلا، ومن استخف بنفسه*ورعت قالا وقبلا، وأقل ما تجد النيم*عليك إلا مستطيلا، والمرء إن عرف الخيل*وجدته يأتي جميلا.

إذا احتاج البنون إلى أبيهم أتوا بالبر والفضل الجزيل
وإذا احتاج والدهم إليهم يعايش الهم في الليل الطويل
فأحسن والد لم يعط شيئاً وعاش بماله حتى
الرحيلاً²⁷⁵

وفي ترفع النفس عن مصاحبة الأغنياء من أجل المصلحة والزهد فيهم يقول سعيد بن
الحداد:

ويبصرني إذا ذو المال يزهي بما يحوي من المال الجزيل
أراه كأن عيني لا تراه وأعرض عنه إعراض
الملول²⁷⁶

وفي أبيات أخرى يصور ترفع نفسه عن دني المكاسب، وعن كل الدنيا والصغائر و
تخطى المصاعب والهموم بكل همة وإرادة وقوة:

رغبت نفسي عن دني المكاسب وما أعجزتني حيله عن مطالبي
أبت همتي إلا سموا إلى العلى وإن طأطأتني حادثات النوائب
فلم أنل دنيا قد نلت همه تنزه نفسي عن دني
المعائب²⁷⁷

وفي ذم الرياء، يقول محمد بن عسكر²⁷⁸:

إذا أقبلت قلت صباح أقبلا وإن أدبرت قلت ليل أظلما
جارية تيمت المتيما يحكي شعاع الشمس منها
المسما²⁷⁹

وفي اشتغال الناس بتعقب أخبار الآخرين وبمساوئهم ونسيانهم لعيوبهم يقول:

يمنعني من عيب غيري الذي أعلمه في من العيب
عيبى لهم بالظن مني لهم ولست من عيبى في ريب

²⁷⁵ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 185.

²⁷⁶ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 98.

²⁷⁷ - المصدر نفسه، ص 98.

²⁷⁸ - شاعر متصرف، لم ترد أية أخبار عنه.

²⁷⁹ - المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 270.

إذا كان عيبي غاب عنهم
فقد أحصى ذنوبي عالم
الغيب²⁸⁰

وفي المراء ومدافعة الحق يقول:
لا يدفعن لجوجا حين تزجر
واعضني في حسن عفو من بواده
إن اللجوج له في الدفع إغراء
فالحمر عن الآفات
إغناء²⁸¹

و ينصح سابق في شعره بالترام بعض الآداب:

تعاون على الخيرات تظفر ولا تكن
على الإثم والعدوان مما يعاون
وداهن إذا ما خفت يوما مسلطا
عليك ولا يحتال من لا يداهن
ولاتك ذا لونين بيدي بشاشة
وفي صدره ضب من الغل
كامن²⁸²

وفي معاملة الناس بالحسنى وعدم أخذهم بالصدر:

فلا تحفرن بيرا تريد أبا بها
فاتك فيها أنت من دونه تقع
كذلك الذي يبغي على الناس ظالما
تصبه على رغم عواقب ما
صنع²⁸³

إن الشاعر يعرج إلى المأثور ليستلهم بعض معانيه، فالأبيات مأخوذة من المأثور القائل:
من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، ومن الآداب التي تستحق التقدير تأديب الفتى في الصغر لأن
تأديبه في الكبر لن ينفعه، وقد سارت هذه الأبيات مسرى الأمثال:

قد ينفع الأدب الأبناء في صغر
وليس ينفعهم من بعد الأدب
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت
ولا يليقن ولو لينته
الخشب²⁸⁴

²⁸⁰، المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص 107.

²⁸¹ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 10

²⁸² - المرجع نفسه، ص 5

²⁸³ - نفسه، ص 18

²⁸⁴ - نفسه، ص 2

ويعبر سابق عن مكانة العلم في حياة الناس في كل الأزمان والأمصار، ودوره في تجلية ما خفي من الحقائق وهداية البشر في وصية لحسن بن سهل لابنه إبراهيم من الحسن:

العلم والحلم خلتان هما الخلق زين إذا ما اجتمعا
صنوان لا يتم حسنها إلا بجمع لذاك معا
كم من وضع سما به العلم والحلم فبالعلاء وارتفعوا
ومن رفيع البناء أضعهما أحمله من أضع
فاتضعا²⁸⁵

العلم والحلم إذا اجتمعا في الفتى رفعا إلى العلا، ويشبهه فضل الحلم والعلم في التخلص من الجاهل بنيران متأججة يخمدها الماء يقول:

لا يظهرن لذي جهل معاتبة فربما ضجت بالشيء أشياء
فالماء يخمد حر النار يطفئها وليس للجهل غير الحلم إطفاء²⁸⁶

وهذا أحمد بن أبي سليمان يقول: "يا طالب العلم: إذا طلبت العلم فاتخذ له قبل طلبه أدبا تستعين به على حمله ومن دأب العلم الحلم، والحلم كظم الغيظ، وأن يغلب حلمك وعلمك هواك إذا دعاك ما يشنيك"²⁸⁷، وأنظر إلى أبي سعيد سحنون وهو يصف العلم: "مثل العلم القليل، في الرجل الصالح مثل العين العذبة في الأرض العذبة، يزرع عليها صاحبها ما ينتفع به مثل العلم الكثير في الرجل الصالح مثل العين الخراصة في السبخة تهر في الليل والنهار ولا ينتفع بها، ويقول: من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه العلم بل يضره، وإنما العلم نور يضعه الله تعالى في القلوب فإذا عمل به نور الله قلبه، وإن لم يعمل به وأحب الدنيا، أعمى حب الدنيا عليه، ولم ينوره العلم"²⁸⁸، وله أبيات يصور فيها إعراض الجاهل عن العالم:

لمنزلة الفقيه من السفية كمنزلة السفية من الفقيه
فهذا زاهد في رأي هذا وهذا فیه أزهده منه
فيه²⁸⁹

²⁸⁵، عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 19

²⁸⁶ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 10

²⁸⁷ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ص 276.

²⁸⁸ - المصدر نفسه، ص 128، 129، وترتيب المدارك 2 ص 620.

²⁸⁹ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ص 128، 129، وترتيب المدارك 2 ص 620.

وإليك بعض المقتطفات من القصيدة التي قالها الإمام أفلح بن عبد الوهاب²⁹⁰ في العلم ويشترط فيه لكي يكون نافعا ينبغي أن يكون خالصا لله تعالى:

العلم أبقى لأهل العلم أثارا يريـك أشخاصهم روحا وأبكارا
حتى وإن مات ذو علم، وذو ورع ما مات عبد قضي من أوطارا
ومن عابد سنة لله مجتهدا صام النهار وأحيا الليل أسهرا
تعسا لكل مرء غير مقتصد وقد تقلد آثاما، وأوزارا
يصطاد بالعلم أموال العباد كما يصطاد مقتنص بالباز أطيارا²⁹¹
خير العباد عباد الله إن له نطفـا خفيا يرد العسر أيسارا
سبحاته صمد لا شيء يشبهه أقررت لله بالتوحيد أقرارا²⁹²

ويقول سابق عن أثر الذكر والعلم في تغيير الذات:

والذكر فيه حياة للقلوب كما يحيي البلاد إذا ما تمت المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلى سواد الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلبا قاسيا أبدا وهل يلين لقلب الواعظ الحجر
ولا أرى أثر للذكر في خلدي والحبل في الحجر القاسي له أثر²⁹³

الشاعر يطلب العون من العلم والذكر على الزمن وطوارقه رغم بعد مناله إلا أنه غير مستحيل، فعادة يلتمس الإنسان الطريق ليلا من شيء سماوي ألا وهو القمر، ويحصل عليه فيهتدي إلى سبيله بنوره الذي يسود على الظلمة التي أوجدها الليل أو نقول يهتدي إلى سبيله بنور القمر الذي يرمز إلى الشيب الذي يسود على الظلمة التي ترمز سواد الشعر الذي أوجده الشباب وبالتالي يستطيع هذا الشخص أن يغير حالته الأولى إلى الأفضل لأن:

كل شيء له حال تغيره كما تغير لـو اللمة

²⁹⁰، ثالث أمراء الدولة الرسمية بتهيرت بالجزائر، يشهد له بالعدل والورع والتقوى، مولده 208توفاته سنة 258 حسب ماورد في ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين القرن الثالث الهجري، تحقيق وتعليق محمد بن إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص57، 69، وينظر العربي دحو الشعر المغربي، ص207.

²⁹¹ ولابن المبارك بيت شبيه بهذا البيت: يا جاعل العلم له باني* يصطاد أموال المساكين، ينظر ابن الجوزي، صفة الصفة، الطبعة الأولى، بحيدر اباد بالهند سنة 1355هـ، ج4، ص116.

²⁹² بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية ط1، 1985، ص360، 361، والعربي دحو، الشعر المغربي ص207، 208.

²⁹³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

وقد أنشد له المبرد في الكامل هذا البيت:

وإن جـاءك مالا تستطعان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا²⁹⁵

وهو يدور حول سلوك أخلاقي كثير ما دعا إليه الزهاد وللتحلي به. وهذا الصواف

يقول:

سأبـس للصبـر ثوبا جميلا وأفتـل للصبـر حبالا طويلا

وأصبـر بالرغـم لا بالرضى أخلص نفسي قليلا

قليلا²⁹⁶

دلالة اللباس والفنل تشير إلى أن الصبر ليس صفة متأصلة في الذات وإنما يتم اكتسابها بالمحاولة والمجاهدة الطويلة للنفس وترويضها بالإكراه فهي لا ترضى ولا تأبى أن تصبر على الدنيا وحوادثها، وما هذا الإكراه إلا لتخليصها من حبها شيئا فشيئا حتى يطفو نار حبها من قلبه فيعتاد ويألف آذاها من بعد كما قال سعيد بن الحداد لحماس القاضي:

تعودت مس الضر حتى أفته وأسلمني مس الليالي إلى الصبر

ووطن قلبي للأذى الأذى بالآذى وقد كنت أحيانا يضيق به صدري

وصيرني يأسى من الناس راجيا لكثرة صنع الله من حيث لا

أدري²⁹⁷

إن خير دواء يصفه أبرع طبيب لتهدة الذات المتوجسة المفجوعة الحائرة هي الصبر

على الدنيا وتقلبها:

واصبر على القدر المجلوب وأرض به وإن أتاك مالا لا تشتهي

القدر²⁹⁸

²⁹⁴ - المصدر نفسه ، ص 7

²⁹⁵ - المصدر نفسه ، ص 5

²⁹⁶ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3، ص243، وتراجم أغلبية، ص273، والعربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

²⁹⁷ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ص 362، والعربي دحو، الشعر المغربي، ص178.

²⁹⁸ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ص 6

فالصبر يؤمن للإنسان الراحة والطمأنينة وبالتالي الرضا بقدره ولو لم يعجبه يجعله ينعم بالاستقرار النفسي، ومن السلوكيات الاجتماعية التي يجب على المرء أن يتفادها التزيد في رواية الحديث النبوي الشريف، يقول بكر بن حماد:

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم
فمنهم شقي وخائب
وسعيد²⁹⁹

فلو كان خيرا قل كالخير كله
وأحسب أن الخير منه
بعيد³⁰⁰

إن هذا العمل المشين دفعه وجعله يرى أن الخير في الدنيا قليل، لذا يجب على كل فرد منا أن يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر وإتباع الهوى شر من الشرور:

وهجر الهوى للمرء فاعلم سعادة
وطول الهوى رين على القلب رائن
فكن دافنا للخير بالخير تسترح
ومن الشر فالخير للشر
دافن³⁰¹

لعل ما ورد من أبيات متفرقة لسابق هنا وهناك مما قاله في الحكمة والموعظة والأدب والأخلاق ما يشير إلى ريادته في هذا الميدان، ولربما يمكننا القول أنه من الشعراء الأوائل الذين رسخوا موضوع الزهد في الأدب العربي مغربه ومشرقه قبل رائده أبي العتاهية، ولن ننهي الحديث إلا بأبيات متنوعة ترسم لنا صورة لسلوك الزهاد والنسك وحياتهم آنذاك، وإليكم أبو عقاب وهو يذكر أوصاف هارون الأندلسي واجتهاده في الطاعة ودوامه عليها:

قريـن الحـزن ذو هم يجول
أخو سهر إذا نام الغفول
دؤوم الكـد أو اه وإذا ما
تذكر ما توعده الجليل
عزوف النفس عن شهوات دار
تميل لها القلوب و ما تميل
قريـن العيـن بالإخوان صب
غزير الدمع سام وصول
سخي الكف ليس بما لديه
من الدنيا وإن جلت تخيل
رحيب الصدر ليس له إبخار
ولا أهل، ولا ولد يعول

²⁹⁹ البيت الأول يحث على التوكل والرضا، فالأحكام قد ثبتت فلا تبدل بعد ذلك ولا ننسخ بما كتب بها لكن يوجد فيها بتبديل بكسب الله ومصداقية.

³⁰⁰ رمضان شاوش، الدر الوقاد، ص75، والمالكي، رياض النفوس، ص2625.

³⁰¹ عيد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص5

فَعُولٌ مَا يَقُولُ وَكُلُّ أَمْرٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ فَهُوَ لَهُ عَمَلٌ
ذَكَى النَّفْسَ ذُو عَقْلٍ وَلَبَّ صَدُوقَ اللَّفْظِ يَفْهَمُ مَا يَقُولُ³⁰²

وفي التلوين حيث يتعرض الشاعر للبسط والقبض:

مَنَايَ وَتَسْوِيفِي بِنَفْسِي أَذْلَهَا وَأَعْمَلَهَا فِيمَا عَلَيْهَا بِمَالِهَا
تَمِيلُ إِلَى حِظِّ مِنَ الْقَوْتِ دَارِسٍ بَحِظِّ مِنَ الدَّارِ التِّي لَا انْقِضَالَهَا
كَأَنِّي لِلدُّنْيَا رَهِيْنٌ بِخُدْعَةٍ تَحَالَفَنِي يَوْمًا وَبِيبَقَى وَبِأَلِهَا
وَنَاشِئَةَ اللَّيْلِ التَّهْمَ يَقُومُهَا رِجَالُ أَضَاعَتِ فَرَشَهَا وَحِجَالِهَا
سَوَامِرُ أَسْدَالِ الظَّلَامِ ضَوَامِرٍ بَنِيْلٌ مِنَ الْأَقْتَارِ مِنْهَا مَنَالِهَا
وَلَا ذَنْتُ بِمَوْلَاهَا بِصَائِرِ فِكْرَهَا فَانْعَشَهَا رُوحَ الْحَيَاةِ وَعَالِهَا
فَلَمَّا رَأَى مِنْ أَثْرَتِهِ بِحِبِّهَا دَاوَمَ الْأَسَى مِنْهَا عَلَيْهَا رَثَى لَهَا
فَعَفَى مَرَاقِيَهَا وَأَوْطَى سَهْوِهَا وَحَطَّتْ عَلَيْهِ بِالْوُجُودِ رِجَالِهَا
نَعِيمَ ذُو الْأَلْبَابِ بِرَهَانِ صَدَقِهِمْ وَلى حَالَةً لَمْ يَنْعَمِ الْكِتَابُ بِأَلِهَا
كَأَنِّي وَنَفْسِي بَيْنَ حَرْبٍ وَهَدَنَةٍ إِذَا سَاعَدَنِي هَذَا السَّهَادِ بَدَا لَهَا
وَإِذَا ذَادَ لِلْوَوردِ حَادِي وَعَيْدِهَا أَشَارَ إِلَيْهَا ضَدَّهُ فَأَزَالَهَا
يَخَالِفَنِي فِي كُلِّ أَمْرٍ أَرِيدُهُ وَتَقَطَّعَ مِنِّي بِالْيَمِينِ شِمَالِهَا
فَمَنْ لِي بِنَفْسِي لَا تَزَالُ غُوبِيَةً تَسَاعَدُ شَيْطَانًا يَرِيدُ ضَلَالِهَا
فَلَوْ كَانَ لِي التَّخْيِيرُ فِي بَدْءِ خُلُقْتِي تَعَوَّذْتُ مِنْ نَفْسِي فَلَمْ أَرِ حَالِهَا
وَكَنتُ كَمَنْ لَمْ يَبْدَعْ اللهُ وَخُلِقَهُ فَلَا عِلَّةَ آسَى عَلَيْهَا وَلَا لَهَا
وَلَا كَنتُ فِي الدَّارَيْنِ حَرًا مَدْلَا لَنْغِصَ ذَكَرَ الْمَوْتِ وَعِنْدِي دَلَالِهَا
فَلَا كَانَتْ وَلَا كَنتُ قَبْلَهَا فَمَالِي وَمَا لِلْعَيْشِ فِيهَا وَمَا لَهَا³⁰³

وفي الوجد:

دَعَاهُ مِنَ الْأَوْطَانِ شَوْقٌ مَبْرَحٍ فَجَادَ عَلَيْهِ دَمْعُهُ وَهُوَ قَاطِرٌ
عَلَيْهِ لِكَتْمَانِ الْمُوْدَةِ شَاهِدٍ مِنَ الْوُجْدِ بِيَدِي مَا تَجَنُّ الضَّمَائِرِ

³⁰² - المالكي، لرياض النفس، ج 1، ص 544.

³⁰³ - المالكي، رياض النفس، ج 2، ص 543.

عزوف عن الآمال بين ضلوعه وبين الحشا لوعة الحسب باند
ألا فعلى الدنيا عفاء يشوبه طلاقي لها ما ساعا بين البصائر
فإن أقبلت يوما علي بودها فإني كما تولى من البر كافر
لعمرك ماضي الدنيا شيء أريده سوى أنها نزل وأني مسافر³⁰⁴

وفي الرياضة النفسية مقطوعة تختصر مجاهداته من هجر الوطن إلى الحرم وصيام
النهار وقيام الليل:

ليت شعري ما الذي عانيته بعد دوم الصوم مع نفي الوسن
مع تروح النفس عن أوطانها من نعيم وحميم وسكن
يا وحيداً لى من وجدي به لوعة تمنعني من أن أجن
فكما تبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليها من
الحزن³⁰⁵

وفي غزارة الدمع رهبة من الله وخوفا منه يقول أبو الفضل مولى نجم:
ألا يا عين ويحك فاسعديني بسكب الدمع في ظلم الليالي
لعمرك في القيامة أن تفوزي بخير الفوز في تلك
العلالي³⁰⁶

إن كل ما مر بنا من شعر يمثل ضرباً من ضروب فكر الزهاد الجديد في تأملاتهم
الإيمانية وسبحاتهم الروحية، وهو يكشف عن معاناة معرفية وجودية دينية حقيقية، وأصالة
وعمق مغربيين بحيث يتراءى لنا جلياً مدى تواصل الإنسان المغربي بواقعه المعيشي وتكيفه
مع زمانه حيث أتى زهدهم يحث على معالي الأمور، ويفهم أصحابه الكلمة المسموعة والمؤثرة
والنافذة إلى أعماق النفوس البشرية لهذا كانت تشدو بأشعارهم الألسن لتقواهم ولبساطتهم في
الاعتقاد والسلوك، فالشاعر المغربي حينما يتأمل الكون والحياة ويرخي لشاعريته زماماً فتطلق
الأشعار من ذاته موحية بالإيمان والأمل والألم والعذاب راسمة بطريقة إيحائية أو بواسطة
الكلمات رؤاهم بحس وجداني يلفه الحزن ويسوقه العذاب، ويقوده الإيمان بالله سبحانه وتعالى،

³⁰⁴ - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص545، والعربي دحو، الشعر المغربي، ص206.

³⁰⁵ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص155.

³⁰⁶ - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص243.

وبمصير الإنسان في هذه الفانية، فهو يحاول التطلع إلى معارج النور والتخلص من معاني
النقص والتوسل بالحكمة والمعرفة لتوجيه العواطف نحو ما هو أنبل وأحق وأرحم ، وهذه
المعاني والاتصاف بها جعلت من هذا الشعر وشعرائه رقعة أرجوانية تزين الحياة الدينية
والفكرية والأدبية في المغرب القديم ، وتميز مجتمعه بهذه المحافظة الدينية الزائدة عن اللزوم
في بعض الأحيان.

الفصل الثاني

مصادر المعجم الشعري ومحاور دلالاته الفنية

أولا - مصادر المعجم الشعري:

إن تاريخ أي شعرية لن يكون إلا تاريخا لغويا في أساسه، ثم يكون تاريخا لأسس أخرى التي لا يمكن بدورها أن تحقق وجودها بمعزل عن اللغة أيضا، ومن ثم فلا يمكن الوصول إلى جوهر أي شعرية وقوامها الفني واتجاهها الفكري والروحي دون الكشف عن طبيعة اللغة المشكلة لهذه المدونة الشعرية أو تلك، ودرج النقاد على استخدام مصطلحي المصدر والمعجم، ولا يخفى بأن إبراز المصادر الأساسية للمعجم الشعري في المدونة يكشف عن العلاقة بين نصوصها الشعرية وبين تلك النصوص الغائبة، ومدى التفاعل بينها ليتسنى من خلالها استجلاء ملامح أصالة الشعراء وتفردهم، أو تكرارهم لأعمال غيرهم؛ ويمكن حصرها في القرآن الكريم والتراث العربي.

1- القرآن الكريم:

بعد اطلاعي على نصوص المدونة تبين لي أن القرآن الكريم من المنابع الأساسية التي مدت الشعراء بقاموس شعري متميز، وهو يكشف عن انتماء أصحابه العقيدي واتجاههم الروحي.

ومن الألفاظ التي يكثر تواترها في هذه الأشعار ما يتعلق بالذكر والدعاء والعبادات وقصص الأنبياء بالإضافة إلى الأمم الغابرة، ومن هذه النماذج التي تتناصت مع القرآن.

قول أحمد بن أبي سليمان:

أرى الدنيا تغيرها الليالي	وأياما مؤلفة شهورا
أرى بما يجيء بكل خير	ويوما بالحوادث مستطيرا
كذا أحوال دهرك، حال أمن	و حال تجزع البطل الجسورا
وكم ملك عظيم ذي اختيال	أعد خزاننا وبنى قصورا
وكان مداه ذا خطر عظيم	فصار مؤجلا أجلا قصيرا
ومن ذاك التملك والتعالي	وسكنى قصره، سكن الحقيرا
وأضجع في التراب بلا مهاد	يضيق اللحد منجدلا غفيرا
وكم من طالب للمال يسعى	ويركب في مطالبه البحور!؟!
فصار يود أن لو كان أضحى	على تفريق ما حوى قديرا

وعاد يود أن لو كان أمسى
وقد حبس اللسان فلا كلام
فإما مؤمن يرجو خلاصا
فويل للشقي إذا تردى
إلى نار تلظيها شديد
وطوبى للسعيد إذ حباه
وصار شرابه من سلسبيل
أراني وقد كبرت ورق عظمي
كأنني بالبكاء علي فاش
إلى دار البلي حملا سريعا
وخلوني بأعمالي فروحي
أجرني من عذابك وأعف عني
فإني قد كبرت ورق عظمي
وإني لم أزل أرجو عفوا
وليس بمالك منه نقيرا
وقد سمع الصياح المستطيرا
وإما كافر يصلى سعيرا
وصار إلى التي ساءت مصيرا
وتزفر في تغطيتها زفيرا
إله العرش في الفردوس حورا
وأنهار مفعرة خمورا
وصرت مخامر ضرا ضريرا
وقد حملوا بجثتي السريرا
وينصرفون عن قبري نفورا
على الحالات تنتظر النشورا
وكن لي منك يا أملي مجيرا
لجأت إلى فنائك مستجيرا
لأنك لم تزل ربا
غفورا³⁰⁷

³⁰⁷-العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص196-198.

نلاحظ تناسقا قويا للشعر مع القرآن الكريم ولاسيما سورة الإنسان، فروى الأبيات، يذكرنا بالراءات المفتوحة في أواخر آيات السورة، وفي النص تأثر جلي بآياتها "إنا هديناه السبيل إما شاكرو وإما كفورا"³⁰⁸ و"عينا فيها تسمى سلسيلا"³⁰⁹ ، و"عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا"³¹⁰ وكلمة القافية "مستطيرا" هي آخر الآية السابقة من السورة.

ويجتمع تأثر الشاعر بسورة الإنسان وغيرها في آن واحد في البيت الخامس عشر ففيه يذكر تحلي أهل الجنة بالذهب والحريز، والتحلي بالذهب والحريز ورد في الآية 23 من سورة الحج والآية 23 من سورة فاطر.

والتحلي بالذهب والسندس والإستبرق، وهما من قبيل الحريز ورد في الآية 31 من سورة الكهف، وأن التحلي في سورة الإنسان إنما هو بالفضة والسندس والإستبرق، وبهذا التناسق لا نستطيع أن نلغي تأثر الشاعر بسورة الإنسان في هذا الموضع، فالشاعر استخدم الفعل حلي ماضيا مبني للمجهول، وجاء بالصيغة نفسها في سورة الإنسان في حين أنه يرد في آيات الكهف والحج وفاطر مضارعا مبني للمجهول، ثم إن كلمة حريز وردت مرة أخرى منصوبة في سورة الإنسان نهاية للآية 12، وهذا فضلا عن التأثير الواضح بسورة الإنسان في نواح عديدة من النص الشعري، ويمكننا أن نثبت مشاركتها لغيرها في أمر التحلي وإن وردت فيها الفضة لا الذهب حلية.

وقول الشاعر "ساعت مصيرا" هو اقتباس جلي، فالآيتان 97-115 من سورة النساء، والآية 6 من سورة الفتح تنتهي كلها هكذا: "وساعت مصيرا" وقوله "يصلى سعير" وعن النار: "تزفر في تغظيها زفيرا".

وهذا التناسق يذكرنا بالعديد من الآيات الكريمة في سور مختلفة، ولكن أقربها إليه، الآية 12 من سورة الفرقان: "إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا"، وقد ضمن محمد زرزور الفارسي شعره بآيات القرآن الكريم حيث يقول:

تهتكك الستر ذي البغي والفند وحصص الحق بعد الغي ولد

³⁰⁸ - سورة الإنسان، الآية 3.

³⁰⁹ - سورة الإنسان، الآية 18.

³¹⁰ - سورة الإنسان، الآية 6.

وفي الخلود نعيم غير منصرم — باق بقدرته، باق بلا أم³¹¹

كما نلاحظ بأن قوله "حصص الحق" مأخوذة من سورة يوسف الآية 51، أما قوله "لم يولد ولم يلد" مأخوذة من سورة الإخلاص الآية 3، ولا شيء يشبهه" إشارة إلى الآية 4 من نفس السورة كما يستحضر الصواف الآية الكريمة: "فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا"³¹² في الآيات التالية:

ولم أجزع وللأيام صرف يعود عسيرها سهلا يسيرا
ولم أفرح لأن لها انقلابا يعيد يسيرها صعبا
عسيرا³¹³

وهذا بكر بن حماد يأخذ ألفاظه من القرآن الكريم مستفيدا من دون ريب مما جاء في الآية الكريمة 23 "قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا" من سورة مريم في قوله:

فليت الخلق إذا خلقوا بواقي وليتك لم تكن يا بكر
شيئا³¹⁴

هناك إشارة إلى الآية 20 من سورة الحديد "واعلموا إنما الحياة الدنيا لعبا وزينة وتفاخرا" وفي قوله "بينما مرء المرءة في لهو ولعب" كما استفاد أيضا بآيتين من القرآن في هذه الآيات:

ما بالقلوب حياة بعد غفلتها والله سبحانه منها بمرصاد
أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن
حماد³¹⁵

³¹¹ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 141.

³¹² - سورة الإنشراح، الآية 5-6.

³¹³ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 196.

³¹⁴ - شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد، ص 88.

³¹⁵ - المصدر نفسه، ص 81.

فالببيت الأول إشارة إلى الآية 14 من سورة الفجر : "إن ربك بالمرصاد"، أما البيت الثاني إشارة إلى الآية 36 من سورة المؤمنين: "هيئات هيئات لما توعدون". ونجد ألفاظا كثيرة من القرآن الكريم أو من الدين الإسلامي، فهذه الآيات:

والله لـوردوا ولو نطقوا إذا لقالوا : التقى من أفضل الزاد³¹⁶

وكننا واقف منها على سفر وكننا ظاعن يحدو به الحادي³¹⁷

إشارة إلى الآية 196 من سورة البقرة: "فإن خير الزاد التقوى" والآية 80 من سورة النحل: "ولله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم".

وكذلك سابق الذي يبدو تأثيره بالآية الكريمة 78 من سورة النساء: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" في قوله:

الموت جسر لمن يمشي على قدم إلى الأمور التي تخشى وتنتظر

من كان في معقل للحرز أسلمه أو كان في خمر لم ينجه
الخمير³¹⁸

فهو يوضح أن الموت لا يغني منه شيء ولا تصده قوة ولا ينجو منه حريص ولا فرار، وإذا كانت الموت بهذه القوة وهذا الطغيان فمن العبث أن نعد له عدة الفرسان قصد النجاة منه، فهو لا يتوقف ولا يتعب، ورماحه نافذة قاتلة وسيفه لا ينبو، فلا جدوى من الإعداد لمواجهته لأن حتميته وسيادته أكيدة، فالموت ظاهرة كونية، وقانون أزلي طبيعي لا يتغير، و يدعو في نص آخر إلى التعاون :

تعاون على الخير تظفر ولا تكن على الإثم والعدوان ممن
يعاون³¹⁹

³¹⁶ - المصدر السابق، ص 80.

³¹⁷ - المصدر نفسه، ص 82.

³¹⁸ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

³¹⁹ - المصدر نفسه ، ص 8

واستعانت به بالآية الكريمة الثانية من سورة المائدة: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" واضحة في هذا البيت.

كما لا ننسى أخذهم من التراث الإسلامي بذكر ثمود وفرعون وعاد... لإيصال المعنى كما نجد ذلك في الآية 7-10، من سورة الفجر والبروج، الآية 17-18.

ونرى ارتكازهم أيضا على مجموعة من المعاني الدينية، والألفاظ المتعلقة بالعقيدة الإسلامية (الحساب، الذنب، الجنة، جهنم، النعيم، الحشر، أهوال القبر،...).

ويجوز لنا القول بأن القرآن الكريم كان له تأثيره الواضح وصداه في أسلوب الشعراء المغاربة شأنه في ذلك شأن غيرهم من الشعراء الذين جاءوا بعد الإسلام، ومما أرجحه أن الشعراء كانوا حافظين للقرآن ومتفهمين فيه، فقد امتازت بيئتهم بكثرة الفقهاء الذين أثروا في نفوس الناس وبخاصة أصحاب النزعة الزهدية بشكل واضح مما ولد لديهم حافزا دينيا قويا شد الإنسان إلى آخرته، وهذا يكفي للتدليل على تأثير القرآن في أساليبهم، ولا عجب في ذلك فقد كان القرآن تصويرا للنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها و ألمها وإيمانها ، كما كان تمثيلا للقيم السامية في الحياة، وفيه من صفاء الحكمة، وروحانية الفطرة، والحديث عن العقيدة والإفاضة في بيان الشرك والإيمان، والشر والخير، وما يوقظ الضمائر ويحرك العقول ويثير النفوس وفيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية والشرائع البائدة، والأديان السالفة، ما يجعله قوي التأثير في لغة الشعراء، وفي نفوس المتلقين .

2- المعجم الشعري القديم:

يعتبر المعجم الشعري القديم أحد المصادر الأساسية التي استعان بها الشعراء في إخراج قصائدهم الشعرية بعد القرآن الكريم، ويمكن القول بأن لهم إطلاع واسع على الموروث الشعري العربي، وأكثر من ذلك إعجاب الشديد بالمشاركة والجاهليين، واعتبارهم المثل الأعلى الذي يحتذى به، وينسج على منوالهم، ويظهر هذا التأثير بشكل واضح في المعجم الذي يرجع إلى المقدمات الطللية التي تعتبر مرآة صادقة تكشف عن مدى التأثير بألفاظ وأسلوب ما تعودنا من إبداعات شعر القدماء ، ومن ذا القبيل القصيدة التي مطلعها:

أرى البرق من نحو العذيب توقدا تغيب طورا لمعه وترددا³²⁰

³²⁰ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص194.

فقد جاءت على طريقة شعر القدماء في وقوفهم على الأطلال وحالتهم النفسية الموافقة لحالة الزهاد في محبتهم لخلق أجواء تستدعي منهم التذكر، والتأمل في الحاضر والمستقبل، وكل هذه الحالات تؤدي إلى مواقف انفعالية تصل بهم إلى حد البكاء والنحيب فيترجمونها إلى شعر رقيق يوصل تجربتهم في الزهد إلى قلوب المتلقين وضمائهم، وهذا ما نلاحظه في شعر أبي عقاب المقتفي لمنهج القدامى:

بلوت الزمان ودست البلاد ونافست في كل شيء عنادا
شربت المدام وسست القيان ورضت الجياد ورعت الشدادا

321

ونلاحظ بأن الشاعر مزج في هذا البيت بين وصفه لمجالس الخمر والسهر والتمتع وقطف اللذة (الصيد، التصعلك، التنافس في كل شيء) وهو يشير ضمناً إلى كبر سنه، ودنو أجله، ولكنه يرفض الاستسلام له، فهناك مرارة وحسرة شديدة تتضح من هذه الأبيات النابعة من عدم رضاه على حياته التي انغمست في اللهو والنشوة، ثم يأتي التخلص من هذه المقدمة الغزلية إلى الحكمة والتأمل والسير على طريقة الزاهدين، وهذا أحمد بن أبي سليمان وأبو العرب يتقاطعان في لغتهما الشعرية مع زهير بن أبي سلمى في قوله:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك
يسأم³²²

ولا تختلف لغة هذا البيت عن لغة هذا الشعر:

تركت تكاليف الحياة لأهلها وجانبتها طوعاً مجانبتي
الردى³²³

ولما صحا عمري ثمانين حجة هجرت تكاليف الحياة لما
فجا³²⁴

وأقصرت عن ذكر الصبي وهجرته وصرت فريداً لا أبالك
أوجد³²⁵

³²¹ - المصدر نفسه، ص 201.

³²² - الأصفهاني، الأغاني، ج 14، ص 213.

³²³ - العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص 193.

³²⁴ - المصدر نفسه، ص 195.

³²⁵ - المالكي رياض النفوس، ج 2، ص 311.

ويتبين لي كما قال أحد الدارسين: بأن "المغرب لم يكن من وراء أكبر صحارى العالم بمعزل عن المشرق، فلقد جراه في كل موضوع حتى في الشعر الروحي الزهدي منه والصوفي، ... وكم من مرة رأينا شاعرا مغربيا ينظر إلى شاعر مشرقى بعين الراغب فيما عنده صنيع أحمد بن سفيان مع النابغة الذبياني، وبكر بن حماد مع أبي العتاهية، وعلي بن محمد الأيادي مع البحتري"³²⁶.

وإذا كان التأمل في صنيع الزمن وما يتعلق به من ظواهر وأجرام طبيعية أمر معروف في الشعر العربي من فجره إلى يومنا هذا فإن بكر بن حماد في بانيته ربطها بنص عربي مشهور ذكره ابن قتيبة المعاصر لبكر، ونسبه إلى ملك اليمن مرة، وإلى أسقف نجران مرة أخرى، و مطلع هذا النص:

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا يمسى
وظلوعها بيضاء صافية وعزوفها صفراء كالورس³²⁷

فهذا المطلع وثيق الصلة لفظا ومعنى بببيت بكر:

فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها عليا يا
أخيا³²⁸

ويطول الحديث لو أتينا بذكر نظائر ألفاظ هذا الشعر ومعانيه التي عرضها بكر، وحسبنا نرى نماذج منها قيلت قبل عصر شاعرنا، وهذان البيتان الواردان في المعارف ما أكثر أشباههما في ديوان أبي العتاهية ومن ذلك:

هي الدار حادي الموت يحدو بأهلها إذا شقت شمس النهار وغربت³²⁹.
ولأبي العتاهية أيضا:

الليل يعمل والنهار ونحن عمّا يعملان بأغفل الغفلان³³⁰.
ولـه أيضا:

قل لليل والنهار اكرثائي وهما دائبان في استحثائي³³¹.

³²⁶ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص3.

³²⁷ - أبو محمد بن عبد الله بن مسلم، المعارف، دار الكتب المصرية، 1960، ص630.

³²⁸ - شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص88.

³²⁹ - ديوان أبو العتاهية، دار الكتب المصرية، ص52.

³³⁰ - المصدر نفسه، ص45.

والبيتان السابقان يشيران إلى صنيع الزمن بالإنسان مثل إشارة بكر بن حماد.
ولأبي العتاهية تصوير جميل للطبيعة الحتمية بين الموتى والأحياء على شاكلة: "زر
منازل قوم لا يزورونا":

أهل القبور ألا توصل بيننا من مات أصبح حبله رث القوي³³².

وقصيدته التي مطلعها:

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها أجساد³³³

وقد جاءت على طريقة الجاهلين في نسجهم للغة المقدمات الطللية؛ فهذا عامر الكتاني
يتقاطع مع الشاعر الإسلامي مالك بن الربيع في رثائه لنفسه، قبل الموت في قوله:

ألا ليت شعري ! هل أبيتن ليلة إليك انقطاعي ؟ وإني سعيد³³⁴.

والتقاطع ظاهر في الشطر الأول من البيت التالي:

ألا ليت شعري ! هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجي³³⁵

ولن ننسى سابق المظمطي، الذي لم يحافظ على بنية المقدمات، بل استأنس بما كان
موجودا وطوره بما يلائم البيئة والعصر والظروف والموضوع المعالج في القصيدة، فبدلا من
الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار والثناء عليها يفتح قصيدته الرائية بالبسملة والحمدلة،
مما يوضح لنا أن الشعراء اقتفوا آثار العرب، ولكنهم لم يتميزوا عنهم إلا نادرا.

ولو وصلتنا دواوين شعرية مغربية ترجع إلى فترة دراستنا لتوسعنا في مناقشة تأثر المغرب
بالمشرق تأثرا متمثلا في تقليد موضوعاتهم و أساليبهم أو أي تقاطع آخر، ولكن ما الحيلة أمام
ضياع أغلب دواوين الشعر المغربي في هذه الفترة كما ضاعت دواوين بعض شعراء المشرق
والأندلس على من أغلب الدارسين يؤكد على وفرة الشعر المغربي وجودته في هذه الفترة
"فليس بمصر والأندلس مثل ما للمغرب من شعر الوعيد القائم على المناقضة والشعر الروحي،
ولا سيما الصوفي منه، فبهذين اللونين يتميز الباقي من تراث المغرب الشعري"³³⁶.

³³¹ - المرجع السابق، ص 06.

³³² - نفسه، ص 16.

³³³ - نفسه، ص 9.

³³⁴ - القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 268.

³³⁵ - أبو زيد القرشي بن أبي طالب الخطاب، جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1963، ص 269.

³³⁶ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 3.

ثانيا - المعجم الشعري ومحاور دلالاته الفنية :

يمثل موقف الإنسان من الكون أو العكس أحد الملامح الأساسية التي شكلت الشعر العالمي وحددت حقول معجمه اللغوي، ويبدو بأن محاولات جعل هذا المعجم اللغوي تتحكم فيه معاني الرفض أو القبول أو الأمل أو اليأس أو الإقبال على الدنيا أو الزهد فيها أو أي معاني أخرى ما هو إلا تأكيد واضح لموقف الشعراء أنفسهم عن فهم علاقة الإنسان بالكون، وعلاقة الشعر باللغة، ويرجع هذا إلى أن طموح الإنسان يبدو وكأنه أكبر وأشمل وأعمق من قدراته العقلية والروحية واللسانية التعبيرية الفنية ، فهو يحاول استيعاب كل شيء وعندما يعجز في مهمته، وهذا شيء محتمل دائما لطبيعته البشرية الناقصة فإنه سرعان ما يلوم الكون نفسه ويتهمه بالخلل وفقدان المعنى والجدوى³³⁷، ولا خلل إلا في اللسان ، ولا معنى إلا في عجز العبارة ولا جدوى إلا في غياب الوسيلة الفنية .

وإذا وصل أي شاعر إلى حد التكيف مع الحياة بطريقة أو بأخرى فإنه يستطيع آنذاك أن يتكيف معها لغويا وفنيا، ويدرك معناها الخاص وحده من خلال اختياراته اللسانية وإمكاناتها الأسلوبية، ومن ثم ينجح في الوصول إلى درجة معينة من الانسجام مع الكون ، وهذا يدل على اكتشاف وسائل وحقائق تجعل ذاته وانفعالاته و جهازه العصبي في منتهى التناغم بعد أن استطاع التخلص من الصراعات والإحباطات على مستوى اكتشافه لما يزيل عليه غربته من أنساق دلالية لغوية ترمز لموقفه من كل تلك التجارب .

أما إذا لم يكن ثمة انسجام نفسي وروحي ولغوي ، فهو بالضرورة سيختار لغة العتاب واللوم والبكاء كما نلاحظ ذلك في بعض النماذج من شعر الزهاد والمجان التائبين كأبي عقاب و كأحمد بن سليمان الصواف:

لما تذكرها وقال ندامة من بعدها يا ليتني لم أفعل³³⁸

وعندما يتذمر الإنسان من شعوره بأن الكون كبير ومعقد وغامض، فإنه لا يستطيع إلا أن يختار لغة رافضة للواقع ومتعجبة من تقلبات الزمن، وهذا يدل على عدم الانسجام بين اختياره للغة الحياة كما هي ولغة الشعر يقول سعيد بن الحداد:

ما زلت من حادثات الدهر متعجبا حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة

³³⁷ - نبيل راغب، موسوعة الفكر العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص324.

³³⁸ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

لا بـارك الله في عام وفي سنة
كـانت لشر زمان كان مختبئه
عـادت أسافله طرا أعاليه
ولا أعالي إلا وهي منكفة³³⁹

إن اختيار لغة الاستغراب والتناقض ما هو إلا تعبير عن حالة نفسية شعرية عاشها هؤلاء الشعراء الذين لم يستوعبوا حقيقة زمانهم الذي طغى فيه الفاطميون بفكرهم وعقيدتهم ولغتهم وشعريتهم الشيعية، فأصبح كل شيء عندهم غريبا في عالمهم الداخلي المثقل بالمشاعر والتصورات والتأملات التي تمتد لتشمل الكون اللغوي الشعري كله.

وإذا حاولنا الوقوف على المعجم اللغوي لدى هؤلاء الشعراء نجده يدور حول حقل واحد هو الوجود الذي تتجاذبه حقيقتين بارزتين هما: الحياة والموت، وتتفرع عنهما فروع يصب كل منهما في محتوى واحد هو ذات الشاعر الحزينة.

ثانيا - معجم حقل دلالات الحياة أو (الدنيا):

لعل لغة معظم القصائد التي تدور حول الحياة ترتبط بالحقل الدلالي للزمن وتقلبه بين الصفاء والكدر وبين أيام الشباب والشيخوخة.

وتتشكل لغة النصوص الشعرية الزهدية من كل ما يجلي صور الحياة وتفاصيلها الدائرة في فلك الزمن على غرار لغة الفتوة والصبا ومظاهر الدعة والاطمئنان التي يتفرع عنها معجم يدور حول الإحساس بالقوة والقدرة؛ أو الضعف، يقول عيسى مسكين:

لعمري يا شبابي لو وجدتك
بما ملكت يمين لأرتجعتك
ولو جعلت لي الدنيا ثوابا
وما فيها عليك لما وهبتك³⁴⁰
وقال أيضا: ينشد الكمال الجسدي
لما كبرت أتتني كل داهية
وكل ما كان مني زائدا نقصا³⁴¹
ويقول أبو عقال:

لاح المشيب بلمتي فنعاني
ونفسي الصبا عني، وذم عاني
وناءت خطوب الحادثات بأسرتي
فبقيت منفردا من الأقران

³³⁹ - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص110.

³⁴⁰ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص175.

³⁴¹ - المصدر نفسه، ص175.

فأخدم من لسدي المنان
ولا قطعن علائقي من غيره
ولأنفين مطاعي، وملابسي
ولأهجرن أحبتي، و معارفي
فأخدم من لسدي المنان
ولا قطعن علائقي من غيره
ولأنفين مطاعي، وملابسي
ولأهجرن أحبتي، و معارفي

ولأقطعن عصابة المجان³⁴²

ويحشد الشاعر هنا قاموسا شعريا مداره معاني الصبا والقوة و الكمال الجسدي والشعري أو الكبر والضعف والجفاف الشعري، وهذا ما نلاحظه في شعر أبي عقاب الذي يشكل معجمه الشعري من كلمات تنتمي أغلبها إلى تحولات الحياة ومظاهرها المادية والمعنوية نحو: (المشيب، الصبا، خطوب، الحادثات، الأقران، الزمان، مطاعي، ملابسي، علائقي، أحبتي، معارفي، عصابة المجان، العباد،...) ويغلب عليها معنى اشتداد الخطوب على الإنسان و يزيد اللغة المعبرة عن ألمه العميق من خلال أساليب التأكيد (لأقطعن، لأهجرن، لأبكين،...).

وأما المعجم اللغوي لشعرية سابق وهو من رواد شعر الزهد فنراه في لغة رائيته لا يختلف عن النماذج السابقة يقول :

وكم من أصيد سامي، الطرف معتصب
يظل مفترش الديباج محتجبا
قد غادرته المنايا وهو مستلب
مجدل ترب الخدين منعفر³⁴³
بالتجاج نيرانه للحرب تستعر
عليه تبنى قباب الملك والحجر

فهو يشكل جغرافية لغته الشعرية من حقائق الحياة كما يراها وما يناقضها من أوهام أخرى مزيفة.

وتتحول لغة نكبات الزمن في شعر أحمد بن أبي سليمان الصواف إلى لغة التفاوض والمواجهة والتصدي والانتصار، وهذا ما نلاحظه في رسمه لصورة متفردة في الثناء على الشيب (إحدى النكبات المصاحبة للحياة)، وقد بث فيه السكينة والهدوء بعد توبته وبعد أن أصبح مستعدا في نهاية الطريق لتجاوز سلبيات الحياة وإيمانه العميق بعفو الله ورحمته:

دعيت معلما إذ صرت شيخا
لئمن كان المشيب أتى نذيرا
وأيام الشيبية كنت بورا
فإنني سوف أدعوه بشيرا

³⁴² - المصدر نفسه، ص 203.

³⁴³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

وهكذا تغرق لغة الشعراء في وصف الحياة بكونها سلسلة متصلة الحلقات يستحيل بذلك فصل الماضي عن الحاضر، لكن درجة هذا التأثير على الحاضر تختلف من شخص لآخر، بحيث كل مرحلة تصبح قوة دافعة تقف لغة الشعر عاجزة أمام تيار الزمن الذي يجرفها ويغرقها في عوالم الزهد التي لا نهاية له غير التجارب الشعرية، ويبدو ذلك واضحاً في النماذج السابقة وغيرها من أشعار المدونة.

وقد يرجع الهروب إلى الماضي ليتمكن الإنسان من التلاؤم مع واقعه الروحي، أي أنه إذا كان الماضي يطارد الإنسان في بعض الأحيان كما رأيناه في الأشعار السابقة فإن الإنسان قد يقوم بمطاردة الماضي والإمساك بتلابيبه نتيجة القلق الذي ينهشه من الداخل لأسبابه متعددة من خوف أو ضغط متزايد أو صراعات نفسية، وهذا ما حدث لأبي عقاب الذي تبوح لغة شعره بتلك المعاني:

بلوت الزمان ودست البلاء	ونافست في كل شيء عنادا
شربت المدام وست القيان ورضت	الجساد، ودعت الشدادا
أصيد الغزال وأم الرئال	بطرف أراه يجيد الطرادا
وصعلكت في البر والبحر دهرا	أخلف أهلي علي حدادا
أسوم البعاد، وأهوى اللذاز	وأظهر في الأرض مني فسادا
أروح على هذا وذاك	أديم السهاد، وأجفو المهادا
إلى أن تناهت حدود القضاء	وأنفذ سلطانه ما

أراداً³⁴⁵

ولعل المعجم اللغوي الذي يستمد ألفاظه من الحياة، والذي يغلب على بقية الألفاظ يعتبر مركز الثقل تتفرع منه بقية المشاعر، وهو معجم لا يمكن الوقوف عليه بعيداً عن حياة الشاعر، وكلما تخلل جسده الفتور والضعف بعد ذهاب الشباب وزواله نجد ألفاظه الشعرية تحمل في سياقاتها معاني الحركة والنبض على غرار (أصيد، أسوم، أهوى، أديم السهاد، أروح، نافست)، وأخرى فيها وهن وضعف (كبرت، بقيت، منفرداً، نفى الصبا، ما كان زائداً نقصاً...).

³⁴⁴ - العربي دحو الشعر المغربي، ص 199.

³⁴⁵ - المصدر السابق، ص 201-202.

ثالثا - معجم هاجس الموت ودلالاته:

إن الحياة الموجودة في بعض القصائد تبدو في بعضها الآخر ذليلة خافية ويحل محلها لفظ الموت، وهو يعد محورا تتفرع منه بقية فروع دلالات الألفاظ الأخرى، وهذا راجع إلى انتصار دلالات ألفاظ الموت على دلالات ألفاظ الحياة، و ما يتفرع من ألفاظ لها علاقة بالموت صريحة أو رمزية : (المنية، المرض، القبر، أهوال القبر، الحساب،...)، ويبدو أن انجذاب الشعراء إليها يجعلها تتواتر بنسبة عالية ، وهذا ما تمثله هذه المعادلة:

انجذاب شعرية الزهد نحو وعي هذه النتيجة: هشاشة الحياة قوة الموت ← انتصار الموت ⇔

إذا هذه المعادلة تعكس مدى الجو النفسي الذي تتحرك فيه لغة الشاعر الزاهد نتيجة لإحساسه الزائد الدائم بانتصار الموت على الحياة، وهذا ما نلاحظه في هذه النماذج، يقول عيسى بن مسكين:

أصاب الدهر عظم ساق به قد كنت مشاء جليدا
إلى الفقهاء أنقلها وأطوي بها للحاجة البليدا
إذا رجل الفتى يوما أصيبت وطال سقامه ألف القودا
وصار لبيته جلسا وأمسى من الأخوان منفردا
وحيدا³⁴⁶

والدلالات المباشرة وغير المباشرة والقريبة والبعيدة لألفاظ هذا النص (أصيبت، عظم الساق، سقامه، منفردا، وحيدا...) تشترك كلها وتتقاسمها انتظار الموت، وهذه الدلالات بمثابة جداول نابغة من نفس مؤمنة بهذه النتيجة على الرغم من مأساويتها ورهبتها.

ونصوص أخرى تتوشح ألفاظها بوشاح الحزن ، وتبدي المقابل الآخر من أحاسيس القلب النابض بحب الحياة والشعور الجارف بالجمال الزائل ،بمقدم الشيب و إدبار الشباب، وزوال المتعة وحلول الألم؛ يقول أحمد الصواف:

أرى البرق من نحو العذيب توقدا تغيب طورا لمعه وترددا
أفق أيها الباكي المسائل منزلا تشتت من أهله فتبددا

³⁴⁶ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص175.

كفى عجباً أنا جهلناه ما خلا ملاعب ولدان ونؤيا وموقدا
ألفت به غيـداء إذا هي ناهد وإن كنت مرموق الزيارة أمر مدا
وكنت قريبا إذ دعنتي ابن عمها فلما دعنتي عمها كنت
مبعدا³⁴⁷

وفي بعض الأحيان لا يجد الشاعر سوى ألفاظ تدل على أحاسيس اليأس والحيرة والشجن تجتر شعريته، وتتمزق دلالتها بين معاني اليأس والأمل والرحمة، كما هو جلي في هذه الأبيات:

وقد حبس اللسان فلا كلام وقد سمع الصياح المستطيرا
وإما مؤمن يرجو خلاصا وإما كافر يصلى سعيرا
فطوبى لي للسعيد إذا حباه إله العرش في الفردوس حورا
وصار شرابه من سلسبيل وأنهار مفجـرة
خمورا³⁴⁸

وبين ألفاظ المتعة والألم المرادف للهوان والسأم والنحيب والندم والهواجس المبهمة في الليلي الحالكة، فليس هناك أبشع من رهبة المشيب والكبر وبشاعة الألم وذل الرضوخ له دون اقتناع، وهذا واضح في بيت بكر حين يرثي نفسه:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل قد جاعني ما ليس لي فيه حيل³⁴⁹

لقد أقعده الكبر فأصبح لا يستطيع النهوض، ولكأن في ذلك إنذار بدنو أجله، واقتراب الموت منه بخطى متسارعة، وهذه اللغة نلاحظها في قول أحمد بن أبي سليمان:

وخالط عيني العشا بعد حدة وصار لساني إن تكلم لجلجا
وفي أدني وقر، وظهري به، حنا وما أبتغي مما أنا فيه مخرجا³⁵⁰

إن معظم ألفاظ هذه النصوص تصب في وعاء الموت: (ضعف البصر، إنحاء الظهر، تقوسه، المشي بالعكازة، بالحبو كالجمل، صار بيته جلجا، طال سقامه منفرد،...)، وبالتالي يكاد

³⁴⁷ - المصدر نفسه، ص194.

³⁴⁸ - المصدر السابق، ص198.

³⁴⁹ - رمضان شاوش، الدر الوقاد، ص92.

³⁵⁰ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص195.

يكون الموت المعجم الشعري الذي يستقي منه شعراء الزهد ألفاظهم ولو قمنا بعملية إحصائية للمعجم الخاص بلفظ الموت وتطوره في شعر المدونة موازاة مع لفظ الحياة لتجلي التناقض بينهما، بحيث تنتهي النتيجة بانتصار الموت، وهذه النتيجة تفسر استغراقهم في لغة الحزن، ومن تضخم معجمهم من الألفاظ الدالة على الموت، ومن ثم فإن اللعبة اللغوية الشعرية تنتهي بانتصار معجم الموت على معجم الحياة، وهذا رمز مقنع لهذه الحقيقة بكون الواقع اللغوي معادل موضوعي للواقع الحياتي؛ كما أن اللفظة في ذاتها تحمل دلالة معجمية واحدة، وإذا دخلت في التركيب الشعري فإنها تحمل صوراً وظلالاً وإشعاعات جديدة، وهذا ناتج من كون الشاعر يمزجها بمشاعره الداخلية، فتخرج في لون جديد أكثر ثراءً، واللفظة تحمل مستوى معين من المعنى لأنها ليست الكلمات في النص الشعري مجرد تراص وإنما هي "لغة مصفاة مركزة، ويكون اللفظ هو الأوحد الذي يحمل طاقة من الفعالية"³⁵¹، وتحمل أحاسيس مكثفة تؤثر في الوجدان، وقد أكدت تجربة الإحساس بالموت والتفكير فيه "أن اللفظ في القصيدة يصبح جزء لا ينفصل عن فكر الشاعر وعاطفته ومعبراً عن أحاسيسه ومشاعره"³⁵².

وألفاظ الحقول الدالة على الكبر أو المرض تشتد عند الشعراء الزهد سواء من مأخوذة من الحياة التي أمام أعينهم أم من تخيلاتهم أم من أجواء روحانية نتيجة زهدهم، وكل ذلك ينعكس على تفكيرهم مما جعل ألفاظ شعرهم يكثر فيها ذكر الموت، والمنية، والصبر، والعتاب، والشكوى... الخ.

ونص عيسى بن مسكين وأحمد بن أبي سليمان وغيره من النصوص التي تصور الموت والمرض أو النكد التي لها قيمتها الدلالية من حيث انعكاسها على الصور المشكلة لعالمه الشعري، وهي من ناحية أخرى تكشف العمق النفسي كما تدل على الذبول والانطماس والذهول وهي من ناحية أخرى "إجهار عن صورة التوارى والغيمومة التي تعيشها الذات المهمشة"³⁵³.

إن ألفاظ الحقل الدلالي للموت المشكل للمعجم الشعري والذي يرتكز عليه الشعراء يمثل تجربة متميزة عند شعراء النزعة الزهدية، لذا فهو يحول الألفاظ لديهم من دلالتها الموضوعية الخارجية إلى دلالتها الذاتية الداخلية من خلال حياة وموت الآخرين، وهذا ما نراه جلي عند بكر بن حماد في مأساة فقده لابنه بحيث أصبحت حياة ابنه تعني حياته وموته يفقده معنى

³⁵¹ - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر، ط3، ص1984.

³⁵² - طلعت أبو العزم، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني، لدى الشاعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981، ص368.

³⁵³ - يوسف سامي ليوسف، الشعر العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980، ص76.

وجوده، وقد يأخذ اتجاهها آخر بحيث يصبح اقترابهم من الموت هو محاولة منهم التعود عليه بعد مرض أو كبر كما هو عند عيسى بن مسكين أو أبي عقال أو الصواف،... الخ.

إن بكر بن حماد يصف حاله بعد الغياب إنه في رقة وذنوبة تبعثان على الشفقة والرحمة، وفي تعبيره تدفق عاطفي، ولحن شجي على معاناة الفقد، وهو يصف أيضا ألفاظا دالة على الشقاء والتعاسة والألم بعد رحيل المحبوب، ومن ثم فقد تلونت كلمات شعره بهذه المعاني المعبرة عن المأساة والفقد بالإضافة إلى نغمة موسيقية شعرية حزينة، وإيقاع متوتر باك.

لقد زواج الشاعر بين لغة الزهد ولغة الرثاء، وفعل ذلك بطريقة رصينة جعلها تتوشح بالحزن، وتعكس هول الموقف ومع ذلك لم يبتعد أسلوبه عن الإحكام ومنطق الشعر في توشي عمق التجربة وامتدادها بحيث كان شعره جامعا لكل الصفات، وممتدا حتى أصبح الكون كله ظلام دامس لا ينجلي، و يلف البسيطة ويلغي أنوارها.

وقد نرى الشعراء وهم يحاولون هز المتلقي من الداخل تماما ومنحه نوعا من الإثارة التي يفتقدها في حياته اليومية العادية، وذلك بإثارة الخوف والرعب من خلال لغة رمزية شفافة توحى بمناظر الظلام في القبر والصرخات والعيول، والنحيب، وذكر أهوال القبر والحساب، يقول سابق في قصيدته الرائية:

و المرء يصعد ريعان الشباب به	وكل مصعدة يوما ستندحر
بيننا يرى الغصن لدنا في أرومته	ريان صار حطاما جوفه نحر
وبينما المرء أمسى ناعما جدلا	في أهله معجبا بالعيش ذا أنق
غرا أتيج له من حينه غرض	فما تلبث حتى مات كالصعق
تمت أضحي ضحي من غب ثالثة	مقتعا غير ذي روح ولا رمق
يبكى عليه وأدنوه لمظلمة	يعلى جوانبها بالتراب

والقلق³⁵⁴

وفي تصوير لحظة قطف الموت للحياة في ريعان الشباب تعبير عن هول الصدمة التي أذهلت الشاعر حين يهاجم الموت الأصحاء والشباب، فكانت الدهشة مرادفة للحيرة والعجز عن تفسير الحدث وتبريره، ولكنها حقيقة لا مفر من التسليم بها فهي تذكرنا بنفسها كل لحظة، ولكن

354 - - عبد الله كنون ، سابق الربري شاعر من المغرب ، ص 11

المغزى من الاندهاش أو الحيرة أمام لغز السقوط الفجائي للأحياء في عنفوان الشباب والنجاح يبقى دون تفسير مقنع أو مبرر مقبول أو دون فهم للحكمة المخفية وراءه.

رابعاً – معجم شعر الزهد ومبدأ الصياغة اللغوية العامة:

إن العلاقة بين المعجم الشعري ومبدأ الصياغة اللغوية العامة هي علاقة جدلية بحيث تتحدد حرية اختيار أي معجم شعري بالفلسفة الجمالية للصياغة الفنية التي يؤمن بها الشعراء، وسنختار الأفعال بكونها صنفاً لغوياً ثقیلاً الدلالة، ويطغى على غيره من الأصناف اللغوية، ويعكس البعد الدرامي لشعر الزهد، ومن ثم فقد اعتمد الشعراء في تصوير الحركة وتجسيد الزمن على الأفعال، كما نلاحظ في هذا النص:

أيام من يرى الرشد في غيه	ويخيط في الداجيات القتادا
تجاف بنفسك عن حنقها	وخذ لأمانك منك القيادا
أجب داعي الله لا تعصه	فقد جاد بالنصح جهرا ونادى
ولا تله بالموبقات التي	أبادت بوائقها من تهادى
بلوت الزمان ودست البلاد	و نأفست في كل شيء عنادا
شربت المدام وسست القيان	و رضيت الجياد، ورعت الشدادا
أصيد الغزال وأم الرئال	بطرف أراه يجيد الطرادا
وصعلكت في البر والبحر دهرا	أخلف أهلي على حدادا
أسوم البعاد، وأهوى اللذائ	وأظهر في الأرضي منى الفساد!
فألزمت نفسي مدى صبرها	وخالفتها في هواها عنادا
وبانيت ما كنت ألهو به	فأمسى وأصبح عندي

سهادا³⁵⁵

وهكذا نجد هذا الشعر يعج بالأفعال التي تصور حال الشاعر أيام الشباب وبعد توبته، فتشيع فيه جوا من الحركة والنشاط (شربت، صعلكت أصيد، فافست،...)، وكذا الرغبة والرغبة في (ألهو-بانيت ما كنت-خالفت هواها-أصبح سهاد).

³⁵⁵ - العربي دحو، الشعر المغربي، 200-202.

ونجد أيضا أفعال النص وكلماته تصور ذنوبه المتراكمة (الغي، الموبقات، الفساد، تجاف، أجب، خذ، لا تعقبه لاتله، يخبط،...).

هذه الذنوب التي يعترف بها والندم والحسرة يعتصرانه حينما اكتشف في نهاية حياته بأن عمره ضاع حيث تاه وضل في حياة لاهية عابثة، ويا لها من صحوة زلزلت كيانه فراح يردد ما كان فيه من لهو، ودلالة هذه الصورة هي تشخيص للذنوب وتضخيمها والتهويل من شأنها.

إن هذه التموجات والانفعالات الوجدانية تشكل حركة نفسية عارمة تتضح بالحسرة والندم، ويتوق صاحبها إلى الرضى والمغفرة ويعترف بكثرة الذنوب، ولكنه في قرارة نفسه يعلم أن الله رحمة أعظم وأكبر وأشمل من كل ذلك، وقد ينطبق هذا أيضا على نص آخر لسابق :

فكم من صحيح بات للموت آما	أنته المنايا بغتة بعدما هجع
فلم يستطيع إذ جاءه الموت بغتة	فرارا و لا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقتعا	ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيله	وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموت الغني لماله	ولا معدوما في المال ذا حاجة

يدع³⁵⁶

تأتي الأفعال في النص لتجسد السكون والحركة. فالأفعال (باب، هجع، لم يستطيع الفرار، امتنع، رفع،...) الخاصة بالإنسان تجسيد لسكونه.

هذا السكون يصور لنا في (بات، هجع) اطمئنانه للعالم، أما في (لم يستطيع، امتنع) فيشير إلى محاولته التحرك لمقاومة الموت الذي جاءه، لكنه يفشل في ذلك فينتصر عليه، فهو (لا يترك، لا يدع)، ثم تأتي الأفعال (فارق، ما جمع) لتدل على أنه سكونه هذه المرة كان رغما عنه، ويشير ضمنا إلى أنه كان يتحرك في السابق سعيا وراء المال والدنيا فيأتي الموت فيسكنه ويسكته عن تلك الحركة بمفارقتة الدنيا، أما الأفعال [تبكيه (النساء)، قرب (من لحد)، رفع (صوته)، لا يسمعه (الداعي)] ترشدنا إلى أن حياته قد انتهت بينما بقي الآخرين أحياء، وذلك

³⁵⁶ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 8

من خلال إشارته إلى تحركهم؛ والحركة دلالة على الحياة وكذلك إلى عدم فعالية صوته الذي لا يسمع وإن رفع، وهذا يعنى الموت السكون وعدم حركة والسكوت ،وفي نص آخر يقول:

وبينما المرء أمسى ناعما جدلا في أهله معجبا بالعيش ذات أنق
تمت أضحى ضحى من غب ثالثة مقتعا غير ذي روح و لا رمق
يبكي عليه و أدنوه لمظلمة تغلى جوانبها بالتراب والقلق
فما تزود مما كان يجمعه إلا حنوطا و ما زاد

لمنطلق³⁵⁷

ويكشف النص عن نظرة زاهدة في الحياة الدنيا وتوجه الإنسان نحو العمل الصالح، واستثمار الحياة للفوز بالآخرة، وهذا ما نراه من خلال فعل (أمسى) الذي يوضح كيف كان المرء في الماضي، والفعل (أضحى) يبين كيف صار في الوقت الحاضر، ثم يأتي الفعل (يبكي) المبني للمجهول ليوضح لنا أن المرء أصبح في عداد المجهولين، وهو أيضا يوضح حياة الآخرين من خلال حركاتهم وسلوكاتهم المختلفة، وأما فعلا (تزود، يجمعه) فهما يشيران إلى سلوك المرء بعد موته وهو الاستفادة من الحياة أيام كان في حركة تسمح له بالتزود بالعمل الصالح الذي يؤهله إلى دار النعيم بالإضافة إلى رجاء عفو الله ورحمته الواسعة، وهذا ما نراه في نص آخر:

نلهو و نأمل أياما تعدلنا سريعة المر تطوينا ونطويها
كم من عزيز سيلقى بعد عزته ذلا وضاحكة يوما ستبكيها
وللحتوف تربي كل مرضعة وللحساب برى الأرواح باريها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر

نبنيتها³⁵⁸

إن هذا التوازي الدلالي الرمزي الذي يوحي به هذا التقابل بين أفعال حركة الإنسان وأفعال حركة الكون، إنها حركة الأيام الدائمة، وحركة الإنسان، والحركة الأولى لا تعرف السكون والحركة الثانية تنتهي بسكون المرادف للموت (نلهو، نأمل، نطويها) تدل على أن

³⁵⁷ - المصدر نفسه ، ص 11

³⁵⁸ - المصدر السابق ، ص 12

الإنسان في حركة وفي المقابل الأيام ليست ساكنة، وإنما هي أيضا في حركة (تطوينا) لكن حركتها مستمرة عكس الإنسان.

إذا كل فعل يقوم به الإنسان تكون نتيجته السكون بحيث تأتي الموت وتخطفه، وإذا كانت الحياة تنتظره فإن الكبر يسبقه والموت يأخذه، وقد أورد الحنوف بصيغة الجمع لتدل على الكثرة التي تحيلنا إلى تكرار الفعل وتعدده، وما صروف الحياة إلا جرعات للموت، وفي هذا تعبير عن انفعال قوي وعاطفة شديدة من الشاعر، ونظرة سوداوية تشاؤمية للحياة، لذلك أسند لها مجموعة من الأفعال والصفات السلبية مثل " (تطوينا، ستبكيها، تبنيها، تربي)، وزيادة على ذلك فإن الشاعر استعمل صيغ الجمع لتحقيق مبدأ المشاركة الوجدانية من خلال تعميق التجربة الشعرية وتمديدها، ويبدو هذا المسلك الفني في صيغ الجمع في الشطر الأول من البيت مرتين (نلهو، نأمل) ومرتين في الشطر الثاني بالشكل نفسه (تطوينا، نطويها)، مما يضيف على الشطرين توازنا وتساويا وتناغما، و يحقق نفس المطلب الفني في البيت الأخير (نجمعها، نبنيها)، حيث جاءت صيغ الجمع مرة واحدة في كل شطر فخلقت نغما موسيقيا يتغلغل ويتسلل إلى مسامع وأفئدة المتلقين في خفة ورشاقة، وهذا التوازي والتوازن بين التجربة الشعرية الانفعالية والاختيار اللساني حققه الشاعر أيضا في جمعه بين نوعين من الجمل الإنشائية والخبرية، وتوزيعها في النص يكاد يكون متقارب، ويسود الإنشائي معاني التمني والنهي والرجاء ، والجمل الخبرية النصح والاعتبار... الخ.

وقد يحتشد الشاعر الأفعال الطلبية ليعبر بها عن الاستجداء والاستغاثة والأمل و الخلاص والنجاة، فيكثر من أساليب التوسل والتضرع ليعبر عن محنة الذات وانهارها، وهذه الأفعال قد تدل على التمني القائم على استحالة الحدوث مثل ما يفهم من دلالة النصوص التالية؛ يقول أبو عقاب:

ولو كنت في الدنيا على مثل حالهم أبحتهموا رحلي وعدت إلى طمري³⁵⁹

ويقول أيضا:

و لو كنت في الدارين حرا مدلا فلا علة آسي عليها ولا لها³⁶⁰

ويقول سابق:

³⁵⁹ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص204.

³⁶⁰ - المصدر نفسه، ص205.

لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي كما يؤرقني للعاجل السهر³⁶¹

أما أحمد بن أبي سليمان فيقول:

لما تذكرها وقال ندامة من بعدها يا ليتني لم أفعل³⁶²

إن المطلوب هنا غير ممكن حصوله ويراد به التحسر على ما فعل قد حصل ،وقد نجد في نصوص أخرى صيغته الأمر التي تشتمل طلب حصول شيء لم يكن حاصل وقت الطلب كما في نص بكر بن حماد:

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها
أجساد³⁶³

وهنا يلتبس من مخاطبه الوقوف بالقبور للاعتبار والاعتاظ من حالهم ، ويردد أسلوب الوعظ نفسه سابق:

استخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى
الخبير³⁶⁴

وهذا أحمد بن أبي سليمان يرجو الله ويدعوه فيقول:

أجرني من عذابك واعف عني وكن لي مني منك يا ألمي
مجيراً³⁶⁵

وقال: كما لم تضعني رب منذ خلقتني قني فني معادي حر نار
تأجحا³⁶⁶

والشاعر في المقام الذي يلتبس فيه رحمة الله وطلب المغفرة كأنه يطبق منهج الزهاد الذين يرون في الدعاء "مفتاح الحاجة وهو مستورح أصحاب الفاقات وملجأ المضطرين

361 - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص13

362 - العربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

363 - رمضان شاوش، الدر الوقاد، ص80.

364 - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

365 - العربي دحو، الشعر المغربي، ص198.

366 - المصدر نفسه، ص 195.

ومتنفس ذوي المآرب، وقد ذم الله قوما تركوا الدعاء فقال: ويقبضون أيديهم قيل لا يمدونها لنا بالسؤال³⁶⁷، ولأن النفس لا قناعة لها مما يتاح لها من الدنيا يقول الشاعر:

لا يشبع النفس شيء حين تحرزه ولا يزال لها في غيره وطر
ولا يزال وإن كانت بها سعة لها إلى الشيء ما لم تظفر به
نظر³⁶⁸

وتؤدي بنية النبي هنا دورا واضحا في تكريس واقع الذات وما تواجهه سعيا وراء الدنيا، وفي نفس السياق نرى الشاعر يطلب من الذين يعيبون على الناس بعض صنيعهم، ثم يأتون بمثله:

إن عبت يوما على قوم بعاقبة أمرا أتوه فلا تصنع كما صنعوا
إذا عبت أمرا فلا تأتته وذو اللب مجتنب ما
يعيب³⁶⁹

ويعصور أبو عقال الحياة تصويرا فيه حيوية الحركة المعبرة بلغة درامية، وهكذا يصبح الإنسان مجرد مسافر، والدنيا مكان نزول المسافر الذي يشير إلى سرعة الرحيل:

لعمرك ما في الدنيا شيء أريده سوى أنها نزل وأني
مسافر³⁷⁰

إنه يقسم لمن يحاوره بأن حياته في هذه الدنيا زائلة، وفي نفس المعنى قال عيسى بن مسكين:

لعمري يا شبابي لو وجدتك بما ملكت يمين
لأرتجعتك³⁷¹

فهو ينادي الشباب فيحاوره ويقسم له وكأنه شخص عزيز أو حبيب، هجره فيشكوه فراقه وهمومه، ثم يقول:

فقدت كفاقتدت لذيذ نومي وطيب معيشتي، لما فقدتك

³⁶⁷ - آمنة لعلی، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من 3-7 هـ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 94

³⁶⁸ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 7

³⁶⁹ - المصدر نفسه، ص 6

³⁷⁰ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 206.

³⁷¹ - المصدر نفسه، ص 175.

ونحتك وانتخب عليك دهرا
فلم تغن النياحة حيث
نحتك³⁷²

وما هذا إلا تصوير لواقع المصير المحتوم الذي يراد به إقرار حقيقة الموت والاقتراب
من لحظة النهاية، وهذا نموذج آخر له:

لما كبرت أتتني كل داهية
وكل ما كان مني زائدا نقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وإن
مشيت تصحبنى ذات اليمين
عصا³⁷³

ويعطينا في هذين البيتين صورة لضعف قواه الجسدية التي خارت فعادت قدماه لا
تستطيعان حمله، كما أصاب ساقه اليمنى السقم بحيث صار يعتمد على عصاه التي يتكى عليها
فتعينه على المشي.

وما هذا التصوير إلا تأكيد لنزعة الزهدية واستعراض لحالته بعد أن حلت به
الشيخوخة التي لم يشكو منها من قبل، فكلمة (لما) في النص تدل أن زمن الشكوى المستقبلي
المخيف أي عندما يصيبه الكبر .

إن هذه الحيرة والأسى الكامنين في أعماق الذات من المصير المحتوم يفجرهما
السؤال عن كنه الوجود وحقيقته، يقول سابق المظماطي في هذا السياق:

من يطلب الجور لا يظفر بحاجته
وطالب الحق قد يهدى له الظفر³⁷⁴
ويقول:

من لم يكن لك منصفا
ومن استخف بنفسه
في الود فابغ به بديلا
زرعت له قالا
وقالا³⁷⁵

إنه يسأل عن أشياء معلومة لدى المتلقي، ويقر بمجموعة من الأخلاقيات، كما يقر بأن
الموت مدرك الإنسان لا محالة.

³⁷² - نفسه، ص176.

³⁷³ - نفسه، ص175.

³⁷⁴ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

³⁷⁵ - المصدر نفسه ، ص 5

من كان في معقل للحرز أسلمه أو كان في خمر لم ينجه
الخمر³⁷⁶

و يطالبنا بتعيين أمكنة السابقين لنا الذين أصبحوا تحت الثرى ليذكرنا ويعظنا بأن الموت
آت لا محالة:

أبعد آدم ترجون البقاء وهل تبقى فروع الأصل حين ينقر
لكم بيوت بمستن السيول وهل يبقى على الماء بيت أسه
مدر³⁷⁷

ويسائل نفسه عن الزمن ويطلب منها تراجعها عن تيهها وغيها في سعيها وراء سراب
الدنيا والخلود فيها:

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف في الحد مني إلى لذاتها صعر
فحتى متى تلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الأصل
قاطن³⁷⁸

ويطلب سابق وأحمد أبي سليمان منا الرحلة إلى أعماق الواقع والتاريخ لتعيين عدد
الهلكين.

يقول أحمد بن أبي سليمان:

وكم ملك عظيم ذي اختيال أعد خزائنا وبنى قصورا
وكم من طالب للمال يسعى ويركب في مطالبه البحورا؟!
379

أما سابق فيقول:

وكم من جموع أشت الدهر شملهم وكل شمل جميع سوف ينتشر
وكم من أصيد سامي الطرف معتصب بالتجاج نيرانه للحرب
تستعر³⁸⁰

376 - نفسه ، ص 11

377 - نفسه ، ص 7

378 - نفسه ، ص 8

379 - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 197.

380 - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 10

وقال:

وكم من وضع سما به العلم والحلم
فقال العلاء
وارتفعاً³⁸¹

وقال فكم من صحيح باب للمؤمن آما
آتته المنايا بغتة بعدما
هجع³⁸²

كم من عزيز سيلقى بعد عزته
ذلا وضاحكة يوماً
ستبكيها³⁸³

وفي هذا النص يطلب الشاعر تعيين الحال من يأمن غدر الدهر:

وكيف يأمن ريب الدهر مرتهن
بعدوة الدهر إن الدهر عداء

فكيف يبقى على الأحداث غابرننا
كأننا قد أظلتنا
دواهيها³⁸⁴

خامساً - التضاد:

لقد اكتظت القصائد بالمصادر كما اكتظت بالأفعال، وهي تخضع للعلاقات اللغوية سواء بين الأفعال والمصادر أو الأسماء أو المشتقات لعلاقة تضاد في أغلب الأحيان، فقد اعتمد الشعراء في تعبيرهم على تلك الثنائيات الضدية بطريقة تبرز تلك المقابلة بين الحياة والموت وإليك هذه النماذج المختلفة:

دعيت معلماً إذا صرت شيخاً
وأيام الشبيبة كنت بوراً

وكنت قريباً إذا دعيت ابن عمها
فلما دعيتي عمها كنت مبعداً

نهار مشرق وظلام ليل
أحباً بالبياض وبالسواد

فيا أسفي منى جناح ليل يقودها
وضوء نهار لا يزال سيوقها

فقد قطع البقاء غروب شمس
ومطلعها علي يا أخيا

كذا أحوال دهرك: حال أمن
وحال تجزع البطل الجسورا

381 - المصدر نفسه ، ص 5

382 - نفسه ، ص 8

383 - نفسه ، ص 7

384 - نفسه ، ص 6

فإما مؤمن يرجو خلاصا وإما كافر يصلي سعيرا

فهناك مقابلة بين المفردات بينت لنا التنوع الحاصل في طبيعة الأشياء حيث يكون الشخص شابا فيصير شيخا، ويكون مقربا فيصبح مبعدا لتعاقب النهار والليل بطلوع الشمس وإشراقها وبغروبها وحلول الظلام والسواد، واللذان لا يزلان يتهافتان عليه ما دام شابا ثم يهجرانه بعد فناء تلك المقومات، فهكذا هي حال الزمن تحب وتكره، فتجعلنا نأمن لها ثم تفزعنا فلا نجد بعدها إلا ما جمعناه فإما يخلصنا فنكون من الناجين والمحظوظين بنعيم الفردوس أو من الخاسرين والهلكى المتقلبين في نار الجحيم.

وهو بذلك التضاد ليكشف لنا عن إيقاع نفسي لانفعالات الشاعر، الذي اختار ألفاظه بكل عناية فجاءت فصيحة عميقة المعنى، وذات صور موحية وأسلوب رشيق واضح الدلالة بعيد عن التعقيد والغريب اللفظي أو المعنوي، عمد فيه إلى تلك المحسنات لتنويع الإيقاع وإثرائه ومن ذلك هذه النصوص أيضا:

فإنني سوف أدعوه بشيرا	لئن كان المشيب أتى نذيرا
فليست إليه محتاجا فقيرا	إذا كان الفتى عني غنيا
مقسمة بين التوصل والهجر	عليهم سلام مني رسالة
وما صاحب إلا سيصبح مفردا	وما فرحة إلا ستصبح ترحة
.....	وللنفس حاجات تروح وتغدي
.....	يا لذة قصرت وطال بلاؤها
.....	وأيدي المنايا كل يوم وليلة

لقد كشف الطباق عن دور بارز للتضاد في تجربة التأمل، بحيث رسم لنا صور للحياة القائمة على التناقض والتي تكشف أيضا عن طبيعتها ومن ثم تجعلنا أمام الموت والقبر وأهواله وصوره المفرغة لأخذ العبر والاتعاظ منها.

والشاعر تخلى عنه أصحابه ومع ذلك لا يزال يحفظ لهم المودة والصلة، وكما أن تفرقهم عنه كان نعمة عليه بحيث جعله يتفرغ للعبادة لوقت أطول، وفي الاتجاه نفسه يقول أحمد نصر:

إن للفرح فرحة يعقبها النوح
والبكاء³⁸⁵

يشخص الشاعر الدنيا في شكل قوة جبارة هائلة، ويجعل منها قوة لا تقهر في مقابل ذلك الإنسان في صراع دائم معها فتراه يفرح بخيراتها عندما يحظى بها، وما ذلك إلا استيلاء منه وعذاب له، ذلك أنها ستأخذ منه هذه النعم فيشقى أضعاف ما فرح ما أعطته. وتكراره كلمة الحزن (النوح، البكاء) مرتين في المقابل تكرار كلمة الفرحة (فرحة) مرة واحدة يجسد ذلك.

وإن لم تأخذها منه فسنعص عليه التمتع بها فيحس بالقهر والآلام المبرحة، فهباتها نقمة لا نعمة، والذي يتوقع صفوها الدائم، ونعيمها المستمر، ضال مخطئ لأنها لا تدوم على حال ولا تبقى على وضع، فلا يكاد يشعر فيها بالأمن والطمأنينة والسعادة إلا وهوى إلى حضيض التعاسة والشقاء، لتعظم مأساته، و يقول بكر بن حماد:

نهار مشرق وظلام ليل
أحما بالبياض
وبالسواد³⁸⁶

الشاعر حريص على توظيف لون من التوازن بين طرفي الشطرين فيجعل في الطرف الأول من الشطر صورة مشرقة سعيدة للحياة ثم يقابلها في الطرف الثاني من الشطر بصورة سلبية، فيخسف الصورة الأولى ويعدمها، وبذلك يزداد البؤس والشقاء نتيجة الانتقال من قمة السعادة إلى حضيض الشقاء والمأساة، وكأن الحياة تلهو بمن فيها وتعبث بهم فلكل موجود نهاية وما هذا إلا نظرة زاهد، وقد جاءت الصورتان معطوفتان على بعضهما بحرف الواو، وترى أيضا في الشطر الثاني البياض والسواد موصولان بالكلمة الأم بحرف الباء الدال على الإلصاق المجازي، فالبياض إصاق ووصل للنهار والسواد أيضا وصل وإصاق لليل، وكلاهما يهدانه ويرميانه في بحر الحزن والألم، يقول:

³⁸⁵ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص178.

³⁸⁶ - شاوش رمضان، الدر الوقاد، ص76.

وهون وجدي أنني بك لاحق وأن بقائي في الحياة قليل

وأن ليس يبقى للحبيب حبيب وليس بيباق للخليل

خليل³⁸⁷

لقد عاش بكر بن حماد الألم والمعاناة من عبثية الحياة، ولعل موت ابنه ساعد على نمو هذا الشعور، فالأبيات تعبر عن مساحة من الألم والحزن، وعن تفجع حقيقي على الفقد فيه مرارة وحسرة انتفى فيها بقاء أي حبيب أو خليل بجانب حبيبه وخليله.

إن فقدته لولده قسم ظهره وهد كيانه، فتحول الكون كله إلى مأساة تنغص حياته وتتكيء جراحه، فكل ما يراه وما سمعه يذكره بفجيئته ويتحول دهره إلى ظلام دامس لا أمل في الخروج منه.

ويأتي تكرار [البقاء ثلاث مرات، الحبيب مرتان، الخليل بنفس العدد] ليضع أيدينا على جراح الشاعر، وهي حرمانه من الحبيب (الابن)، ومن ثم البقاء الذي لن ينعم به أو أي إنسان آخر، فالخلود الأبدي غير وارد البتة.

وخلاصة القول: فإن تكرار الألفاظ في النص له غرض رئيس وفي ذهن الشاعر هو التركيز المعنوي المقصود، ولكنه تركيز من شأنه الرسوخ في الذهن، وهو أيضا ليس ترداد ألفاظ بعينها وحسب، وإنما هو أيضا تلوين معنوي داخل الجمل والعبارات تنقش المعنى في السمع، وترسمه في النفس فلا يبرحها.

إن احتواء كل لفظ على حرف مد يشبعها بالأسى والكآبة والعمق فتخرج كل لفظة كاملة يقابلها صوت طويل متشعب بأهاته.

ولذلك يمكن القول إن الحزن عنده يثير تواترا داخليا يستدعي انفعالا حادا، وداخليا يخرج الصوت الطويل ليثير في الوجود حركة اهتزازية ويخلق راحة نفسية³⁸⁸.

كما أن هذا المد في الألفاظ المأخوذة من نص بكر بن حماد في رثائه لابنه (تولوا، بكوا، عليا، فيا، نسلي، بقاؤك، كان، كوى، الأكباد، كيا، ...) أعطى فرصة للشاعر ليخرج زفراته الوجدانية كاملة، حيث استغله لكونه يتمكن من إخراج الدفقة الشعورية كاملة إلى الخارج، وتمكنه أيضا من إخراج التموجات الوجدانية من داخل الذات الحزينة الجريحة في شكل

³⁸⁷ - المصدر السابق، ص 89.

³⁸⁸ - السعيد لراوي، ظاهرة الحزن في شعر السياب، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 1986، ص 308.

انفعالات عنيفة تحدث اهتزازا لدى المتلقي وتمكنه من معايشة الجو الحزين الذي يعيشه الشاعر، وبذلك يتفاوت استخدام المد بتفاوت المعنى والجو النفسي، فالمد بالآلف في هذا البيت:

وإن جاء ما لا يستطيعان دفعه فلا تجزع مما قضى الله
وأصبرا³⁸⁹

يهدف الشاعر منه إطالة المعنى والتركيز عليه، بينما يرتبط المد بالواو في هذه الأبيات:

الموت لا بـد آتي فاستعد له إن اللبيب بذكر الموت مشغول
وكيف يلهو بعيش أو يلذ به من التراب على عينيه
محمول³⁹⁰

بجو الاضطراب والخوف، أما المد بالياء في هذا النص :

أين الملوك التي عن خطبها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقياها
غرت زمانا بملك لا دوام له جهلا كما غر نفس من يمينها
وصبحت قوم عاد في ديارهم بمفزع يوم عاداتهم
عواديا³⁹¹

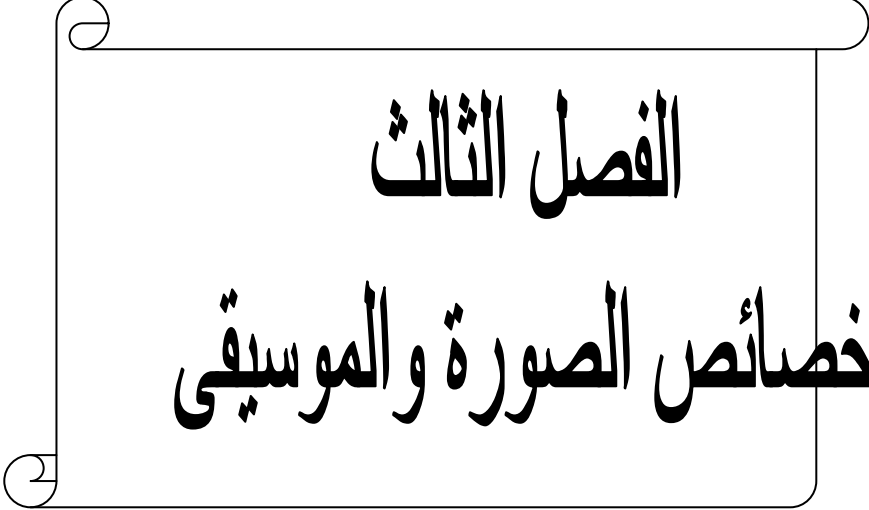
وخلاصة القول فإن أشعار هؤلاء الشعراء الزهاد تسودها سهولة في اختيار قاموس شعري زهدي وعفوية في التعبير ووضوح في الفكرة ونغمة عذبة لا تخفى على المتذوق، فالشعراء يؤدون مشاعرهم بلون من ألوان الكآبة مستحبة، فهم يغنون أحزانهم وآلامهم، ومن ثم جعلها على معظم الشفاه والألسن، فالإنسان يستلذ الغناء بالروحانيات، والشاعر ما هو إلا إنسان يعزف روحانياته وأحزانه وأشجانه على قيثارة من شعور رقيق لم تزل أصداء أوتارها تضرب في أذهان الدهر حتى يومنا هذا.

كما أن شعر هؤلاء الزهاد تأتي في أغلبها خالية من التعقيد والتنافر والإبهام، وتتخللها رمزية خفيفة في دلالات ألفاظها، وما اللغة الشعرية عندهم إلا أداة طبيعة للتعبير عن تساؤلات تهتم عن المسلك الإيماني الصحيح، وما يكتنف ذلك من الحيرة والشك الذي يكابده هؤلاء للوصول إلى اليقين.

³⁸⁹ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

³⁹⁰ - القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 328.

³⁹¹ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7



الفصل الثالث
خصائص الصورة والموسيقى

أولاً - الصور الشعرية:

الصور الشعرية مفهوم فني يعني في أبسط معانيها "رسم قوامه الكلمات"³⁹²، وقد وردت كلمة صورة في القرآن إلا أنها تعني الخلق، وقد وردت في قوله تعالى: "الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك"³⁹³، وقوله أيضاً: "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء"³⁹⁴.

والصورة الشعرية: "تشكيل لغوي لبيان كنه الأشياء وإيصال تجربة الشاعر إلى المتلقي، بعبارة فنية، فهي الوسيلة الفنية التي تنقل بها أحاسيسه وفكره إلى العامة والثقافة الخاصة بالشعر، بحيث يتمكن من تحويل الفكر والعاطفة إلى صورة تجسم بوساطة اللغة، ونجاح هذه الصورة يكون بمقدار قدرتها على نقل التجربة وتفجيرها في أعماق المتلقي بحيث ينفعل بها ويتفاعل معها"³⁹⁵.

ولها أشكال مختلفة يساير كل شكل منها طبيعة الجمال أو النفس التي ينشأ عنها، فبعض أشكال الصورة بسيط لا يتعدى الإشارات الساذجة أو التشابيه المنتاسبة الأجزاء، وبعضها معقد شديد التعقيد كالرموز والاستعارات، التي لا تقف عند إيجاد علاقات بين أمور متناسبة أو متشابهة أو متجانسة فحسب، وإنما تتعدى ذلك إلى إحداث علاقات بين أمور مختلفة بل بين أمور متضادة متنافرة أيضاً³⁹⁶، وهذا ما سنراه أثناء تحليل بعض النماذج من الصور الشعرية الخاصة بالمدونة على غرار هذه الصورة:

يا موت أتكنتنا يحي وكان لنا في بلدة الغرب مثل البدر في الظلم³⁹⁷.

صورة حزينة تلك التي وظف فيها الشاعر عناصر الطبيعة، التي حملت معنى الهزيمة والانكسار والشحوب الحزين، وهو ما يسعى إلى إبرازه من خلال هذا الشبيه، والتشبيه كما عرفه أبو هلال العسكري:

"التشبيه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه أو لم ينب... وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة"³⁹⁸.

³⁹²-انظر: دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي، ص 21 وما بعدها.

³⁹³-الانفطار، الآية 8.

³⁹⁴-آل عمران، الآية 11.

³⁹⁵-علي عالية، شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين، 5هـ-6هـ، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة، 2004-2005، ص 278.

³⁹⁶-ينظر: عبد القادر الرباعي، الصورة في شعر أبي تمام، ص 14.

³⁹⁷-القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 269.

³⁹⁸-أبو هلال العسكري، الصنائع، ص 261.

والتشبيه يقرب بين الأشياء المتباعدة باكتشافه لعلاقات بينها قد تكون خفية، وتحدث الائتلاف بين ركني الصورة الواحدة، ولكنه لا يمزجها، ولا يلغي الحدود التي يصنعها الزمان والمكان والمنطق فتبقى الأشياء مستقلة بالرغم من ائتلافها، منفصلة بالرغم من تقاربها إنه لم يصل إلى درجة الاتحاد التام بين جزئي الصورة، ولم يستطع تجاوز المنطق والواقع الذي يباعد بينهما.

ولقد ساهمت الألفاظ في تركيب الصورة الشعرية الحزينة، التي جاءت مشحونة بزفرات نفسية قاتمة، ومن ثم صورة الطبيعة التي أخضعت الوجود الخارجي، وجعلته صدى للعالم الداخلي، فقدم الشاعر من خلالها مظهر من مظاهر إحساسه في هذا الوجود الرحب، وجاءت صورة أخرى لسابق في رائيته:

وفي الهدى عبر تشقى القلوب بها كالغيث ينضر عن وسميه الشجر
والذكر فيه حياة للقلوب كما يحي البلاد، إذا مات المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلى سواد الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً وهل يلين كقلب الواعظ الحجر
ولا أرى أثر للذكر في خلدي والحبل في الحجر القاسي له أثر³⁹⁹

فهذه مبنية على مجموعة من المقارنات ذات الدلالة المشتركة بحيث شبه الهدى بالغيث يسقي القلوب، كما ينظر عن وسميه الشجر، وشبه الذكر بالمطر فكلاهما يحي، فالذكر يحي القلب بينما المطر يحي البلاد إذا ما ماتت.. وشبه القلب بالحجر ووجه الشبه القساوة، ومن خلال هذه المشابهات

فقد حول الشاعر تصوير خلجاته النفسية وتوضيحها بواسطة التشبيه، وهو لون بلاغي اعتمده الشعراء قديماً وحديثاً، لتصوير أحاسيسهم ومشاعرهم، وعن ذلك يقول جابر عصفور: "الفتنة بالتشبيه فتنة قديمة لدى بعض الشعراء الأوائل بالبراعة في نظر الشعر نفسه"⁴⁰⁰.

وهذا بكر بن حماد يلجأ إلى الصورة المركبة لما فيها من طاقات خيالية وجمالية وإبداعية تمكنه من تشخيص أفكاره وعواطفه بصدق ونقلها بأمانة إلى المتلقي، وهي تكثف الدلالة وتتمق الأسلوب وتخصب الخيال، وهذا واضح في هذه الصورة :

وكننا واقف منها على سفر وكننا ظاعن يحدو به الحادي⁴⁰¹

³⁹⁹- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص
⁴⁰⁰- ابن عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار المعارف، صمر، دبت، ص112.

لقد اعتمد في إخراج هذه الصورة على التشبيه التمثيلي فمثل الإنسان في الدنيا بمسافر يحثه الحادي على مواصلة السير ويرغبه فيه بالفناء حتى لا تفتر رغبتة في السير الحثيث، فالناس كالإبل والموت كالحادي الذي يلهي الناس عن مصائرهم برغائب الدنيا حتى لا يفطنون إلى ما ينتظرهم في نهاية الطريق، كما أبدع الشاعر أحمد بن أبي سليمان في تصوير هذا الموقف في هذه الصورة:

أرى البرق من نحو العذيب تواقدا تغيب طورا لمعه وترددا⁴⁰²

دعيت معلما إذ صرت شيخا وأيام الشبيبة كنت بورا⁴⁰³

ونلاحظ بأن الشاعر صور إشراق الشيب وقد أحاط به الشعر الأسود بالبرق ينشق من ظلمة الغيوم، وفي البيت الثاني يمثل حياته أمام الشبيبة بالأرض والبور التي لا زرع فيها؛ والمتمعن في هذه الصورة يرى أنها تتلون بألوان مشاعر الشاعر⁴⁰⁴ لأنه يلبس صورته الشعرية الثوب الذي يتلاءم وذاته المتفجعة الباكية، ومن ثم أصبح بإمكاننا النفاذ إلى أعماقه لنطلع على حقيقته .

بتوظيف الشاعر هذه الصور التي تثير الحزن وتجليه لنا يكون بذلك قد أوصل لنا شيئا أكثر من الحقيقة وأعمق من الواقع الذي يريد تصويره فقد تمكننا من معايشة مأساته، ويمكن للدارس لهذه الصورة أو غيرها من الوقوف على علاقة الشاعر بالواقع، وعلاقته بذاته وحياته، ليستشف منها حالته النفسية الحزينة، والصورة الدرامية نفسها نلاحظها في هذه الصورة لسابق :

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى سفاها وريب الدهر عنها يخادعه⁴⁰⁵

صور الدهر بالأدمي بجامع الاحتيال ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الخداع، فجاءت الاستعارة لتبرز المعاني في صورة حية متجددة، وكل ذلك يدل على خصب الخيال وبراعة الشاعر، والصورة الفنية تقتضي تشكيلا لغويا يعتمد الإيجار وتشخيص المعاني والأحاسيس ويهدف إلى جعل الصورة بنية واحدة غير مجزأة كما هي في التشبيه بحيث تبقى مسافة بين طرفي الصورة، ومن ثم تفتقد إلى تكثيف الدلالة وثراء الخيال وتنوع الأسلوب وترقى به فنيا ليصبح معادلا لتجربة الاتصال والتفاعل بين المبدع والنص والملتقي.

⁴⁰¹- رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص82.

⁴⁰²- العربي دحو، الشعر المغربي، ص194.

⁴⁰³- المصدر نفسه، ص199.

⁴⁰⁴- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر، ط3، ص127.

⁴⁰⁵- عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص9

وهذه الخاصية الفنية الرفيعة للصورة يؤكد لها مصطفى ناصف حيث يقول: "الاستعمال الاستعاري يربط الفرد بالكل ويربط اللحظة بالديمومة"⁴⁰⁶.

ويؤكد لها جابر عصفور أيضا فيقول: "إذا كان التشبيه يوقع الائتلاف بين المختلفات ولا يوقع الاتحاد، وهذا أهم ما يميزه عن الاستعارة التي تتعدى على جوانب الواقع، وتلغي الحدود العملية بين الأشياء على نحو لا يستطيعه التشبيه"⁴⁰⁷، وأبسط مظاهرها الأسلوبية الإبداعية تبدو في هذه الصورة لسابق:

فكم من صحيح بات للموت آما أتته المنايا بغتة بعدما هجع⁴⁰⁸

ونلاحظ بأنه صور المنايا بشخص يخرج فجأة على الإنسان بعد نومه فيقبض روحه، وينهي حياته، فهي صورة فيها كثير من الحركة المؤدية إلى نتيجة مأساوية، وفيها قدرا من الإثارة بفضل هذا التشخيص .

ولكي يشخص الشاعر والآخرين صراعهم مع الحياة والموت التمسوا صورا من الطبيعة والدين والتاريخ، ومن ثم وظفوها ليجسدوا ما يريدون، فبكر بن حماد حاول نقل هذه الصورة المؤثرة في موقف درامي :

نهار مشرق وظلام ليل ألحا بالبياض والسواد
هما هدماء دعائم عمر نوح ولقمان وشداد
وعاد⁴⁰⁹

تحولت الطبيعة عنده إلى إنسان بأحاسيسه وصفاته وأفعاله، وهي تشخص ظاهرتين طبيعيتين متضادتين وهما: الليل والنهار، وكيف أنهما تقضيان على كل شيء وما ذلك في حقيقة الأمر إلا تصويرا لمعاناته الشاعر القاسية المظلمة كالليل وآماله المشرقة المشرية لنهار يبدد الظلمة وينشر البهجة والإشراق في حياته لكن أحاسيسه السوداوية تطغى عليه فتصبح الظلمة والنور سيان في فعلهما على الإنسان بحيث يستدرج إلى حتفه كما استدرج غيره حتى ولو كانوا من الأنبياء (نوح، لقمان، شداد، عاد).

⁴⁰⁶ مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص6.

⁴⁰⁷ - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص192.

⁴⁰⁸ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص7

⁴⁰⁹ - شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص76.

وهكذا يكون النص قد اشتمل على صور جلبها من التاريخ الديني والثقافي تلك الصور التي تستوحي أخبار الأمم البائدة كعاد وبعض الحكماء والأنبياء الذين لهم مكانة خاصة في ذاكرة المسلمين كلقمان ونوح، ولا ننسى استدعاؤه لشخصية اشتهرت بالقوة والشجاعة والجسارة، وأعني بها شخصية عنتر بن شداد، وهذه الإحالات تشخص الشاعر في صورة انهزامية ينعكس أثرها على المتلقي فيحس بشراسة الدنيا وضراوتها، وهو بهذا النهج الفني في تضخيم هول المصير يشكل صوراً متعددة للفناء.

وفي نص "ذكر الموت" يمزج مزجاً لطيفاً إسنادياً بين الإنسان والطبيعة من خلال كلمات ذات دلالة إنسانية (يقود، يسوق)، وكلمات لظواهر طبيعية (الليل، النهار)، وهذا الجمع أدى إلى أسلوب تشخيصي بحيث جعل الطبيعة تستمد أوصافها من الإنسان، فالليل كأنسان يقود النهار ويسوقه أيضاً، والصورتان تتوشح فيهما الطبيعة بما هو إنساني، ويتواجد الإنسان فيهما من خلال الطبيعة؛ وما إسناده فعل التهافت لليل والنهار إلا تعبير عن تهافت الإنسان على الدنيا (الحياة)، وقد عبر عن هذا الإحساس بأسفه (فيا أسفي)، ثم نراه مرة أخرى يستعين بمظاهر الطبيعة في موضع آخر من خلال كلمات (السحاب، هطول المطر، البرق) التي تجسد لنا ما تفعل الحياة فيه بتلك الجرعات التي تحدث المخاوف والجزع عندما تزيه قوتها وحيوتها بأخذ أرواح الذين حوله من مقربيه وأحبابه، فالبروق والسحب ظواهر طبيعية تسبق المطر، بها يؤكد لنا أنها آية لا محالة فكما تنذر البروق والسحب سقوط المطر فموت الأقرباء والأحباب ينذر بسقوط الإنسان في نفس المصير، لذلك نرى أن الصور الشعرية التي أتى بها الشعراء لا تخلو من مظاهر الطبيعة، حيث نراهم يتوجهون من فعل الليلي، ويشكون الزمان ويتوجهون إلى المتلقي لأخذ العظة من تجربتهم، يقول سابق:

بينما المرء أمسى ناعماً جدلاً في أهله معجبا للعيش ذا أنق

تمت أضحي ضحي من غب ثالثة مقتعا غير ذي روح ولا رمق⁴¹⁰

وبين [وكننت، وصار وأمسى] لعيسى بن مسكين:

أصاب الدهر عظم ساق به قد كنت مشاء جليد

وصار لبيته حلساً وأمسى من الإخوان منفرداً وحيداً⁴¹¹

⁴¹⁰ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 11

⁴¹¹ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 175.

وهاتان الصورتان من النصين تعبير عن حال الشاعر كيف كان يتمتع بالنعومة، وثم أصبح بقايا متناثرة معبرة عن مأساته، وهذه صورة أخرى لبكر بن حماد:

بينما نرى المرء في لهو و لعب حتى نراه على نعش وأعواد⁴¹²

هي أيضا صورة رمزية عن الحياة الهادئة والمطمئنة والترف الذي يعيشه الإنسان الذي يفاجئه الموت ويخطفه فتبكيه النساء كما جاء في بيت سابق:

فأصبح تبكيه النساء مقتعا ولا يسمع الداعي وإن صوته
رفع⁴¹³

ونجد في نصوص أخرى تشخيص الشعراء للفناء الذي يلاحقنا أينما حللنا بمجموعة من الصور لإظهار المعنى في صورة فنية مظلمة، كما يعتمد على طاقات اللغة الحقيقية والمجازية، فيوظف المشيب والشيخوخة توظيفا مجازيا للدلالة على قرب الأجل فهي سبب وصوله إلى الثرى كما توضحه النصوص التالية لبكر بن حماد:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل قد جاني ما ليس فيه حيل⁴¹⁴

وعيسى بن مسكين:

أصافح الأرض إن رمت القيام تصحبنى ذات اليمين عصا⁴¹⁵

فكلتا الصورتان تدلان دلالة رمزية خفيفة على العجز الذي يدني الموت بخطى متسارعة، ومن ذلك أيضا تشخيص بكر بن حماد المنايا فيجعل لها أيدي تطال بها ضحاياها:

وأيدي المنايا كل يوم وليلة إذا فتقت لا يستطاع فتوقها⁴¹⁶

وهذا أحمد بن أبي سليمان يستعير أفعال ويسندها إلى الجماد:

ولم ألبس لذل الفقر ثوبا ولم أك في الغي بطرا فجورا⁴¹⁷

فلبس الثوب من خصائص الإنسان تم إسناده للفقر على سبيل المجاز، وقد عمد الشاعر لهذه الصورة لأنها تشخص القضايا المعنوية وتجسمها وتجعلها كائنات حية تتحرك وتفعل، وبذلك تبت الحياة والأحاسيس فيما هو جامد فيهتز وينبض، فتطلق العنان للخيال ليرتاد

⁴¹² - شواوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص 92.

⁴¹³ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص

⁴¹⁴ - شواوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص 92.

⁴¹⁵ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 175.

⁴¹⁶ - شواوش رمضان، الدر الوقاد، ص 79.

⁴¹⁷ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 196.

عالم الفكر والعواطف والبؤر العميقة في النفس، فيختار ما يلائم حياته وبيئته وحضارته، وهي كذلك تجعل الإنسان يغوص في أعماق الطبيعة ويصبح جزء منها وتصبح جزء منه في اتحاد تام.

ونختم هذه النماذج بصورة الصواف هو يصور لنا تفرق نساء الحي من حوله بعد أن كن يهوين طلعتة أيام كان أرجل أسودا والشعر الأسود هنا كناية على الشباب والصبا.

وكان نساء الحي يهوين طلعتي ليالي كان الشعر أرجل أسودا⁴¹⁸

إن الصور الشعرية تعين الشعراء على الإعراب عن انفعالهم وأفكارهم، وهي أيضا تصور تجاربهم وعواطفهم كما توضح ذلك من خلال النماذج المختلفة التي سقناها.

ثانيا - الموسيقى:

لعل الشاعر عندما يريد أن يجسد أحاسيسه لا يجد وسيلة إلا الشعر، وبواسطة الألفاظ المتجانسة التي تحمل طاقة هائلة من المشاعر والأحاسيس عند استعمالها وتوظيفها في البيت الشعري.

كما تأخذ اللفظة مع غيرها أبعادا وظلالا، ويصبح لها عمقا متجددا، ويكون ذلك عن طريق فرض نظام عليها، ووحدة موسيقية تكسب الشعر قدرة التأثير من بينها الوزن والقافية.

الأوزان الموسيقية:

تتنوع الأوزان بتنوع الدفقات الشعرية التي تخضع لإيقاع موسيقى يساعد على خلق التوازن في النفس، بحيث تصبح أداة بواسطتها يمكن للشاعر السيطرة على عاطفته الثائرة والمتوترة.

وإن استقراءنا للبحور الشعرية التي استخدمها شعراء المدونة في نظمهم يكشف عن هيمنة أربع بحور: الطويل فالبسيط، والوافر والكامل ويقترّب تواتر بحر الطويل وحده من النصف من مجموع شعره والباقي يتوزع على البحور الأخرى ويأتي في مقدمتها بحر البسيط

⁴¹⁸-المصدر السابق، ص194.

والوافر، ثم يتبعها بحر الكامل ثم الرجز، فالمتقارب، الرمل، أما الخفيف والهزج بدرجة أقل تواترا.

ويفضل الشاعر منهم النظم في هذه البحور وهي تامة، كما يلتجئ أيضا في حالات قليلة إلى النظم في بحر الرمل والرجز، وهما مجزوءان.

وهذا يقدم لنا مجموعة من الحقائق لعل أبرزها يتمثل في هذا التوزيع للبحور على أغلب الدوائر الشعرية، ويظهر الشاعر وكأنه يختار من كل دائرة بحرا من أشهر بحورها؛ فالطويل والبسيط من دائرة المختلف، والوافر والكامل من دائرة المؤتلف، والهزج والرجز والرمل من دائرة المجتلب، والخفيف من دائرة المشتبه، أما المتقارب فهو من دائرة المنفق.

ويعد بحر الطويل من أشهر بحور الشعر العربي وأكثرها تواترا في القصيدة العمودية منذ العصر الجاهلي حتى العصور المتأخرة، والشعر المغربي لم يشذ عن هذا التوجه، وحتى لو أردنا فلن نستطيع.

وقد وضع المعري بحر الكامل في الدرجة الثالثة بعد الطويل والبسيط من حيث درجة دورانه عند الشعراء⁴¹⁹.

غير أن شعراء المفضليات والجمهرة رفعته إلى المرتبة الثانية بعد الطويل مباشرة، وجاءت مدونة الشعر المغربي في القرون الثلاثة فهبطت به إلى الدرجة الرابعة، ويرتقي به بكر بن حماد إلى الدرجة الثانية، وهو من الشعراء البارزين في القرن الثالث الهجري، ولكنه يغيب تماما بصوره التامة من شعر سابق المظماطي، وهو من شعراء القرن الثاني الهجري، وجاء في الدرجة الثانية عند الشعراء المغاربة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وترتفع هذه النسبة عند شعراء المرحلة الأولى إلى الثلث أي بنسبة 32.8 %، وتهبط هذه النسبة عند شعراء المرحلة الثانية إلى الثمن أي بنسبة 12.2 %، وهذا طبيعي للعلاقة العكسية بين توزيع النظم في أكبر قدر من الأنساق الموسيقية، وبين تواتر كل نسق موسيقي على حدة.

أما درجة دوران البسيط في نظم الشعراء فهو يكون في المرتبة الثانية بعد الطويل، غير أنه في إحصائيات⁴²⁰ لنظم الشعر الجاهلي والإسلامي والشعراء المغاربة في المراحل السابقة تفيد أن البسيط يأتي في الدرجة الثالثة بعد الطويل والكامل، وهذا يعني أن الإيقاع الموسيقي

⁴¹⁹-محمود مصطفى، الهدى سبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية، 1936، ص48.

⁴²⁰-الدكتور معمر حجيج، محاضرات في موسيقى الشعر، أقيمت على طلبة الماجستير، تخصص أدب مغربي قديم، 2002-2003، ص55.

لهذه البحور الثلاثة هي الأكثر تفصيلا لأذواق الشعراء ولا عجب في ذلك فإن أغلب أجزاء الكامل تأتي مضمرة فتتقاطع مع بحر البسيط، كما أن خماسيتها المخبونة توفر لهذا البحر توالي ثلاث حركات يجعلها قريبة من صدر تفعيلية الكامل.

وبأتي بحر الخفيف مع مجموعة من البحور في الرتبة الثانية بعد مجموعة الأولى من حيث كثرة دورانه عند الشعراء.

أما المتقارب والرمل فنسبة تواترهما ضعيفة عند القدماء، والشعراء الزهاد لم يشذوا عن معاصريهم في ذلك، مما يمكننا من التوصل إلى مجموعة من الظواهر والحقائق:

-أولى هذه الظواهر ترجع إلى الالتقاء الذي يجمع بين الشعراء الزهاد في المغرب وبين الشعراء التقليديين في اختيارهم البحور وتوزيعها ودرجة تواترها، فبموازنة بين الشعراء التقليديين وشعراء المدونة نقف عند حقيقة من حقائق الملامح العامة لإطاره الموسيقي وتتمثل في نزوعهم إلى البحور التي يفضلها الشعراء التقليديون، وهذا ما يفسر حبس جوقتهم الموسيقية عند أنغام بحور قليلة، ولكنها هي الأكثر تواترا عند هؤلاء الشعراء.

-ترسم الشعراء المغاربة طريق القدماء، واعتبروا الشعر المشرقي مثالا يحتذا به، ورفضوا الخروج عن التقليد العربي القديم الموروث، من العهد الجاهلي لا سيما وأن البحر الطويل "قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي، وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره، ويحتذونه ميزانا لأشعارهم، ولا سيما في الأغراض الجديدة الجليلة الشأن، وهو الأقدر على استيعاب المعاني، ثم نرى كلا من الكامل والبسيط يحتل المرتبة الثانية في نسب الشبوع"⁴²¹.

-تبني المدونة هذه البحور باعتبارها الأقدر على توصيل الفكرة، والأنسب للأغراض الشعرية التقليدية الجادة، والتي يتطلب استرجاعها الانفعالات والذكريات في هدوء وروية من زمن الإبداع، والتي تتميز بنوع من القداسة والجلال والهيبة، وهذه البحور الأكثر تفضيلا عند الشعراء، كما يضيف الناقد المعاصر عبد اللطيف الطيب: "إن الطويل والبسيط أطول بحور الشعر العربي، وأعظمها أبهة وجلاله"⁴²².

الوزن والعاطفة:

⁴²¹-إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة، 1988، ص191.
⁴²²-الطاهر التهامي، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1979، ص48.

إن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصيب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزئه، كما في نص سابق فكم من صحيح بات للموت، الذي اختار له البحر الطويل، ليبث فيه همومه ومواجهه، أما إذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع كما حدث لبكر بن حماد قبل وفاته، عندما دخل عليه بعض أحبائه فلم يستطع القيام (في نصه الذي رثى فيه نفسه على وزن الرجز)، أو لحمديس القطان في مرضه (بيد الله دوائي ...) الذي أنت أبياته على وزن الهزج، تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلازم وسرعة التنفس، وازدياد النبضات القلبية⁴²³.

وهذه التموجات النفسية الحزينة الصادرة عن ذات الشاعر، قد تخرج حادة متوترة وقلقة، مما يستدعي استعمال موسيقى ووزن يستوعب هذه القوة، وقد تخرج هذه المشاعر هادئة يغلب عليها التأمل، وتستدعي موسيقى وتفعيله معينة، فتتفاوت بذلك الموسيقى في مجملها بين الانفعال الناتج عن شدة الألم وتفاقم حزن الشاعر، وبين الخفوت والهدوء، ويكون ذلك في حالة التأمل والرضا بالمصير، إلا أن كلاهما يصب في وعاء واحد، وهو حزن الشاعر العميق وقنوطه من هذه الدنيا اللاعوب، والخوف من عذاب القبر والرغبة من الله وكذلك الأمل في غفوة ورحمته.

أ-الانفعال:

ويمكن العثور عليه في التجارب المتوترة، حيث يتمكن من تصوير حالته النفسية الثائرة والمشوبة بالغضب والتحسر، ويظهر ذلك في قصيدة أبو عقال التي مطلعها (مناي وتسويفي...)، وأورد هذا البيت كعينة للانفعال والقلق، حيث يقول:

كأنني ونفس بين حرب وهدنة إذا ساعدتني في السهاد بدا لها⁴²⁴

ب-الهدوء:

وهو مرتبط بخاصتين: الشكوى الهادئة، والإذعان لما قدر، وكلاهما أحزان يؤديان إلى الهدوء وعدم الحركة.

-وقصيدة سابق الرائية هي تجسيد للهدوء والخفوت الموسيقي بشكل واضح، فالنص يجسد حركة تموجية باطنية ناتجة عن الخفوت النفسي الهادئ لدى الشاعر، ولذلك فألفاظ النص

⁴²³-إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص177.

⁴²⁴-العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات المستقلة، ص205.

تعكس استكانته إلى قوة خفية قادرة على العفو والرحمة (بسم الذي أنزلت، الحمد لله، يحي البلاد، يجلى سواد الظلمة القمر، الذكر حياة للقلوب، ...).

إن هذه الألفاظ في مجموعها تنهل في معين واحد هادئ هو ذات الشاعر الحزينة، والتي في هدوئها تتجه نظرتها للسماء رغم احتراقها داخليا.

لقد تنوعت النصوص عند الشعراء في ثوبها الإيقاعي، وعند الشاعر نفسه، وهذا راجع كما يبدو إلى أن التجربة تقلبت عندهم بين الغضب من أنفسهم والألم، والثورة على الدنيا والأمل، فجاءت كل عاطفة في ثوبها الإيقاعي الكفيل بإخراجها في دفقتها الخاصة بها، وهذا التنوع يعطي للقائد قوة التنفس الشعري المتنوع والذي يوازيه داخليا ذات الشاعر المتلونة.

ثانيا - القوافي:

لقد اختلف القدماء في تحديدهم للقافية، وبيان دورها الصوتي والدلالي ولا نرى أي فائدة للكلام عن هذه الاختلافات، ونكتفي بالمشهور من التعاريف، وربما أقربها إلى الإمام ببنية القافية ما أورده صاحب العمدة على لسان الخليل الذي يرى أن القافية هي "آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، والقافية على هذا المذهب، وهو الصحيح، تكون مرة بعض الكلمة، ومرة كلمة، ومرة أخرى كلمتين"⁴²⁵.

ولا يمكن أن نطبق هذا التعريف في دراسة أشكال القافية، وأنماط بنياتها في الشعر الزهدي المغربي دون تحديد عناصر مكوناتها الثابتة، والمتغيرة، ومن خلال اجتماع هذه العناصر معا، أو غياب بعضها تتحدد أشكال هذه القوافي وقوالبها، وهي بالضرورة تبنى على روي ويكون ساكنا أو متحركا، فإذا كان متحركا فتلك هي القافية المطلقة التي يلحقها مجرى يؤدي إلى الوصل يتبعه خروج أو لا يتبع، ويأتي قبل الروي ردف وتأسس ودخيل، ومن هذه العناصر الثابتة والمتغيرة تشكل أنواع القوافي حسب قوالب معينة، يمكن الوقوف عليها بكل يسر في نصوص الشعر الزهدي.

1/الروي:

وقبل دراسة أنواع القافية وصورها لا بد من دراسة حرف الروي دراسة مستقلة، تكشف عن منهج الشعراء في اختيار حروف دون أخرى، وأحاول بقدر الإمكان تفسير ذلك تفسيراً صوتياً فنياً.

⁴²⁵ - ابن رشيق-العمدة-ص151.

إن الروي يعد عنصرا أساسيا في تشكيل القافية، فهو يشارك في تحديد الإيقاع الموسيقي، وهذه الدراسة تشمل كل ما استطعنا جمعه من هذا الشعر، والذي يتوزع على ستة عشر حرفا، استخدمها الشعراء كلها رويا بدرجات مختلفة بحسب مادتها اللغوية المتاحة في المقام الأول، وحسب خصائصها الصوتية، فهو دائما يمثل مركز القافية وهويتها النصية، ومن العناصر اللازمة المتكررة ويشكل الانطلاق لكل التصنيفات للأشكال والألوان التي تتلون بها خصائص القافية، وهو موقع مبادئ وقواعد صارمة، والخروج عليها يؤدي إلى عيب من عيوبها.

والروي ليس مجرد صوت يتردد بلون صوتي واحد منتظم، بل يكتسي أيضا أهمية موقعية لكونه يحدد عناصر القافية قبله وبعده.

شيوخ اختيار الحروف:

لقد اعتمدت مبدأ التواتر على مستوى البنية السطحية، للنصوص الشعرية لحرف الروي، الذي هو جزء من الكلمات التي تقع في نهاية الأبيات، فإن درجات هذا التواتر تربط طريدا بمبادئ ذاتية وأخرى خارجية موضوعية.

وفي الحقيقة فإن هناك تداخلا كبيرا بين ما يرجع إلى الداخل، وما يرجع إلى الخارج عند الكلام عن معدلات الاختيار للمادة الشعرية، فالذوق الشخصي لا يمكن فصله عن الذوق العام، والكفاية اللغوية لا يمكن فصلها عن البنية العميقة لأي لغة، ولكن ما هو متفق عليه عند الأسلوبيين فيما يتعلق بالشعر خاصة؛ أن الأصوات اللغوية تمتلك خصائص نوعية وقيمة تعبيرية مستقلة عن معنى الكلمات التي تجسدها، وتظهر هذه الخصائص النوعية في الانطباع بالاستحسان أو الاستهجان الذي تحدثه في أسماعنا، وتظهر القيمة التعبيرية بما توحى به هذه الأصوات عند التلفظ بها من معاني وانطباعات وصور⁴²⁶.

ويحق أن نتساءل عن مدى توافق هذه القسمة مع أقسامها في دراسة إبراهيم أنيس للقافية في الشعر العربي، وتقسيمه إياها بحسب درجة شيوعها في الشعر العربي إلى أربعة أقسام: شائعة ومتوسطة وقليلة الشيوخ ونادرة⁴²⁷.

⁴²⁶-J.Marouzeau-Precis de stylistique française, masson et cie, paris -France 1969-P:23.

⁴²⁷- إبراهيم أنيس-موسيقى الشعر-ص248.

ومع تلك القسمة المبنية على الذوق التي صنف من خلالها عبد الله المجذوب القوافي إلى أربعة درجات: الدرجة الأولى أطلق عليها القوافي الذلل، وصنفها صنفين، والدرجة الثانية أطلق عليها القوافي النفر، والدرجة الرابعة سماها القوافي الحوشي⁴²⁸.

ويتضح ذلك من خلال الجدول:

مبدأ الشيوخ في المدونة	مبدأ الشيوخ عند إبراهيم أنيس	مبدأ الذوق عند عبد الله الطيب المجذوب
ل ر د ب ن م ن	ل ر د ن ب م س ع	ل ر د ن ب م ت ع
ق ء م ي ج ك	ق ء ك ء ج ي ق	ق ء ك ء ج ي ق
ز ن ت	ز ن ط ه ت	ز ن ط ه و
ث ظ ث و	ث ظ ر ث و	ث ظ ث و

⁴²⁸ - عبد الله الطيب المجذوب- المرشد إلى فهم أشعار العرب والأدب- دون ذكر مكان النشر وتاريخه- ج1- ص44-65.

نلاحظ من خلال هذا الجدول تقاربا كبيرا بين التصنيف المبني على مبدأ درجات الشبوع والسهولة، والتصنيف المبني على أساس الاحتكام إلى الذوق بحسب درجات الاستحسان، ونلمس هذا التقارب أكثر في الاتفاق الثلاثي التام في حوالي إحدى عشر حرفا، بالإضافة إلى أن هناك توافق يكاد تاما بين الثلاثة من الحروف الأولى (ر.ل.د)، والثلاثة الأخيرة (غ.ذ.ظ)، ومع ذلك الاختلاف لا يعدو تبادل المواقع بين الحروف.

هذا التقارب بين مدونة إبراهيم أنيس، وأحكام عبد الله المجذوب، ومدونة الشعر الزهدي المغربي، كلها تدل على تقاليد الشعر العربي في استحسان أصوات تتكرر، وتتنظم في مواقع لها دور في إضفاء جو خاص منفصل في الكلمات والتراكيب من خلال موسيقى النص الشعري، وهذا الجو يوحي بمعاني وصور تعادل المشاعر، وتحاكي وقع الأشياء، الأمر الذي يثير التجربة الشعرية، ويجعلها أكثر إثارة بجمع مكوناتها وجمالياتها.

وسنحاول الآن تفسير معدلات التواتر لحروف الروي من خلال مفهوم الصفات المميز الفونولوجي.

فالمجموعة الأولى الشائعة من حيث مخارجها توضع في ثلاثة أقسام:

القسم الأول يضم اللام، والراء، والنون، والذال بحسب (مصطفى حركات)، ويفصل تمام حسان الدال عنها، ويعدده قسما مستقلا بنفسه، وكل هذه الحروف لثوية في مخارجها أو أسنانية لثوية كما هو حال الدال والقسم الثاني لا يضم إلا الباء وهو شفوي، والقسم الثالث يمثل القاف وهو لهوى.

وإذا انتقلنا إلى أصنافها فإننا نجد اللام، والراء، والنون، والميم، تصنف في المتوسط والشديد، وتصنف الباء والدال والقاف في الشديد فهي متقاربة من حيث صنفها، وإذا فحصنا نوعها فإننا نجدها كلها مجهورة عند سيبيويه، استثنى منها تمام حسان ومصطفى حركات حرف القاف.

أما إذا انتقلنا إلى الصفات الأخرى نجد الراء لها صفة التكرير التي لا يشترك معها في هذه الصفة أي حرف، وكذلك اللام له صفة الانحراف الجانبي التي ينفرد بها، ونجد حرفين هما الميم والنون، يشتركان في أنهما أنفيين، أما الدال فيتنصف بالترقيق، والقاف بالتفخيم. وتتصف أيضا اللام والنون والميم والراء بأنها من الحروف الجرسية⁴²⁹ أي أنها من الحروف الرنانة، كما أن الميم والنون يتصف بالغمّة، وهما في الوقت نفسه يعدان مع اللام أنصافا لأصوات اللين⁴³⁰.

هذا الاشتراك في هذه الخصائص الصوتية الفونولوجية أهلها لأن تظهر بهذه المعدلات المرتفعة في الشعر الزهدي المغربي، ولا عجب في ذلك فإن السهولة في النطق، والوضوح في السمع والغمّة والتوسط في الشدة أو التامة الشدة، والجهرية كلها خصائص تناسب القافية، وموقعها الإيقاعي ودورها في موسيقى الشعر وبخاصة إذا كانت رويا بما له من صدى جرسى مميز.

إن التركيز على التلقي السمعي للخبرات الجمالية كان واضحا في اختيار الشعراء لهذه الأحرف بمعدلات مرتفعة لأنها مجهورة كلها، وهي "أوضح في السمع من الأصوات المهموسة"⁴³¹.

فكانت من ضمنها اللام والميم والنون، وهي أكثر الأصوات الساكنة وضوحا، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين.

وتشترك معها الراء في نسبة وضوحها الصوتي، لأنها من أوضح الأصوات الساكنة في السمع، ويمكن لنا أن نقول أن هذه الخصائص الصوتية تساعد الشعراء في تحويلها إلى وسائل جمالية تحقق للخطاب ماهيته الشعرية. أما الحروف الأخرى الأقل تواتر، فهي تتراوح بين الرخاوة أو الهمس الشديد.

إن هذه التفاوت في استعمال الروي راجع إلى أن الحروف الشديدة والانفجارية واضحة وسهلة عند النطق بها، وتستعذبها الأذن بالإضافة إلى أن الشاعر بصنيعة هذا يرجع اللغة إلى بدائيتها وطفولتها⁴³².

429- مصطفى حركات-الصوتيات والفونولوجيا-دار الآفاق-الجزائر-د.ت-ص47.

430- عبد الله عبد الحميد سويد-أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث-مطابع الوحدة في ليبيا-ص62.

431- إبراهيم أنيس-الأصوات اللغوية-مكتبة الأنجلو المصرية-ط1-1984-ص238.

432- المصدر السابق-ص142.

وإذا كان أي إنسان ينشد السهولة والوضوح، فإن الشاعر في تكريره لهذا الصوت، عند نهاية الأبيات يفسر على أنه يبحث عن الاقتصاد في الجهد العضلي لإتمام النفس الشعري، في صدى ونغم وفواصل واحدة يحافظ على جمالية هذا العنصر الشعري الأساسي، وهذا ما يسمح للشاعر أن يمدد نفسه الشعري إلى أبعد حد ممكن في قصائده ومطولاته باختيار لهذه الحروف رويًا.

أما الصنف الثاني من الحروف فهي قليلة أو نادرة من حيث شيوعها بوصفها رويًا في الأشعار، وهذه الندرة ربما تعود إلى طبيعتها الصوتية الرخوة الانغلاقية⁴³³ والاحتكاكية⁴³⁴ التي تتطلب جهدًا عضليًا أكثر من النطق بها، ومن ثم فإن استعمالها رويًا في الشعر بطبيعتها المتكررة يضاعف هذا الجهد، ويصعب تحديد النفس الشعري في مثل هذه القوافي.

وخلاصة القول أن الشعراء لم يخرجوا في اختيارهم للحروف التي تصلح رويًا في منهج القدامى في تفضيلهم لحروف لما تنسم به من خصائص صوتية معينة تحقق مطالب فنية في أكمل صورها.

2/ أشكال القافية:

لقد كان حضور القافية المطلقة في الأعمال الشعرية بشكل مكثف، حيث طغى على معظم النصوص ما عدا ثلاثة فقط: نص لعيسى بن مسكين "العمرى يا شبابى لو وجدتك..."، ونصان لسابق المظماطمي (فلا تحفرن بييرا تريد أبا بها...، وكم صحيح بات للموت أمنا...، التي جاءت قافيتها مقيدة مجردة).

ونلاحظ أيضًا اتفاق الشعراء في الغالب الأعم في التوازن في اختيارهم العام، لهذه القوالب، فقد أكثروا من القوافي المردوفة، وبخاصة ما جاء منها بألف المد والتي تحقق جمالية الانسجام، ومن ثم الكمال الموسيقي، لكنهم في الوقت نفسه أكثروا أيضًا من القوافي المجردة التي تقع في الرتب الدنيا من حيث الكمال الموسيقي وبخاصة وأنهم لم يتحاشوا سناد التوجيه في أغلب هذه النصوص ذات القافية المطلقة.

ومن جهة قد استخدموا القافية المؤسسة والمقيدة المجردة، فالأولى تحقق الكمال الموسيقي والثانية تدرج في المراتب الدنيا، فمثلًا خذ هذا النص السابق (فكم من صحيح بات

⁴³³ - مصطفي حركات-الصوتيات والفونولوجيا-ص47.
⁴³⁴ -إبراهيم أنيس-الأصوات اللغوية-ص142.

للموت...)، وقف على ساكن واحد، فخرجت الدفقة الحزينة ناقصة، فالوقوف على ساكن واحد بتر للشحنة الحزينة لعدم استجابتها لكثافة الطاقة الشعورية التي يحملها في ذاته، فلو حورنا أواخر الكلمات في المقطوعة السابقة كما يلي:

فكم من صحيح بات للموت آما أتته المنايا بغتة وهو هاجع
فلم يستطع إذا جاءه الموت بغتة فرار ولا منه بقوته امتناع
فأصبح تبكيه النساء مقتعا ولا يسمع الداعي وإن صوته رافع
وقرب من لحد فصار مقيله وفارق ما قد كان بالأمس جامع

تصبح لهذه الكلمات التي فيها بتر للشحنة الحزينة (هجع، امتنع، رفع، جمع)، بعد تحويلها إلى هذه الكلمات (هاجع، امتناع، رافع، جامع) إشباع للنفس، فالمد بمثابة الصراخ والأنين والاستغاثة، وكسر لجو الرتبة الصامتة القصيرة، "فالوقوف على ساكنين أحدهما حرف مد يمنح فرصة التعبير عن عمق الحزن"⁴³⁵.

إن اجتماع الساكن الأصلي بالمد من الواجهة النفسية، يمكن للذات الحزينة أن تسرب الأحزان إلى الخارج في مدة أطول، عكس الساكن عند استعماله لوحده فهو يبترها.

إن شعراء المدونة لم يخرجوا عن المألوف، فلطالما كانت نسبة تواتر القافية المقيدة قليلة، وهذا ما جسده نصوصها الشعرية، كما أنهم بقوا يطبقون المبدأ الذي لا يرى الجمال والكمال الموسيقي إلا في وحدة القافية، مهما امتد النص واختلفت فيه الموضوعات، يقول ابن رشيق "وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ويكثرن منها، ولم أر متقدما حذقا صنع منها، لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه"⁴³⁶.

موسيقى الحشو:

1/التصريع:

يعرفه ابن رشيق فيقول: "بأنه ما كانت عروض البيت فيه تابع لضربه، تنقض بنقصه، وتزيد بزيادته"⁴³⁷.

⁴³⁵ - عبد الله العشي، الحس المأساوي في شعر صلاح عبد الصبور، رسالة ماجستير إشراف عبد اللطيف عبد الرحمان الراوي، جامعة وهران، معهد اللغة والثقافة العربية، 1984، ص 281.
⁴³⁶ - ابن رشيق، العمدة، ج 1، ص 182.
⁴³⁷ - المصدر السابق، ص 173.

وهو عبارة أيضا عن "مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها"⁴³⁸.

ويتواتر هذا النوع في المدونة الخاصة بالشعر الزهدي المغربي، ومن نماذجه:

زرننا منازل قوم لم يزورونا إننا لفي غفلة عما يقاسونا⁴³⁹

ففي مطلع هذه القصيدة الشعرية يشترك العروض، والضرب في تفعيلية واحدة هي فعلن، كما يشترك الشطر الأول من البيت في الحرف القافوي: النون مع الشطر الثاني من البيت الأول من المقطوعة الشعرية، ويسمى هذا التقابل بالتصريح المتوازن، والمتصفح لقصائد بكر بن حماد يجده لم يلتزم التصريح في مطلع القصائد أو في داخلها سوى مرة واحدة في بداية المقطوعة السابقة الذكر، التي نعى فيها تخريب تيهرت.

ولظاهرة "ندرة التصريح في شعره تفسيران: أولهما أن الشاعر لم يكن يهتم، بالتصريح عن وعي أو عن غير وعي ربما لأنه لم يكن شاعرا محترفا، أو لأن طبيعة المقطوعات لا تثير في الشاعر فنيا رغبة في التصريح، إذ هي خواطر تأتيه فيرسلها إرسالا، وثانيها أن يكون بعض شعره قد ضاع وخاصة الأجزاء الأولى من القصائد، حيث التصريح في البيت الأول، الأمر الذي تشير به بعض مقطوعاته، من مثل اللامية التي رثى بها ابنه عبد الرحمن والتي أولها:

وهون وجدي أنني بك لاحقا وأن بقائي في الحياة قليل

إذ يبدو وأن هذا القول عطف على بيت سابق⁴⁴⁰.

وقد تكرر هذا التشكيل التنظيمي عند سابق على وزن البسيط:

بسم الذي أنزلت من عنده السور الحمد لله أما بعد يا عمر⁴⁴¹

هناك تناسق إيقاعي، اشترك فيه عروض وضرب مطلع القصيدة في قافية الراء، وفي تفعيلية واحدة (فعلن).

ونرى أيضا هذا التصريح المتوازي عنده على وزن الوافر.

إذا كنت طالب كل ذنب ولم تحل أخاك على العتاب⁴⁴²

⁴³⁸ - تقي الدين عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص409.

⁴³⁹ - محمد بن رمضان شاوش، الدار الوقار من شعر بكر حماد، ص90.

⁴⁴⁰ - عبد العزيز نبوي، الشعر المغربي، ص141.

⁴⁴¹ - عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص9

نلاحظ اتفاق ومقابلة بين شطري البيت الروي (الباء)، واختلاف في الوزن.
وهذا نموذج آخر سابق:

إن كنت متخذاً خليلاً فتوق وانتقد الخليلاً⁴⁴³

وهنا نوع آخر يتسم بتكرير كلمة بالمعنى نفسه، ويعده القدماء من الإبطاء في التصريح⁴⁴⁴، حيث تكررت كلمة الخليلاً بالمعنى نفسه في العروض والضرب.

وها هي الظاهرة قد تكررت في غير هذه النصوص عند كل من الصواف، وأبو عقال في أبياته التي جاءت بعد بيت أحمد بن أبي سليمان:

سأل بس للصبر ثوباً جميلاً وأفتل للصبر حبلاً
طويلاً⁴⁴⁵

قريـن الحزن ذو هم يجول وأخو سهل إذا نام الغفول
لاح المشيب بلمتي فنعاني ونفسي الصبا عني ودم عناني
مناي وتسويقي بنفسي أذلها وأعلمها فيما عليها
بمالها⁴⁴⁶

نلاحظ في الأبيات الثلاثة الأولى تصريح متوازن، أما في الرابع والأخير تصريح متوازي، حيث اقتصر التقابل على حرف الروي في العروض والضرب، في حين اختلف تفعيله كل منهما، وهذا ما سنراه في الأمثلة التالية لكل من سعدون الورجيني:

عين ألم بها وجد فلم تتم تبكي بدمع كنظم الدر منسجم⁴⁴⁷

ولسعيد بن الحداد

رغبت بنفسي عن دني المكاسب وما أعجزتني حيلة عن مطالبي⁴⁴⁸

ولقد أضفى التصريح إيقاعاً حزيناً مشبعاً بالأين في هذه الحروف المكسورة -الميم

الباء- ولاحظ هذا التصريح عند حمديس القطان:

بيد الله دوائمي الذي يعلم دائمي⁴⁴⁹

442- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

443- المرجع نفسه ، ص 6

444- العربي دحو، الشعر المغربي، ص 193.

445- المرجع نفسه، ص 206.

446- نفسه، ص 203-204.

447- نفسه، ص 189.

448- المرجع السابق، ص 177.

انه يساهم في ترقيص الصورة وهو أيضا يثري إيقاع البحر ولونه ويكسر الرتابة ويضفي عليه شيئا من القلقة التي تشير باضطراب داخلي فهو يشكل نقطة ارتكاز يفرغ فيها الشاعر شحنة انفعالاته في نهاية الشطر الأول والثاني، كما جاء في هذا المثال لعيسى بن مسكين:

لا عمري يا شبابي لو وجدتك بما ملكت يمين لا رجعتك⁴⁵⁰

إن هذا التصريح وسيلة بلاغية صوتية فعالة تثير التعبير بنغمات مؤثرة تشد المتلقي وتهز وجدانه، وتبعثه على المشاركة. إن هذه النماذج المختلفة تدل على اهتمام واعتناء الشعراء بمطالع القصائد وفي ذلك تحقيق لأحد المطالب الجمالية والمعنوية عند القدماء.

ثالثا - الموازونات الصوتية:

1- تكرار الحروف:

يقول كولن: "انه استنساخ يتم بوسائل تكوينية خالصة لا تحمل دلالة ذاتية"⁴⁵¹، وهو يثير في النفس إحساسا جماليا لا يتحقق عند إدراكها منفصلة عن غيرها. ويتواتر هذا النوع في المدونة بنسبة عالية، ومن نماذجه نص تاهرت بعد تخريبها حيث نلاحظ تكرار حرف النون في مواقع الأسى والحسرة والألم الدفين، وارتباط كل ذلك بأنغام الشجو، ويظهر تواتره في ستة عشر موقعا، كما تبينه الترسيمة التالية:

نا	نا	نا	نا
نا	نا	نا	نا
نا	نا	نا	نا
نا	نا	نا	نا
نا	نا	نا	نا

هذا النموذج في الصوت النون بين الغياب والحضور، يكشف عن تموج معان الأسى و الألم في نفسية الشاعر بتضافره مع ظواهر صوتية أخرى وصرفية، ودلالية، فالصوتية يمكن الوقوف عليها في الأسماء و الأفعال المتضمنة لحروف مضاعفة (الزاد، الدتيا، خرب، حق) لأن هذا التضعيف يكشف المعاني، ويضيف العمق إلى التجربة الشعرية، ويوحى بطبيعة أصواته إلى سراديب وكهوف، ومغارات من الألم والأسى في نفسية الشاعر .

⁴⁴⁹ - المصدر نفسه، ص 176.

⁴⁵⁰ - المصدر نفسه، ص 175.

⁴⁵¹ - نبيل رشاد نوفل، العلاقات التصويرية بين الشعر العربي والفرن الإسلامي، توزيع منشأة المعارف الإسكندرية، 1933، ص 131.

2 - تكرار الكلمات والجمل:

تتكرر هذه الظاهرة في القصيدة الرائية لسابق بصفة كثيفة:

إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر
وأصبر على القدر المجلوب وارض به
فمن صفا لأمرئ عيش يسر به
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته
قد يوبق المرء أمر وهو يحقره
كل شيء له حال تغيره
والذكر فيه حياة للقلوب كما
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
المرء يصعد ريعان الشباب به
وكم من جموع شت الدهر شملهم
وكم من أصيد سامي الطرف معتصب
أبعد آدم ترجون البقاء وهل
لكم بيوت بمستن السيول وهل
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل
إذا قضت زمرا آجالها نزلت
ليس يزجركم ما توعظون به
أصبحتم زجرا للموت يقبضكم
لا تيطروا وأهجروا الدنيا فإن لها
ثم اقتدوا بالأولى كانوا لكم غرر
حتى تكونوا على منهاج أولكم
فكن على حذر قد ينفع الحذر
وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
إلا سيتبع يوما صفوه الكدر
وطالب الحق قد يهدى له الظفر
والشيء بالنفس ينمي وهو يحتقر
كما تغير لو اللمة العبر
يحي البلاد، إذا ما ماتت المطر
كما يجلي سواد الظلمة القمر
وكل مصعدة يوما ستنحدر
وكل شمل جميع سوف ينتشر
بالتاج نيراه للحرب تستعر
تبقى فروعا لأصل حين ينقعر
يبقى على الماء بيت أسه مدر
إذا انقضى سفر منها أتى سفر
على منازلها من بعدها زمر
والبهم يزجرها الراعي فتنجزر
كما البهائم في الدنيا لكم جزر
غيا وخيما وفكر النعمة البطر
وليس من أمة إلا لها غرر
وتصيروا وعدم الدنيا كما صيروا⁴⁵²

لقد عمل التكرار على إبراز نقاط الإثارة في النفس، ونوع من الإيقاع وأثراه بحيث شكل

نوعا من الهندسة الصوتية كتلك الهندسة الأمامية الفاتحة لهذه الأبيات:

⁴⁵² - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

وكم من جموع
 وكم من أصيد
 أو الهندسة الوسيطية في:
 أبعد آدم وهل
 لكم بيوت وهل

ولا ننسى ترجيح صدى قافيته في ألفاظ القصيدة ليعمق بها الإصرار على الموافق والرفض للدنيا والثبات والتحدي والثورة عليها، أما السين فتنبعث منه موسيقى مليئة بالحسرة والألم.

وهذا مثال آخر لسابق لتلوين النص بإيقاع إضافي إلى جانب الوزن والقافية والروي:

نلهو ونأمل أياما تعد لنا سريعة المر تطوينا ونطويها
 لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة حتى يقوم بناي القوم ناعيا
 ولن تزال طوال الدهر ظاعنة حتى تقيم بـواد غير واديا
 أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر
 نبيها⁴⁵³

ونلاحظ تردد حرف النون في حشوها فيصدر نغما منبعثا من غنة هذا الحرف، بالإضافة إلى حرف الهاء أيضا، الذي يبيت من خالهما الشاعر آلامه وغضبه من هذه الدنيا، وأمله وشوقه إلى عالم أرحب وأطهر، وثمة ظاهرة إيقاعية أخرى تتمثل في الإكثار من حركات الكسر في أواخر الكلمات سواء المتلبسة بحرف من حروف الجر أو التي أتت في أواخر كلمات الضرب:

بينما المرء أمسى في أهله معجبا بالعيش ذات
 أنق⁴⁵⁴

وفي نص آخر:

لئن عرف الإخوان عن نزاهة وخلفني عنهم نصيبهم من الفقر⁴⁵⁵

وقد يريد الشاعر من التكرار طرح أفكار تلح عليه ولا يريد أن تبقى غامضة في سرها فمثلا فكرة الموت طرحت في غير موضع وكذلك تساوي الأحياء التي طرحت بتفصيل، وليس

⁴⁵³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 4

⁴⁵⁴ - المرجع نفسه، ص 8

⁴⁵⁵ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 203-204.

هذا التفصيل من سبب أيضا إلا أن الشاعر يريد أن يعبر عن خوالج نفسه وخواطرها مما يبعث فيها الراحة والاطمئنان.

يقول أحمد بن أبي سليمان:

وليس مؤلف قولاً حكيمًا
يزخرف قوله لينال دنيا
فلا تشغل بقول غير قبلي
فدع عنك المذاهب واتبعني
وفي تعليمه علماً عليماً
ولم أجزع وللأيام صرف
ولم أفراح لأن لها انقلاباً
وإنني إن توالى فجوعها
إذا كان الفتى عني غنيا
أواصله إذ يبغى وصالني
أرى يوماً يجيء كل خير
كذا أحوال دهرك حال أمن
وكم ملك عظيم ذا اختيال
وكان مداه ذا خطر عظيم
ومن ذاك التملك والتعالي
من طالب للمال يسعني
فصار يود أن لو كان أضحى
وعاد يود أن لو كان أمسى
إلى: نار تظيها شديد
كأنني بالبكاء على فاش
إلى دار البلى حملاً سريعاً
كآخر قائلًا افكا وزورا
إذ ما نالها نال الغرورا
فما في النفع كان له نظيرا
متابعة تجد خيرا كثيرا
و في تأديبه سترا ستيرا
يعود عسيرها سهلا يسيرا
يعيد يسيرها صعبا عسيرا
لجلدا صـبورا
فلست إليه محتاجا فقيرا
وأمنحه إذا قطع الدبورا
ويوميا بالحوادث مستظيرا
وحال تجزع البطل الجسورا
أعد خزائنا وبنى قصورا
فصار مؤجلا أجلا قصيرا
وسكن قصره سـكنا حقيرا
ويركب في مطالبه البحورا
على تفريق ما يحوي قديرا
وليس بمالك منه نقيرا
وتزفر في تغطيها زفيرا
وقد حملوا بجثتي السريرا
وينصرفون عن قبري نفورا

يعيد الشاعر كلمة القول عدة مرات ليبين لصاحبه أن هناك فرق بين القول الجيد الذي ينفعه والقول الذي يضره، وكلامه من النوع الأول الذي يفيد، ثم يكرر النيل 3 مرات ليوضح إلهام الإنسان على نيل الدنيا، لكنه لن يحصل منها إلا على السراب وغرورها واعتزازها وافتخارها بقوتها، لذلك يدعو إلى عدم الانشغال بها.

يوصل تكراره لكلمة "رأي" في بداية الأسطر ليؤكد لصاحبه أنه متحقق مما يقول لأنه ينطق عن خبرة وتجربة، وهذا التكرار بمثابة منبه يشير إلى أنه استمر في التفكير وملاحظة نقصان العمر لفترة طويلة وفي تأمله الحياة فكانت تلك الحقيقة الماثلة أمام عينه.

أما ترداد (الأيام الليالي-الشهور-يوما-الحوادث-دهر) توضح مدى تأثيرها في الإنسان وتأثره بها، فهذا الإحساس بتغير الدنيا وتقلبها يهدم الإنسان من الداخل والخارج أيضا، ويخرسه ويبعده عن الواقع فهو شر والأشرف منه الإحساس بغدورها، وبالتالي الخوف الذي يجعله مضطربا غير مستقر لا يتذوق الحياة، ولا يشعر بالسعادة فيفقد الأمان والاطمئنان.

لقد رأى تغير الزمان وتجده الذي لا يبقى على حال لأحد فجاءت كلمة الحال (المفردة والجموع) متكررة في البيت لتجسد هذا التبدل الذي لا يخصه بصفة مؤقتة وإنما بصفة دائمة فكلمة أحوال توضح أن تبدلها دائم وليس آني.

ثم أن الشاعر لا يكتفي بذلك فيأتي بالدليل والحجة الدامغة لكي لا يقع صاحبه في حيرة وشك، فطالما رأى الملوك الذين ظنوا أنهم ملكوا ناصيتها بما منحتهم الحياة لهم لا يلبثون إلا لحظات لتهوي تلك العظمة.

وكلمة العظمة التي أسندت للإنسان كإحدى من صفاته ما هي إلا إشارة في الواقع إلا تلك القوة لهائلة والمروعة التي بحوزة الزمن، فهي تحيلنا إذا إلى عظمة الزمن لا البشر التي أوهمته بأنه يمتلك من القوة ما يمكنه من قهر الزمن والانتصار على قوته العظيمة والهائلة بتلاعبه به لفترة ثم رميه بسهامه السامة والقاتلة لترديه صريعا، فقد كانت تؤجله لفترة قصيرة، ثم تضرب ضربتها.

تمنحه من الأشياء ما جعله يهدأ جزعه منها، فكلمة السكن تشير إلى أن هذا الإنسان يعيش في سكينة واستقرار واطمئنان من الزمن وعدم غدره، في تيه ويغفل عن الأشياء الهامة في حياته ويشغل نفسه بأشياء لا قيمة لها.

تلهيه وتحجب عنه الحقيقة، فكثرة المطالب توضح تيه الإنسان وغيه لأن حب المال وجمعه وكنزه إذا تحكم بالنفس البشرية جعلها وجعل تصرفاتها أسيرة عنده فتلهيها عما هو أهم وتغفل عن أيام العمر وهي تتسرب منه وتضيع يوماً بعد يوم، فتذهب سدى لا عمل صالح ولا ذكر حسن، وعندما يستفيق من غفلته يعرض أصابعه ندماً على ذلك، فبعدما كان يأمل في الحصول عليها أصبح يأمل لو ينتقي ما فعله، وهذا يوضح تأثير المال في نفسه، وقوتها الكبيرة التي تجذبه إليها، وفي المقابل تلك الحسرة الهائلة التي تصاحبه عندما يستفيق على صوت النيران المضطربة، وزفيرها لدلالة على كثرة ما يحترق من أجساد، فذلك اللحم والعظم المشكل للجسد المحترق يحدث أصوات على شكل انفجارات صغيرة، وترتفع هذه الأصوات كلما كان هناك المزيد من تلك الأكوام المرمات في النار، والتي بدورها يزداد لهيبها وتضطرم أكثر فأكثر.

وربما هذا هو المصير الذي ينتظره إن فارقت روحه جسده وأعلنت عن نهايته في هذا الوجود شاء ذلك أم أبي، ويأتي ترديد كلمة (الحمل) لتدل على نقله من الحياة الدنيا إلى الموت تقبل ذلك أم لا؛ فالحمل هو نقل الشيء من مكان ووضعته في مكان آخر سواء كان ذلك الفعل بمحض إرادة الشخص أو مجبراً مكرهاً على ذلك.

يقول القفصي:

وما الدهر إلا ليلية بعد يومها	ونجم تراه طالعا ثم آفلا
وقرن جديد خلف قرن ودولة	تعاقب أخرى لا يزلن شواملا
فلوصح لي عقلي بما أنا واصف	لبت وجبني لا يمل قلاقلا
ولو صح لي عقلي لحزت خلائقا	أباري بهن الصالحين الأفاضلا
ولو كنت من داري على كنه علمها	وقد ذوقت مني اللهاة حناظلا

لأعرضت عنها حين أولت إساءة
 ولو أن لي قلبا يعي لتقطعت
 ولو أن لي سمعا لقد أسمع البلى
 ولو أن لي عينا ترى ما بدالها
 ولو أن لي نفسا على عزيزة
 ولو أن لي أنفا حميا لحاد بي
 ولو أن لي رأيا يعاش بمثله
 ولو أن لي سعيا جميلا لمال بي
 ولو أن لي أدنى حياة لهدني
 ولو أن لي حسا لأحسست للبلى
 ولو أن لي حزما لأعددت جنة
 من البر، إن البر للمرء معقل
 وجازيتها بالصاع صاعا مكايلا
 علائق دنياتي فبتن زوائلا
 لبت منه المنذرات العواذلا
 لأجرت بنحري من دموعي جدولا
 لكسيتها تلك الكسوب الأماثلا
 عن الرق للدنيا على العنق مائلا
 تخيرت أحوالا به ومنازلا
 إلى الكد حتى يترك الجسم ناحلا
 وداعي أترابا وخذنا مواصلا
 دبيب بجسمي قد أحال الشمانلا
 بها أتوقى الحادثات النوازلا

 456

هناك تكثيف لأسلوب التمني واحتشاد لهذه البنية، فالمطلوب هنا هو الخلاص مما فيه،
 بما أن الحياة ما هي إلا ميلاد وموت، وقد جسدتها كل من ظواهر الطبيعية (الليالي، أيام، نجم،
 قرن، دول، الدهر)، والتي هي إحدى لوازم الزمن، حقيقة لو كان قد استخدم عقله قلبه وسمعه،
 عينه ونفسه، أنفه وحسه، واستهان بالرأي السديد والسعي الجميل والحزم لعنفته الدنيا وحادي
 عن الرق وتبيعته لها، فمخلصه لما هو فيه البر والتقوى- هذا الذي يفوق المعامل كلها، ويقول أبو
 القاسم الفزاري:

وليس يؤدب الإنسان شيء
 فكل مؤمل أمل طويل
 عجت لفتنة أعمت وعمت
 كتأديب الحوادث إذ تدور
 وعمر لـ أو تأمله قصير
 يقوم بها دعوي أو
 كفور⁴⁵⁷

⁴⁵⁶ - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص274.

لا شيء يجعل الإنسان يفتح عينيه ويعي الوقائع، وما يدور ما عدا صروف الزمان وتقلبها، فالإنسان يرغب في الحصول على كل شيء في المقابل عمره لا يكفيه لتحقيق كل أمنياته، بما أن الخلود من المستحيلات...، ومن ضمن هذه الآمال اختفاء جور الفاطميين وسلطتهم وسطوتهم، ففتنهم عمت وطالت الكل، وهذا لم يستوعبه عقله وقلبه، فجاء التكرار ليوحى بالضغط الذي يعانيه الشاعر من المعاني الذي جاءت مكررة، وما لجوءه أيضا إلى الغلو والمبالغة إلا تعبيراً عن انفعال قوي وعاطفة شديدة يشعر بهما فهو متأثر بأمله أشد التأثر، ومتعلق به غاية التعلق فمواجهته لا تدرك، فليس له أن يطمع فالوصول إلى قهر الشعبية أكبر منه ومن قدرته، ويقول أحمد بن أبي سليمان:

سأل بس للصبر ثوبا جميلا وأفتل للصبر حبلا طويلا
أصبر بالرغم لا بالرضا أخلص نفسي قليلا⁴⁵⁸

مفتاح ما هو فيه ومخرجه منها هو الصبر، فمن صبر نجا من محنته، وإزداد بأسا وصلابة، وهو يدل على قوة الإنسان المعنوية وثباته، وكذلك على إيمانه العميق بالله، ورضاه بقدره، وعلى رجاحة عقله، وتحكمه في زمام عواطفه.

وقد وظف الشاعر كلمة الصبر ثلاث مرات في النص: "الصبر الصبر، أصبر" وذلك يدل على الأهمية العظمى التي يوليها الشاعر للصبر، ومدى إلحاح الموضوع عليه نفسيا.

فالصبر على الخطب والمحن أمر يدعو إليه العقل السليم الراجح، لأن الصبر يهونه وإن عظم، ويسيره وإن صعب ويجعل خسائر أقل، أما الجزع فيهبئ النفس ويذلها ويروعها يهول ويعظم الخطب ويعمق الإحساس به؛ والإنسان يوظف هذا السلاح الفعال للخروج من المآزق والمكاره في حال أصلب وأقوى فمصائب الحياة كثيرة ومهونها الصبر لأنه مفتاح الفرج، وتكرار كلمة (قليلا) مرتين يؤكد أن الخلاص لن يكون سهلا ويسيرا، وقال أيضا:

لئن كان المشيب أتى نذيرا فإني سوف أدعوه بشيرا
فأهلا بالمشيب لنا لباسا وقارا ستزيد له وقارا⁴⁵⁹

457 - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 267-268.

458 - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 193.

459 - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 199.

تكرار (المشيب) إبداء الشاعر اتجاهه واضمار ما في النفس، فلطالما الشيب تحكم في الإنسان وسلب نظرتة منه واللهو والسرور، وما يزال فقد أثر في الشاعر وإن أصبح اليوم في هذه الحال، فهذا من حسن حظه أن أدرك الحقيقة التي لطالما غابت عنه، فهو غير آبه لظهور الشيب وإنما هو سعيد لذلك، لكشفه الحقيقة التي كانت مغطاة، والتي أغفل عنها، ولـه أيضا:

وكنـت قريبا إذا دعنتي ابن عمها فلمـا دعنتي عمها كنت مبعدا
رأيت حليم القوم فيهم مقدما و من نال علما نال جاها وسوددا⁴⁶⁰

تكرار عمها يوهم بالاشتراك في المعنى، والواقع أنه مختلف متباين فهو يعمد إلى هذا التشكيل ويصنعه، ووظف للتأثير في المتلقي ويشده إليه ليشاركه، وهو أيضا كشف لهواجس الشاعر وبؤر الاحساس لديه، فلعبت دورا في إبراز المعاني التي تلح على ذهن الشاعر، لفعل الزمن به.

فجاء النص مشبع بالمرارة التي يتجرعها وهو صابر، وتتجلى ظاهرة الحزن في ثايبا النص ومصدرها "فقدان العلاقة التي تجمع بين ما تريده الذات، وما هو موجود على أرض الواقع، وأن هذه المفارقة في نظام الوجود تبدو للشاعر أشد ما تكون حدة، وهي تنعكس بدورها على نفسه فتسبب للذات عذابا مضنيا"⁴⁶¹.

فراه يصرخ بملأ في وجه المغترين بالدنيا، فهو يظهر جانب من جوانب انبهار الإنسان بمفاتها وتسخير العلماء العلم لنيل الجاه والسؤدد وهذا ما يدفعه الوقوع في براثنها وهذا ما لم يستسغه فتأججت أعماقه بالغضب اتجاه هذه الفئة من البشر، فكان الشعر بذلك إسقاط للذات وتصوير لأعماقها الثائرة، ويقول عيسى بن مسكين:

لعمرك يا شبابي لو وجدتك بما ملكت لأرتجعتك
ولو جعلت لي الدنيا ثوبا وما فيها عليك لما وهبتك
فقدتك فافتقدت لذيذ نومي وطيب معيشتي لما فقدتك

⁴⁶⁰ - القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص274.
⁴⁶¹ - عز الدين إسماعيل، الشعر في إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت، لبنان، 1974، ص176.

ونحتك وانتحيت عليك دهرا فلم تغن النياحة حين
نحتك⁴⁶²

تكرار كلمة (لو) مرتين والفقء ثلاث مرات (فقدتك، افقدت، فقدتك)، والكاف مرتين في كل بيت من هذه الأبيات، والنواح أربع مرات (نحتك، انتحيت، النياحة، نحتك).
حرف الكاف الدال على المخاطب يجعل الفقء والنياحة حاضرة ماثلة، وهي تقريع في كل مرة.

ما دامت الأوضاع هادئة، فالذات ما تزال تتحمل العذاب، ولا تملك إلا التمنى سلاحا بيدها فتتمنى أن يزول هذا الشيء فتفترض إمكانية استرجاع الشباب فسترسل في الخيال والتخيل ماذا لو تحقق ذلك ماذا ستفعل، فنراه ينوه بفترة من عمره الإنسان، ويرى أن حسنها لا يضاهي ونضارتها لا تماثل، فهي مرحلة الطموح والعمل وتكوين الذات، وإذا ما انقضت هذه المرحلة من عمر الإنسان فإن اللذة تقل والإحساس بالحياة يزوي، فلا نعلل النفس بأن لكل مرحلة من عمر الإنسان لها ميزاتها ونظارتها لأنه لا مثيل لروعة الشباب، فيصور لنا فزع الشاعر إلى البكاء واكتشافه بعد مدة من أنه لا ينفع شيء إنما هو دلالة حزينة باكية تعمق مأساة الشاعر أكثر ما تفرج كربيه وتوضح عجزه التام وضعفه الشديد أمام خصمه الذي يواجهه ولن يتركه غلا بعد أن يقضي عليه، يقول سحنون:

لمنزلة الفقيه من السفية كمنزلة الفقيه من السفية⁴⁶³

يحث البيت عن التعلم والبحث واكتساب المعارف لأنه بفضل ذلك يتحقق الإدراك والوعي وتزول النقائص والإبهام وتشرق وتكمل أما من نأى عن العلم والعلماء فإنه يبقى ناقصا فالنفس تصقل بالعلم الذي يزيل الشوائب عنها فتبدو نظيرة مشرقة عكس الجهل والجاهل، وشتان بين هذا وذاك، و يقول عبد الله بن غانم القاضي:

سيعرض عن ذكرتي وتنسى مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل⁴⁶⁴

إن هذه التعابير القائمة وعوالم الموت التي يتحدث عنها إنما هي صدى لذاته المتصدعة أفرزت هذه الدقة في الإحساس والتعبير عما يرى وما لا يرى فهذا الاستسلام للمصير القاتم

⁴⁶² - العربي دحو، الشعر المغربي، ص175-176.

⁴⁶³ - القاض عياض، تراجم أغلبة، ص129.

⁴⁶⁴ - المصدر السابق، ص19.

الذي يبدو في النص ما هو إلا دليل على شغف الشاعر بالحياة التي أحس بانفلاتها منه، فهو يجمع زمن حياته ويكتشف أنها ماضي عاشه ولم يشبع منه، وحاضر غير مضمون، وغد لم يلبه الليل ما دام الحاضر لم يحضر فيه المستقبل فيتلاشى عنده الغد ويتعاضم معه شعوره باليأس ذلك الغد الذي ينسى ذكره ومودته من طرف خلانه، ويقول محمد بن حمزة الربيعي:

الموت لا بد آت فاستعد له إن اللبيب بذكر الموت مشغول⁴⁶⁵

نستشف من تكرار الموت في هذا البيت شدة المعاناة التي هي انعكاس للعجز الذي يعيشه نفسياً، وأمام هذا الواقع الحزين لا يملك إلا أن يصارع الحياة مفتشاً عن نفسه الضائعة في سديم الكون ووسط بؤس حقيقي يعيشه الشاعر.

فتلك المخاوف التي يبثها والتساؤلات المطروحة تضيء نوعاً من العجز واليأس الذي بدأ يعيشه، ولم يكن بوسعها تقاديه، وما هذه الصورة إلا تنفيس عن النفس العليقة بالقلق والمسكنة لها ولمواجعها، يقول أبو الأحوص:

أبو أن يرقدوا الليل فهم لله قوام

أبو أن يفتروا الدهر فهم لله صوام

أبو أن يخدموا الدنيا فهم لله خدام⁴⁶⁶

تكرار "أبو أن" ثلاثة مرات وكلمة (فهم لله) بنفس العدد لدلالة على أن المقاومة شديدة جداً من طرف هؤلاء اتجاه الدنيا والدافع هنا قوي جداً أيضاً، وهو جعل أنفسهم رهناً للخالق دون غيره لكسب رضاه ومحبته، ولا ينتأى ذلك إلا بالزهد فيها والإكثار من العبادة والتفرغ لها،

وفي هذا السياق يقول حميدس القطان:

بيد الله دوائبي الذي يعلم دائبي

إنما أظلم نفسي باتباعي لهوائبي

كلما داويت نفسي غلب الـداء

دوائبي⁴⁶⁷

⁴⁶⁵ - المصدر نفسه، ص 328.

⁴⁶⁶ - المصدر السابق، ص 303.

⁴⁶⁷ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 176.

هناك تلاعب لفظي بكلمتي الداء والدواء، بحيث نرى تكثيف لدلالاتها، وذلك للتأثير في المتلقي وشده إليه ليشاركه في لعبته اللغوية وإضفاء عنصر المفاجأة بما يصادفه المتلقي من مفارقات من جهة أخرى.

وهذا الحضور المكثف للدواء والداء ما ذلك إلا دلالة على الحضور المتميز والمستمر في عمق الشاعر، فهو متوكل على الله في شفائه إن أصابه الداء وإن أعمل في استخدام واستحضار الأودية اللازمة لن نكون له ذلك إلا بمشيئة الله وحده فقط، يقول أبو عثمان سعيد بن حداد:

فإن لم أنل دنيا فقد نلت همه تنزه نفسي عن دني
المطالب⁴⁶⁸

الشاعر بشعره المرهف يحس بقسوة الحياة على الذات ووطأتها فهو يشعر بعبثيتها، فمما هذا الشعور وتبلور فوعاه، وعيا كاملا ابتداء من إغراءاتها إلى مراوغتها ومكرها وخداعها، وبذلك تحول إلى صوت ينادي بضرورة التغيير والثورة على هذه الأوضاع نتيجة الانقباض والألم الذي أصابه كأن يكون ذلك من جراء خيبات الأمل فكان لا بد من وضع حد لهذا في تكافئ بين الحياة والموت، وأصبح من الضروري أن يكشف عن أذرع الأخطبوط التي تطبق على أنفاسه وتكاد تخنقه، وإذا تصفحنا النص نجده يستهجن التهافت على الدنيا ويمقتها ويدعو إلى الابتعاد عنها كما هو واضح أيضا في هذا النص :

ما ارتكابي السعي لبسط وزق لا الخفض قاطعي عن نصيب
أراه كأن عيني لا تراه أعرض عنه أعراض
الملول⁴⁶⁹
وله: يمنعني من عيب غيري الذي أعلمه من العيب
إذا كان عيبي غاب عنهم فقد أحصى ذنوبي عالم
الغيب⁴⁷⁰

⁴⁶⁸ - القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 361.

⁴⁶⁹ - المصدر السابق، ص 361.

⁴⁷⁰ - المالكي رياض النفوس، ج 2، ص 107.

تكرار حرف النفي (لا) دلالة على أن الخفض ينفي الدوال الأخرى، وهو تكريس لواقع الذات وما تواجهه من معاناة لترك الشعر وطلب الرزق، وله في ذلك همة يتيها بها على أهل الدنيا.

ثم نرى كلمة العيب على الظهور، فانشغال بعض الناس بتتبع عورات غيرهم ونسيان من فيهم من عيوب يحسب عليهم وليس لهم، فقد نسوا أن هناك رقيب على كل شيء وهو الله الذي يعلم ما تظهر وما تخفي السرائر، ومن كثرت عيوبه زادت همومه ومشاكله ومخاوفه من نتائجها، لذلك نرى الشاعر نسب العيوب إلى نفسه بالحق ضمير المتكلم (الياء)، وهي تفرغ له على تغافله وانشغاله له بأشياء تافهة أصبحت الآن تؤرقه فأصابه بذلك الجزع من عقاب الله عز وجل،
وله أيضا:

ما زلت من حادثات الدهر معتجبا حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة
لا بـارك الله في عام وفي سنة كانت لشر زمان كان مختبئه
عادت أسافله طرا أعاليه ولا أعالي إلا وهي
منكفة⁴⁷¹

يشكو الشاعر الدهر وصروفه ونكباته فهو قوة لا تقهر فلا يستطيع الشخص أن يطوعه لصالحه لذلك نراه يذمه ويهجره لأنه يرفع الصغير، ويحيط الكبير، ولا يحترم القيم.
ويذكر الشاعر الزمن بالدهر والعام والسنة والزمان لكننا نراه يوظف كلمة الثلاثمائة، وهو يعنى في هذا السياق الزمن المنسوب إلى الحياة التي يعيشونها فهو محدد وليس مطلق، ولذلك فالذم والدعاء عليه مقترن بهذا العصر الذي يعيشه الشاعر.

ينهي الشاعر أبياته بنبأ عظيم هو كارثة على القلب وقلب الموازين، وعبث في سنن الكون المنتظمة ذلك هو علو شأن الصغار، فأى زمن هذا الذي يرفع الحقير الوضيع ويضع الماجد الكريم، والخبر ساقه الشاعر مشحونا بالتعجب والانكار في البيت الأول وجاء البيت الثاني ليتوج ذلك بدعاء على العصر بالزوال والهلاك وفيه سخط ونقمة وذم كبير، لا شك بأنها فكرة إنسانية تكشف عن غربة الشاعر في عصره، لأن الإنسان جزء من حركة الدهر وهو منقاد لمشيئة مجبر على تقبل سريانه لا يستطيع التبديل والتغيير، وقال أيضا:

⁴⁷¹ - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص110-111.

كم عساني أعيش كم كم عساني
 بعد سبعين حجة وثمان
 كم عساني أبقى على الحدثان
 قد توفيتها من الأزمان
 فابكيانني هديتـما
 وانعاني⁴⁷²

نظرا لما في الزمن من مصائب وهموم راح الشاعر يبدي تذرره ويجأ بالشكوى، فالدهر يرفع الأسفل وينزل الأعلى فينعكس القيم ويقلب الأوضاع السليمة، فينطق بذلك في الحكم على الدهر من خلال تجربته الذاتية يعممها ويسوقها في شكل نظرة صائبة.

وما تكرر (كم عساني) لدلالة على عجزه أمام الدهر، فهو يجهل ما يخبئ له الزمن وكم سيمهله من مده ليوجه له ضربته الأخيرة، إنه لا يؤمن له جانب فقوته جبارة وطاغية ستدفعه ولو كره إلى مصير لا يرضاه ولا يحبه، فكل ما فيه من مصائب وشقاء هو المتسبب فيما هو فيه، لذلك نجده يحذر غيره من تقلباته ويدفعهم إلى مثل ما هو فيه وهو الاستسلام لقضائه وتكرار الضمير (الياء) يشير إلى أن التجربة خاصة بالشاعر، فهو يدعو أحبابه بعد موته رثاؤه وتخليده بالكلمة الطيبة في هذه الحياة التي عجز في الواقع على الرغم من تعميره فيها طويلا في تحقيق خلوده الجسدي، ومن ثم لم يصل إلى غايته المنشودة لكن تفكيره في تخليده بالكلمة الطيبة بعد فنائه هدا من روعه وجعل نفسه تطمئن وخلق فيها ذلك التوازن الذاتي العاطفي والعقلي فركن للاستسلام لقضاء الدهر والموت، ويقول سهل الوارق برثييه:

حياة الفتى ما عاش بؤس وحيرة
 ومر الليالي قد يستر ويفجع
 كأن خطوط الدهر بيني وبينها
 سوائف ثأر فهي بي تتوقع
 لقد كنت جلدا في النوائب صابرا
 على حادثات الأيام ما تتضعض
 فإن العزا والصبرا يوم فراقه
 ومن فارق الأحباب بأسى ويجزع
 وبان اضطباري عن حبيب فقدته
 فكيف وما للصبر في القلب
 تجرع كأس الموت وهي كريهة
 فمالي بكأس الحزن لا أتجرع
 يؤرقني طيف لعثمان زائر
 إذا هجع النوم يسري وينزع
 يؤرق عيني من لذيذ غموضها
 فليس لها إلا سهاد وأدمع
 عجت لنفسي بعده كيف لم تمت
 وما بحياة بعد إذ مات أصنع

⁴⁷² - المصدر نفسه، ص 110-111.

فلو كان شيئاً كان يفدي فديته وهيات ما في الميت للحي مطمع
أريحانة قد صرت ريحانة الثرى فأضحى البلا في جسمك الغض يسرع
ألا يأبى الغصن النضير الذي ذوى فعينى على تلك النضارة
تدمع⁴⁷³

شغل موضوع الحياة والموت الإنسان منذ العصور الغابرة ولا يزال يشغله وعبر عن هذا الانشغال بصور متعددة من بينها الشعر، فكان للشعراء المغاربة نصيب من ذلك بحيث نظروا إليها وعبروا عن ذلك بطريقة جميلة تتم عن رقي فكري صاحبه إحساس مرهف رقيق ونظرة ثاقبة فجاءت أشعارهم تعبر عن تجربة خاصة استمد قوتها من واقع الإنسان وحياته المعاشة، وفي الوقت نفسه تعبر عن ذوات الآخرين.

وحينما يقف الإنسان وجها لوجه مع الموت ويشعر بضعفه وعدم حيلته أمام هذه القوة الغيبية القاهرة يفزع ويهلع وتطير نفسه شعاعا يخلع فؤاده، وترتعش أوصاله ويتمسك بالحياة بقوة، ولكن هيات، وعن لحظة المواجهة بينه وبين الدهر يحدثنا الشاعر بأنها سوائف تأر.

وينسب إلى الدهر (مدة الحياة الدنيا كلها) المصائب والمحن، فقال خطوب الدهر، النوائب حادثات الأيام، ورأو فيه القوة والطغيان والسرمدية والدمار قال تعالى: "ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"⁴⁷⁴.

فهو يفني ويبيد ويدمر الحياة، ولا يبقى معه شيئاً، حتى سعيد بن الحداد كذلك نراه يشخص الصبر بأنه شخص خائف وجزع، فالموت أمامه صغير ووسيلة من وسائل الدهر، فالنفس تدرك أن خصمها قوي عتيد وأنها ضعيفة هينة أمامه، لذلك يدعو ويحث نفسه على الصبر والثبات والمواجهة لفقد سعيد بن الحداد إلا أنه أصابه الجزع والأسى والحزن على فقده.

وتكرار كلمة (الفراق، فراقه، فقدته) ثم الصبر (جلدا، صابرا، الصبر، اصطباري) لدلالة على معاناة الفقد وتكلفه الصبر (اصطباري)، ثم نراه يتساءل ويتعجب لتقبله فكرة الموت واستلامه للقضاء والقدر في المقابل ذلك لم يستسغ فكرة فقدان عزيز، فتكرار كلمة التجزع والكأس لدليل أن تقبل فكرة الموت كان شيئاً فشيئاً، ولم يكن ذلك دفعة واحدة، كما يرتشف الشخص ما في الكأس سواء كان ماء يحييه أو عسلاً ممزوجاً بالسم يقتله.

⁴⁷³ - المالكي، رياض النفوس، ص 112-114.

⁴⁷⁴ - سورة الجاثية، الآية 24.

تكرار (اليؤرقني) يوضح أن فراقه شيء ليس بالهين عليه، فعدم تقبله لذلك جعله يتخيل وجوده، فهو يزوره كلما غفا النوم، فقد انتزع منه الراحة فأضحى ساهرا قائما طوال الليل لا يمتع بلذيق النوم، فتكحلت العيون بالدموع المنهمرة حزنا وتفجعا عليه.

ثم يعاود ومرة أخرى التعجب لبقائه حيا بعد موته ثم نراه يمضي نفسه لو كان هو المفقود وليس سعيد بن الحداد، لكنه يدرك الحقيقة أن للميت لا رجعة، فخلود الإنسان أمر مستحيل. ثم استهل الكلمة المكررة ريحانة بالهمزة (أ): وهي نداء القريب للدلالة أنه قريب منه، مستقرة في قلبه بالرغم من ابتعاده عنه، فقد صار في الثرى وما حزنه وجزعه إلا على فقده وهو في ريعان الشباب، فتكرار كلمة (النضارة) تدل على المفقود مازال في إشراقه.

ويقول بن زرزر الفارسي:

وأيقن المشرك الداعي له ولداً بأن الله لم يولد ولم يلد

وفي الخلود نعيم غير منصرم ياق بقدرته ياق بلا

امد⁴⁷⁵

تكرار الولادة (ولداً، يولد، يلد) يعرض الشاعر بالضال الذي ينسب إلى الله أبوة أو بنوة.

أما تكراره للبقاء [ياق، باق] يؤكد أن ثم نعيماً سرمدياً أعده لأهل الطاعة، ويقول أبو عقاب:

ولا تله بالموبقات التي أبادت بوائقها من تهادى

⁴⁷⁵ - إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 141.

إلى أن تناهت حدود القضاء
فجلى القلب إظلامه
وأسقطت لومي عن العالمين
فمن دام دمت له في الوفاء
وممن تاه تهت بهن لا يذل
فلم أر عيشا كعيش القنوع
وانفذ سلطانـه ما أرادا
وأبور ما كان منه سوادا
فمن شاء ودّ ومن شاء عادي
وزايدته أبدا ما استزداد
به من أعز ولا من أسادا
ولم أر مثل التقى لي
مرادا⁴⁷⁶

يخاطب الشاعر من يأمل صفوا العيش ويرى أنه على صواب فيقرعه ويصفه بالضال وكل من يتوقع بقاء صفوها، ويؤمل دوام خيرها وعزها فهي لا تلبث أن تظهر له المحن وتتسع من أسعدت، وتبعد من قربت.

وما هذا إلا تصور سلبي أسود للعيش وتشاؤمها قاتما غطى كل ما فيها من حسنات، حتى أعطياتها صارت سلبية، وفيها انكسار وضعف وخنوع، فتراه ينهأه على مواصلة في غيه، ويتضح اليأس والألم والأسى من خلال الحكم أن كل ما يقوم به "موبات" وتزداد نظرتة سوادا وتصوره قتامة، ويأسه من الدنيا قنوطا عند حديثه عن إهلاك وإيابة بوائقها كل من يسعى ورائها.

هكذا كان هو أيضا إلى أن انقشعت تلك الغشاوة من على عينيه وقلبه وهدأ من روعه وحل محل ذلك التوافق والتوازن فانتزع بذلك كل ما علق من حب الدنيا وشهواتها وزهد في كل ما فيها، فاستبدل الظلام والسواد بالنور والجلاء (الوضوح) فعاد بعد ذلك لا تهمة أمور الدنيا كثيرا، وأصبح لا يعاتب الآخرين عليها لذلك فلهم حرية الاختيار في وصله أو معادته فذلك يتوقف على مشيئتهم.

أما تكراره (دام، دمت) دلالة على أنه كان اجتماعيا ألّوفا يجد صعوبة في اقتلاع هذه العادة، فهو يزيد كلما استزداد في وصله.

وكان سلاحه على تحمل أعباء الحياة التقوى والقناعة لذلك نراه ينفي رؤيته لحياة أفضل من حياة القانع بما وهبته فلا يفرح أو يسخط وزاده هو التقوى (فلا شبيها بالتقوى كزاد للعالم).

⁴⁷⁶ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص 200-202.

يبدو في هذه الأبيات التكرار واضحا مما يدل أن الشاعر صانع ماهر متفقه في اللغة يصرف شؤونها وينوع تشكيلها، ويقول أيضا:

عقدت عليك مكنات خواطر عقد الرجاء فألزممتي حقوقا⁴⁷⁷

أصبحت كل خواطره لها صلة وثيقة بخالقه كيف ينال رضى الله ومحبته وقربه وبيتعد عن ما يبعد عنه، وهذا أيضا مقترن بأمله في عفو الله ورحمته ومغفرته، يقول في هذا السياق أيضا:

لاح المشيب بلمتي فنعاني
ونفى الصبا عني وذم عاني
وناعت خطوب الحادثة بأسرتي
فبقيت منفردا من الأقران
فلئن مضى صدر الزمان بصفوه
فلأخدمن لسيدي المنان
ولأقطن علائقي من غيره
حتى احل بساحة الميدان
ولأنفين مطامعي وملابسي
ولأنمعن من الكلام لساني
ولأهجرن أحبتي ومعارفي
المجان
ولأبكين على الصبا ولما
ممن غرتي في سالف
مضى
الأزمان⁴⁷⁸

لعل أهم ما يميز هذه الأبيات العطف المتكرر فقد وظف الشاعر واو العطف ثمان مرات، فقد أفاد التنسيق والجمع لما يعد به من أعمال في المستقبل القريب، فبهذا يكون قد استطاع أن يثري الدلالة من خلال تمكنه من تكثيف الصور وتويعها وتلوينها وبالتالي إعطائها بعدا متلاحقا من الصفات، وهذا ما يظهر أيضا في هذا النص :

⁴⁷⁷ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص200.

⁴⁷⁸ - المصدر نفسه، ص203

لئن عرف الاخوان عني نزاهاة وخلفني عنهم نصيبهم من الفقر
لقد سرنني أي خلي من الذي أضاعوه من حقي ولو كنت في الأسر
سأرعى لهم ما هان مني عليهم و أحمل نفسي في الجفاء على الصبر
عليهم سلام الله مني رسالة مقسمة بين التواصل والهجر
فقمّت على صول الزمان مفكر بأربعة أنبت فيها على الصبر
فقل لحصون الغرب طرو من أبحتكم حظي من البر والبحر
بها
يقار عني من شاء منكم بعيشة معينة الأوقات ظاهرة على
الستر⁴⁷⁹

سجل الشعر عبر مسيرته الطويلة كثيرا من القيم الأخلاقية التي يتبناها المجتمع فسار الشعراء في المغرب على درب الشرق في موضوع الحكمة الأخلاقية التي تدور أغلبها حول الصداقة والأصدقاء، وبعض القيم الحميدة كالصبر والعمل والطموح المشروع...وها هو الشاعر يتحدث عن الأصدقاء وندرة المخلصين والأوفياء منهم، لأن أغلب الناس لا يتمتعون بذلك. وتتواطد الصداقة والأخوة متى تقاربت (الأرواح وتجاذبت إلى بعضها البعض، واتفقت وتآلفت قلوبهم، وتتنافر وتتباعد متى اختلفت فالأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)⁴⁸⁰.

3- تكرار المد (الأصوات الطويلة):

إذا حاولنا الوقوف على هذه الظاهرة من خلال النصوص الشعرية و التي لها علاقة وطيدة بالحالة النفسية للشعراء فانه يمكننا التساؤل عن الأهمية التي تمكن في شيوعها بين ثنايا العمل الشعري.

آنذاك يتبين أن لهذه الأصوات صلة بالخلفية النفسية للشاعر فهي تمكنه من إخراج زفراته القلقة والحزينة كاملة فهي في شعر سابق مثلا ترد في المتن الشعري وفي آخر الشطر (القافية) ويمكن إيضاح ذلك من خلال النص الشعري المأخوذ من قصيدته التي يقول فيها:

⁴⁷⁹ - العربي دحو، الشعر المغربي، ص203-204.

⁴⁸⁰ - مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم، البر والصلة والأداب، باب الأرواح جنود مجندة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ص449.

نلهو ونأمل أياما تعد لنا سريعة المر تطوينا ونطويها
 كم من عزيز سيلقى بعد عزته ذلا وضاحكة يوما ستبكيها
 وللحيوف تربي كل مرضعة وللحساب برى الأرواح ياريها
 لا تبرح النفس وتنعى وهي ظاعنة حتى تقيم بواد غير واديها
 أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر
 نبنيتها⁴⁸¹

فأغلب ألفاظ النص يغلب عليها طابع المد الصوتي وهو ما يسمى بأصوات المد الطويلة التي يتألف منها البناء الموسيقي بفعل انتظامها في وحدة إيقاعية، تتفاوت في الطول عن الأصوات الساكنة.

وهي أشد الأصوات وضوحا في السمع ولو قارناها بالأصوات الأخرى، يكون أشد وأعلى رنيناً، ومن ثم يكون له وقع في النفس كما هو واضح عند أبو عقال، في النص الذي يبتدئ مطلعته:

لاح المشيب بلمتي فنعاني ونفى الصبا عني وذم
 عناني⁴⁸²

يعد الصوت الطويل أعلى درجة في الوضوح السمعي من غيره، وهذا له علاقة بالاضطراب الذي يعيشه الشاعر، حيث أن الصوت الطويل له القدرة في إخراج الشحنات الوجدانية كاملة، فكلمات (الأقران، المجان، الأزمان، الأشجان)، هي مفردات تعكس قتامة الحالة النفسية للشاعر، وقد جاءت في النص على شكل جموع وهذا حتى توحى الكثرة بتكرار الفعل والحركة.

وعلى هذا النحو يؤدي الإيقاع الداخلي دورا هاما في تعميق الإيقاع النفسي، وفي خلق نغمات وإيقاعات أخرى تتوازي مع الإيقاع الخارجي للقصيدة.

وخلاصة القول فإن النصوص المغربية لا تختلف عن بقية الأشعار المغربية من حيث المستوى الفني والفكري والوجداني، ولعل في هذه الأشعار من الصور ما يتضمن قدرا من الإبداع والعمق الفكري والعاطفي، والإيقاع الموسيقي المتجاوب مع الأجواء النفسية المختلفة مما يجعلها جديرة بالكشف عن مستوى أصحابها الرفيع في تجاربهم الشعرية الزهيدة التي

⁴⁸¹ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

⁴⁸² - العربي دحو، الشعر المغربي، ص203.

جاءت تتبض بالأحاسيس والانفعالات وتتوشح بالعواطف الإنسانية المعتمدة على اللغة الشعرية الإيحائية والصور الفنية المشخصة للخيال الإبداعي والإيقاع الموسيقي التعبيري ، وكان الهدف من وراء ذلك كله الإفادة وإيصال الأفكار ببسر للمتلقي، بالإضافة إلى قيام تجاربهم الشعرية على الإكثار من المعاني والأفكار المستلهمة من عقولهم الراجعة في ظروف وأحداث ذاتية أو اجتماعية أو فكرية مذهبية.

الختامة :

وصلت مقارباتنا الاستكشافية في أشعار الزهاد المغاربة الأوائل إلى آخر ملامحها الموضوعاتية والفنية ، وهذا بعد أن بقيت كثير من مفاصل هذه النزعة الشعرية ضبابية أو رمادية من جراء تشابه شخصياتها الشعرية الزهدية وتشابك نصوصها ، أو غيابها أو لملمتها من شظايا وبقايا شعرية مبعثرة هنا وهناك ، ولكن إصرار الباحث وطمعه بيقين على بصيص الأمل لميلاد دراسة لعلها تستكمل خلقتها وتتجاوز عاهاتها بعد أن تمدها أقلام الكشف والاستكشاف المنهجي مما يجعلها قابلة للحياة في عالم المعرفة الأكاديمية ، ومن هذا المنظور فإن قارئ هذه المقاربة في صيرورة فصولها ينتظر بعض النتائج ، ويمكن أن نجملها له في الآتي:

1- يلاحظ بأن البنية الشعرية المغربية لن تكتمل إلا بالكشف عن هذه النزعة المتجاوزة في هويتها التاريخية لأي لون سلطوي سياسي لأنها تمثل البنية الحيادية في عقيدتها السياسية ، ومن ثم فإن التأريخ لها سيكون فكريا روحيا فنيا محضا ، ولا يمكن أن نلصقها باللون السياسي للدول وتاريخ نشوئها وزوالها أو عقيدتها المذهبية .

2 - يلاحظ بأن الشعرية المغربية كانت في تأسيسها قرآنية إيمانية روحانية ، لأنها حملتها إلى المغرب صدور الصحابة والتابعين والمجاهدين والمرابطين والنسك والعباد والزهاد والدعاة والفقهاء ، وهؤلاء كلهم امتلأت حناجرهم قرآنا قبل أن تمتلئ شعرا ، وهي إحدى خصوصيات المغرب الإسلامي التي كانت تنشد أشعاره ألسنة رطبة بأي القرآن .

3 - يلاحظ ترابطا وثيقا بين الشعر العربي بنزعه الزهدية وبين الحياة الروحية في الإسلام فهذا الشعر الزهدي يقيم شاطئا روحيا مقابل بحر المادية الزاخر الذي اغترفت منه الفنون الأخرى.

4 - إن شعرية الزهد بوجدانياته وروحانياته شأنه شأن الأديان بوجدانياتها وروحانياته ، ومن ثم فهي ابنة عقيدة وشريعة سماوية ، وفي الوقت نفسه ظاهرة اجتماعية نفسية وسلوك فردي ، وتعبير عن واقع معيش ، ومن ثم كان هذا التيار معاكسا للواقعية الحضارية الإسلامية التي طغت عليها المادية عند بعض الطوائف أو الصراعات السياسية عند طوائف أخرى .

5 - إن هذه النزعة الزهدية رافقها شعر ذاتي غنائي غزير لكون هذا الجنس الأدبي كان مفضلا عند الزهاد فهو يتسع لنزعتهم الزهدية ، ومن ثم فقد صبوا فيه كامل مواجدهم

وقرائهم، و انعكس هذا على عالمهم الفكري والروحي المتكامل في وسائل الأداء الفني ،
وبرز بصفة واضحة عند سابق المظماطي وأبو عقال، وأحمد الصواف...الخ.

6 – شعر زهاد المغاربة هو جزء من الشعر العربي العام في مقوماته الفنية العامة ، و لا
يختلف عنه، إلا في نزعه الزهدية الروحية القوية ، كما أنه لا تخلف عن شعر المشرق إلا في
بعض الملامح الخاصة بالبيئة المغربية المعروفة بوجهتها الدينية المحافظة .

7 – كما أن شعر زهاد المغاربة هو جزء لا يتجزأ من الشعر الزهدي العربي العام الذي
يشكل تيارا، لا يكاد يختلف عنه، فهناك صلة روحية قوية تربط بين المشرق والمغرب في
الروابط الأخرى ، والشاعر الزاهد المغربي استهوته حياة الصحابة والتابعين الذين استوطنوا
الشمال الإفريقي منذ الفتح الإسلامي للمغرب، وأعجبوا بسلوكهم العملي كما تمكنت العقيدة من
قلوبهم ، فكانت أشعارهم تعبيراً عن كل هذه القضايا، كما كانوا روادا لهذا التوجه الشعري
الجديد...

8 – هذا الشعر الزهدي كان سببا في تعميق اليقين العقائدي الإسلامي والاستسلام للقضاء
والقدر، وبهذه اليقينية الإيمانية تجاوز تلك الحيرة الوجودية التي تلف معاني الشعر الجاهلي
ومغزاه البعيد ، وغيره من الشعر الدنيوي ، وكان هذا التجاوز ناتجا عن انتصارهم على
عقدة الزمن و الموت بفضل روحانية زهدهم وإيمانهم الراسخ والدائم بشعرية السماء التي
تبت في نفوسهم روح الطمأنينة ، والصبر على الابتلاء.

9 – لم يبق من مدونة هذا الشعر إلا النزر اليسير ، وما وصلنا منه جاء في شكل قصائد
ومقطعات ونثف وأبيات يتيمة أو من قصائد ضاعت ، وبعضها جمع في شكل دواوين أو
مجموعات شعرية متنوعة.

10 – ما زالت الكثير من كنوز هذا التراث الشعري المغربي في هذه النزعة أو في غيرها
بحاجة إلى دراسات وبحوث واستكشاف وتحقيق وتاريخ وإخراج ، لما لها من قيمة حضارية
وثقافية وفكرية وجمالية متصلة بأدب النفوس والروح والعقل وما بعد العقل والكوني
وما وراء الكوني.

11 – إن سابق المظماطي أول من تخصص من شعراء اللسان العربي في فن شعر الزهد
، وإذ كانت لغته يحتج بها فإن أسلوبه وإمكانياته الفنية الشعرية لا يمكن أن ترقى إلى مستوى
شعرية أبي العتاهية فالأول له سبق الريادة والثاني له التفوق الفني .

12 – كانت موضوعات الزهد ومضامينه وهواجسه موزعة في الغالب على ما يعرف بالقضايا الإنسان الكبرى وأغلب هذه القضايا تمتزج بموضوعي الرثاء والحكمة على غرار الحياة والموت، والشيب والشباب والدهر والأخلاق، و النفس البشرية،والحرية ... ، وقد استطاع الشعراء أن يجعلوا الإحساس بالموت أصلا في كل تجاربهم الشعرية الفنية، وبهذا التوجه أصبح الموت من أهم بواعث الشعر لديهم في توجههم الروحي السني القرآني الأصيل.

13 – كشفت تجربة شعر الزهد عن قيم إنسانية بعيدة عن لغة الوعظ السطحية والخالية من التجارب العميقة، فجاءت قصائدهم تفيض حرارة وصدقا تأخذ بمجامع القلوب وتهز الوجدان فتجذبها بمتعة روحية سامية.

14 – إن معجمه الشعري اللغوي إسلامي وتقليدي في مصادره، ولا عجب في ذلك فأصحابه إسلاميون قرآنيون، وهذا المنطلق يربطهم أيضا بأساليب القدماء، فلا إعجاز قرآني دون لغة عربية مبينة، وبهذا فقد استفاد المغربي من تجارب غيره من أمثال ليبيد وزهير ، ... الخ

15 – إن الصورة الشعرية وجدانية في مضمونها تقليدية في تركيبها البلاغية رمزية في دلالتها وإشاراتها، كما نجد بعض النصوص تنفرد بالغموض الذي يجنح نحو الدين والفكر والفلسفة كأشعار أبي عقاب وغيرها من نصوص القرن الثالث الهجري.

16 – إن أوزان هذا وقوافيه لم يأتي بأي جديد فقد اختار الشعراء لقصائدهم أكثر البحور شهرة وتداول مثل الطويل والكامل والبسيط والخفيف والمتقارب والوافر ... الخ.

17 – ظل فضاء الشكل عنصر ثابت في الشعرية الزهدية المغربية، و لا نجد فيها تغييرا كبيرا في اللغة والصورة والإيقاع ، فهو بسيط العبارة وقريب المعنى من الأذهان والوجدان، وظف ألفاظ فصيحة بعيدة عن الغريب وحوشي من الكلام ، و أسلوبه يجمع بين المتانة والرصانة حيناً ، وبين السهولة والرقّة حيناً آخر، وبالتالي فهو مألوف في أغلب الأحيان حتى وإن باعد في العلاقة بين الدال ومدلوله المجازي أو الرمزي،ومن ثم فهو لم يخرج عن النسق العام المعهود في القصيدة العربية .

وخالصة هذه الخاتمة فإن النصوص المغربية لا تختلف عن بقية الأشعار المغربية من حيث المستوى الفني والفكري والوجداني، ولعل في هذه الأشعار من الصور ما يتضمن قدرا من الإبداع والعمق الفكري والعاطفي،والإيقاع الموسيقي المتجاوب مع الأجواء النفسية المختلفة مما يجعلها جديرة بالكشف عن مستوى أصحابها الرفيع في تجاربهم الشعرية الزهدية التي جاءت تنبض بالأحاسيس والانفعالات وتتوشح بالعواطف الإنسانية المعتمدة على اللغة الشعرية

الإيحائية والصور الفنية المشخصة للخيال الإبداعي والإيقاع الموسيقي التعبيري ، وكان الهدف من وراء ذلك كله الإفادة وإيصال الأفكار ببسر للمتلقي، بالإضافة إلى قيام تجاربهم الشعرية على الإكثار من المعاني والأفكار المستلهمة من عقولهم الراجعة في ظروف وأحداث ذاتية أو اجتماعية أو فكرية مذهبية.

و أرجو في خاتمة هذه الدراسة أن أكون قد أديت للبحث حقه ، وللقارئ حقه وللمعرفة حقها وللجامعة حقها وللوطن حقه ولنفسي حقها ، ولأساتذتي وبخاصة المشرف ولجنة المناقشة حقها وإن وفقت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ،وما توفيقي إلا بالله و عليه توكلت وإليه أنيب ،وهو على كل شيء قدير .

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

مسلم بن الحاج بن مسلم، صحيح مسلم، البر والصلة والآداب ، باب الأرواح جنود مجنّدة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ج 2 .

أولا :المصادر العامة :

أ – المعاجم :

- 1 – ابن الأثير، الكامل ، دار الكتاب العربي، دار صادر بيروت ، لبنان - ج 1.
- 2 – أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1959، مج 3 .
- 3 – أحمد رضا، معجم متن، اللغة، منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1960.
- 4 – أبو البقاء بن موسى الحسني، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده للطبع

- 5 – جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت ط1، 1979.
- 6 – أبو الحسن بن محمد علي السيد الشريف، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق.
- 7 – الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، 1970، مج 2 .
- 8 – سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981 .

- 9 – عدنان درويش محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1992 .
- 10 – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1992، مج 2.
- 11 – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مج 3.
- 12 – ابن منظور، لسان العرب بالمحيط، دار الجيل، بيروت، 1983، مج 4.
- 13 – يوسف خياط، معجم المصطلحات، العلمية والفنية، دار لسان العرب، بيروت، لبنان.

ب – الدواوين الشعرية :

- 1 – أمرؤ القيس، ديوان أمرؤ القيس بن حجر الكندي لأبي الحجاج يوسف بن سليمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1974 .

2 – أبو زيد القرشي، محمد بن أبي طالب الخطاب، جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1963.

3 – أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب المصرية، د ط ، د ت.

4 – أبو العلاء المعري، اللزوميات، دار صادر بيروت، مج 2 .

ثانياً: المصادر الخاصة:

1 – شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية بمستغانم، 1966 .

2 – ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستمين، القرن الثالث الهجري، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986 .

3 – أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام، طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق: علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.

4 – علي القاضي عياض، تراجم أغلبية مستخرجة من المدارك تحقيق: محمد الطالبي، نشر الجامعة التونسية، 1968 .

5، // , ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار مكتبة الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر، ليبيا، ج 1 ، ج 3 .

6 – المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، محمد العروس المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994 .

ثالثاً: المراجع:

- 1 — أمنة بلعلی، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي (3هـ ، 7هـ)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001 .
- 2 — إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1 ، 1984.
- 3 — ، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، 1988 .
- 4 — إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الاسلامي، دار المعارف بمصر، 1969.
- 5 — إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شاعر المغرب حتى خلافة المعز، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1991 .
- 6 — أحمد الشتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، دار المعارف الاسلامي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مج10 .
- 7 — أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ، 232 هـ)، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط1، 1414، ج1.
- 8 — أدونيس علي أحمد سعيد، مقدمة الشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط3، 1979.
- 9 — أنور رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1979 .
- 10 — جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار المعارف، مصر.
- 11، ، المرايا المتجاوزة، دراسة في نقد طه حسين، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر 1998 .
- 12 — جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة، بغداد، ط2، 1978، ج8 .
- 13 — حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1970.
- 14 — خليل شرف الدين أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، منشورات الهلال، بيروت، 1983 .
- 15 — دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة أحمد نصيف الجنابي وآخرون، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982 .

- 16- رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- 17 - رشيد يحيوي، الشعر العربي، الأنواع والأغراض، دار إفريقيا الشروق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
- 18 - زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج 1، 2.
- 19- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، ط7، 1971
- 20- صابر طعمة، الصوفية، معتقدا ومسلكا، دار عالم الكتب والنشر والتوزيع، ط2، 1985.
- 21- الطاهر التهامي، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1979.
- 22 - طلعت أبو العزم، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي، الحديث الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981.
- 23 - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مطبعة الرسالة، مصر 1955.
- 24 - عبد العزيز نبوي، الشعر المغربي القديم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- 25 - عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، أريد الأردن، 1980.
- 26 - عبد الله الطيب المجذوب - المرشد إلى فهم العرب والأدب دون ذكر مكان النشر وتاريخه، ج1.
- 27 - عبد الله شريط، أبو قاسم محمد كرو، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1966.
- 28 - عبد الله عبد الحميد سويد، أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث، مطابع الوحدة في ليبيا.
- 29 - عبد الله كنون، عبد الله سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1969.

- 30 – عبد المالك خلف تميمي، الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، دار الشباب للنشر والتوزيع، قبرص، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، بيروت، ط1، 1986 .
- 31 – أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، نشرة السندويس، 1936 ج3.
- 32 – العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات المستقلة: الأغلبية، الرستمية، الادريسية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994 .
- 33 – عز الدين اسماعيل، الرؤية والفن في الشعر العباسي، المكتبة الأكاديمية، ط1، 1994 .
- 34- ، الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر ط3.
- 35- ، الشعر في إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت، لبنان، 1974 .
- 36 – عز الدين جاسم، الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الاندلس ، ط1، 1986 .
- 37 – عفت الشرقاوي، دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1979 .
- 38 – أبو علي الحسن ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح مفيد قميحة، دار الكتاب العلمية لبنان، ط1، 1983 .
- 39 – الغزالي، احياء علوم الدين، دار الفكر، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة، 1975، ج5 .
- 40 – فؤاد البستاني ، أبو العتاهية، سلسلة الروائع ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
- 41 – أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر بيروت، ط2، ج14.
- 42 – فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، منشأة المعارف بالاسكندرية، جلال جزي وشركاؤه، مطابع القدس، الاسكندرية، ط5، 1997.
- 43 – القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 44- كمال اليازجي، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1974 .

- 45- محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 .
- 46- محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1403هـ، 1983.
- 47 - محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول، واتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983 .
- 48 - محمد علي الفاروقي التها نوري، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972 .
- 49 - أبو محمد بن عبد الله بن مسلم، المعارف، دار الكتب المصرية، 1960.
- 50- محمد مصطفى منصور، أبو ذؤيب الهذلي، حياته وشعره، دراسة توثيقية نقدية وتحليلية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2004.
- 51 - محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج 1 .
- 52 - محمود مصطفى، الهدى السبيل إلى علمي الخليل والعروض، 1936 .
- 53 - مصطفى بيطام، مظاهر المجتمع وملاحم التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995 .
- 54 - مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، الجزائر.
- 55- مصطفى علم الدين، الزمن العباسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1993 .
- 56 - مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1981
- 57- ، دراسة في الأدب العربي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1983 .
- 58 - ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط3، 1980 54 — نبيل راغب، موسوعة الفكر العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002 .
- 59 - نبيل رشاد نوفل، العلاقات التصويرية بين الشعر العربي والفن الإسلامي، توزيع منشأة المعارف، الاسكندرية، 1933 .
- 60 - نعيم حسن اليافي، الشابي، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1985

- 61- أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1981 .
- 62- وكيع بن الجراح، صحيح كتاب الزهد، حققه وأخرج أحاديثه عبد الحميد عبد الجبار الفريوائي، اختصرة، ابن عبد المقصود، مؤسسة الكتابة الثقافية - ط1 - 1993 .
- 63 - يحيى بن شرف الدين النووي، شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النووية منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1982، ط2 .
- 64 - يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980 .

الرسائل الجامعية :

- 1 - السعيد لراوي، ظاهرة الحزن في شعر السياب، رسالة ماجستير في الأدب المعاصر، اشراف شيخ عوضة حمور، جامعة باتنة، 1986 .
- 2 - صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، رسالة ماجستير، اشراف العربي دحو، 1988 ، 1989 .
- 3 - علي عالية، شعر الفلاسفة، في الأندلس في القرنين 5 هـ ، 6 هـ ، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في الأدب العربي القديم، 2004 ، 2005 م.
- 4 - عبد الله العشي، الحسن المأساوي في شعر صلاح عبد الصبور، الماجستير اشراف عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، جامعة وهران، معهد اللغة والثقافة العربية، 1984 .
- 5 - عبد الله فيدوح، القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد، رسالة ماجستير، اشراف عبد الغني شيخ، جامعة وهران، 83 ، 84 .
- 6 - محمد الأمين بلغيث، رسالة الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، اشراف ع الحميد حاجيات، 86 ، 87 .
- 7 - معمر حجيج، محاضرات في موسيقى الشعر، ألفت على طلبت الماجستير تخصص أدب مغربي قديم، 2002 ، 2003 .

خامسا : المراجع الأجنبية :

1/ J. Marouzeau, Precis stylistique Francaise, masson et çie Paris, France, 1969.

ملحق

خاص بأشعار المدونة

يقول سابق المظماطي حين قتال البربر للروم بإفريقية أيام سليمان بن عبد الملك: (الطويل)

أيا معشر الروم ارحلوا عن بلادكم واخلوا لنا عنها بطي المراحل
فقد قصدتكم بربر بسيوفها وأحلافها أهل الرماح الذوابل
قبائل من بر بن قيس وخذق وذي يمن في عزها
المتناول⁴⁸³

سارت بعض أشعاره سير الأمثال ومن هذان البيتان:

قد ينفع الأدب الأبناء في صغر وليس ينفعهم من بعده الأدب
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت ولا يلين ولو لينتـه
الخشب⁴⁸⁴

وروى له الجرواي في كتابه صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية هذه القصيدة

الزهدية: (البسيط)

النفس تكلف بالدنيا وقد علمت أن السلامة منها ترك ما فيها
والله ما قنعت نفس بما رزقت من المعيشة إلا سوف يكفيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودرونا لخراب الدهر نبنيها
قس بالتجارب أحداث الزمن كما تقيس نعلا بنعل حين تحذوها
والله ما عبرت في الأرض قاطرة إلا وصرف الليالي سوف
يفنيها⁴⁸⁵

وأشده له الشريشي في شرح المقامات، قصيدة زهدية طويلة ولعلها تمثل مع الأبيات

السابقة قصيدة واحدة: (من البسيط)

نلهو ونأمل أياما تعد لنا سريعة المر تطوينا ونطويها
كم من عزيز سيلقى بعد عزته ذلا وضاحكة يوما ستبكيها

⁴⁸³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 1969 ص 1

⁴⁸⁴ - المصدر نفسه ، ص 2

⁴⁸⁵ - المصدر نفسه ، ص 4

وللحتوف تربي كل
مرضعة
ولا تبرح النفس تنعى وهي سالمة
ولن تزال طوال الدهر ظاعنة
أموانا لذوي الميراث نجمعها
و دورنا لخراب الدهر
نبنيتها⁴⁸⁶

وقال أيضا هذه الأبيات ولعلها من القصيدة السابقة نفسها: (البيسط)

أين الملوك التي عن خطبها غفلت
غرت زمان بملك لا دوام له
وصبحت قوما عاد في ديارهم
وتتبعا وثمود الحجر غادرهم
فكيف يبقى على الأحداث غابرا
كأننا قد أظلتنا
دواهيها⁴⁸⁷

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعارضين : (الطويل)

تعاون على الخيرات تظفر ولا تكن
وداهن إذا ما خفت يوما مسلطا
ولا تـك ذا لونين يبدي بشاشة
وفي صدره ضب من الغل
كامن⁴⁸⁸

وقال في إتباع الهوى، ولعلها من تتم الأبيات السابقة: (الطويل)

وهجر الهوى للمرء -فاعلم- سعادة
فكن دافنا للشر بالخير تسترح
وطول الهوى رين على القلب رائن
من الشر، إن الخير للشر دافن⁴⁸⁹

وقال لعلها منها أيضا: (طويل)

⁴⁸⁶ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

⁴⁸⁷ - المصدر نفسه ، ص 5

⁴⁸⁸ - المصدر نفسه ، ص 5

⁴⁸⁹ - المصدر نفسه ، ص 5

فحتى متى تلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الأصل
قاطن

وتجمع ما لا تأكل الدهر دائباً وكأنك فى الدنيا لغيرك
خازن⁴⁹⁰

وأشده المبرد فى الكامل هذا البيت المفرد: (الطويل)

وإن جاء ما لا تستطيعان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله واصبراً⁴⁹¹

وأشده له البحري فى حماسته الأبيات الأربعة المفردة:

استخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر
وفى البحث قدما والسؤال لذي العمى شفاء أشفى منهما ما تعاین
إن عبت يوماً على قوم بعقابة أمراً أتوه فلا تصنع كما صنعوا
إذا عبت أمراً فلا تأتته وذو اللب مجتنب ما
يعيب⁴⁹²

والأول من هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي فى كتابه مناقب عمر بن

عبد العزيز قال (ذكر ما وعظ به عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن سليمان أحمد بن

عبد الله الجواليقي: قال سابق البربري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله): (البسيط)

بسم الذي أنزلت من عنده السور الحمد لله أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما فكن على حذر قد ينفع الحذر
تذر
واصبر على القدر المجلوب وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لأمري عيش يسر به إلا سيتبع صفوه الكدر
واستخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر
قد يدعوى المرء بعد هفوته وتحكم الجاهل الأيام والغير
إن التقى خير زاد أنت حامله والبر أفضل شيء ناله البشر

⁴⁹⁰ - المصدر نفسه ، ص 5

⁴⁹¹ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 5

⁴⁹² - المصدر نفسه ، ص 6

من يطلب الجور لا يظفر بحاجته
وفي الهدى عبر تسقى القلوب بها
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله
والرشد نافلة تهدي لصاحبها
قد يوبق المرء أمرا وهو يحقره
لا يشبع النفس شيء حين تحرزه
ولا يزال وإن كانت بها سعة
وكل شيء له حال يغيره
والذكر فيه حياة للقلوب كما
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
لا ينفع الذكرى قلبا قاسيا أبدا
والموت جسرا لمن يمشي على قدم
فهم يمرون أفواجا وتجمعهم
من كان في معقل للحرز أسلمه
حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف
ولا أرى أثر الذكر في خلدي
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي
إذا لداويت قلبا قد أضرب به
ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت
والمرء يصعد ريعان الشباب به
بيتا يرى الغصن لندا في أرومته
كم من جموع أشت الدهر شملهم
وكم من أصيد سامى الطرف معتصب
يظل مفترش الديباج محتجبا

وطالب الحق قد يهدى له الظفر
كالغيث ينضر عن وسميه الشجر
ولا البصير كأعمى ما له بصر
والغبي يكره منه الورد والصدر
والشيء بالنفس ينمي وهو يحتقر
ولا يزال لها في غيره
وطر
لها إلى الشيء لم تظفر به نظر
كما تغير لو اللمة الغير
يحي البلاد، إذا ما ماتت المطر
كما يجلي سواد الظلمة القمر
وهل يلين لقلب الواعظ الحجر
إلى الأمور التي تخشى وتنتظر
دار إليها يصير البدو والحضر
أو كان في خمر لم ينجه الخمر
في الخد مني إلى لذاتها صعر
والحبل في الحجر القاسي له أثر
كما يورقني للعاجل السهر
طول السقام وهيض العظم ينجبر
يوما على نقصه الروحانيات والبكر
وكل مصعدة يوما ستحدر
ريان صار حطاما جوفه نخر
وكل شمل جميع سوف ينتشر
بالتاج نيرانه للحرب تستعر
عليه تبنى قباب الملك والحجر

قد غادرته المنايا هو مستلب
 أبعد آدم ترجون البقاء وهل
 لكم بيوت بمستل السيول وهل
 إن الفناء وإن طالت سلامتهم
 إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت
 والمرء ما عاش في الدنيا له أمل
 لها حلاوة عيش غير دائمة
 إذا قضت زمر آجالها
 نزلت
 ليس يجزركم ما توعظون به
 أصبحتم جزرا للموت يقبضكم
 لا تبطروا وأهجروا الدنيا فإن لها
 ثم اقتدوا بالأولى كانوا لكم غررا
 حتى تكونوا على منهاج أولكم
 مجدل تـرب الخدين منعفر
 تبقى فروعاً لأصل حين ينقعر
 يبقى على الماء بيت أسه مدر
 مصير كل بني أنثى وإن كثروا
 وفي تدبرها التبيان والعبير
 إذا انقضى سفر منها أتى سفر
 وفي العواقب منها المر والصبر
 على منازلها من بعدها
 زمر
 والبهم يجرزها الراعي فتجزر
 كما البهائم في الدنيا لكم جزر
 غيا وخيما وكفر النعمة البطر
 وليس من أمة إلا لها غرر
 وتصبروا عدم الدنيا كما
 صبروا⁴⁹³

روى ابن أبي الدنيا عن ميمون عن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده
 سابق البربري، وهو ينشد شعرا فأنتهى في شعره إلى هذه الأبيات: (من الطويل)

فكم من صحيح بات للموت آنا
 فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة
 فأصبح تبكيه النساء مقنعا
 وقرب من لحد فصار مقيله
 فلا يترك الموت الغني
 لماله
 أتته المنايا بغتة بعدما هجع
 فرارا ولا منه بقوته امتنع
 ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
 وفارق ما كان بالأمس قد جمع
 ولا معدما في المال ذا حاجة
 يدع⁴⁹⁴

⁴⁹³ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

⁴⁹⁴ - المرجع نفسه، ص 9

وفي الأغاني قال أبو الفرج أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي، قال حدثنا أبو غسان قال: قال عمر بن عبد العزيز يوما لسابق ودخل عليه أنشدني يا سابق من شعرك تذكرني به فقال: أو خيرا من شعري فقال هات: قال أعشى همذان:

وبينما المرء أمسى ناعما جدلا في أهله معجبا بالعيش ذات أنق
غرا أتيج له من حينه غرض فما تلبث حتى مات كالصعق
تمت أضحى ضحى من غب ثالثة مقتعا غير ذي روح ولا رمق
يبكى عليه وأدنوه لمظلمة تعلقى جوانبها بالترب والقلق
فما تزود مما كان يجمعه إلا حنوطا ومازاد لمنطلق
وغير نفحة أعواد تشب له وقل ذلك من زاد لمنطلق⁴⁹⁵

ومن شعر سابق أيضا في المرء ومدافعة الحق: (من البسيط)
لا يدفعنا لجوجا حين تزجر إن اللجوج له في الدفع إغراء
وأعض في حسن عفو من بواده فالحر عن الأفتاء
إغفاء⁴⁹⁶

وقال ولعلها من تنمة ما قبلها: (البسيط)
لا يظهرن لذي جهل معاتبة فربما هيجت بالشيء أشيء
فالماء يخمد حر النار يطفئها وليس للجهل غير الحلم
إطفاء⁴⁹⁷

وقال في ذهاب الأمم وربما كانت هذه الأبيات كلها من قصيدة همزية من روائع سابق (البسيط):

وكيف يأمن ريب الدهر مرتهن بعدوة الدهر إن الدهر عداء
ألقي على الجيل من عاد كلا كله وقوم هود فهم هام
وأصداء⁴⁹⁸

⁴⁹⁵ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 9

⁴⁹⁶ - المصدر نفسه ، ص 11

⁴⁹⁷ - المصدر نفسه ، ص 11

وله في العفو التسامح: (الوافر)

إذا ما كنت طالب كل ذنب
ولم تحلل أخاك على العتاب
تباعد من تباعد بعد قرب
وصار بك الزمان إلى
اجتناب⁴⁹⁹

ومما نسبه له المرزباني كما عند ابن عساكر: (الطويل):

ألا ربما صار البغيض مصافيا
وحال عن العهد الصديق المتافن
فلا تغتر ما عشت من متجمل
بظاهـر ود قد تعطى
البيـطائن⁵⁰⁰

وأنشد ابن الزجاج في أماليه (الطويل)

فلا تحفرن بيـرا تريد أبا به
فإنك فيها من دونه تقع
كذاك الذي يبغى على الناس ظالما
تصبه على رغم عواقب ما
صنع⁵⁰¹

قال ابن مالك في التسهيل وقد تجزمه متسبب عن صلة الذي تشبيها بجواب الشرط فطالبوني
بالمشاهدة فأنشد قول الشاعر:⁵⁰²

كذاك الذي يبغى على الناس ظالما
تصبه على عمد عواقب ما صنع

فأمسكوا ذكره في غير واحد من مترجميه ومما نسب له المرزباني برواية ابن عساكر

(الطويل)

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى
سفاهـا وريب الدهر عنها تخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها
وكم من حريـص أهلكته
مطامعه⁵⁰³

⁴⁹⁸ - المصدر نفسه، ص 11

⁴⁹⁹ - المصدر نفسه ، ص 18

⁵⁰⁰ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 18

⁵⁰¹ - المصدر نفسه، ص 18

⁵⁰² - نفسه، ص 18

وروى ابن عساكر أيضا قطعة من رأيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله: (البيسط)

ما يشعرون بما في دينهم فقصوا جهلا وإن انقصو الدنيا هم شعروا

وروى عن عثمان بن عبد الحميد قال دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر عطني يا سابق وأوجز قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله فقال له هات فأنشده:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ووافيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون شريكه وأرصدت قبل الموت ما كان أرصدا

وروي له مما كتب في وصية الحسن بن سهل لابنه إبراهيم بن الحسن منسوب إلى سابق هذه الأبيات: (من البيسط)

العلم والحلم خلتان هما الخلق زين إذا ما اجتمعا
صنوان لا يبتسم حسنهما إلا نجمع لـذا وذاك معا
كم من وضع سما به العلم و الحلم فقال العـلا وارتفعا
ومن رفيع البنا أضعهما أخله ما أضع
فاتضعا⁵⁰⁴

وروى له مما أنشده أبو الفضل الرياشي من هذه القصيدة:

إن كنت متخذا خليلا فتوق وانتقد الخيلا
من لم يكن لك منصفا في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعا واكسب بها عملا جميلا
ومن استخفف بنفسه زرعت له قالا وقيلا
وأقل ما تجدد اللئيم عليك إلا مستطيلا
والمـرء إن عرف الجيل وجدته يأتي جميلا
ولربما سئل البخيل الشيء لا يسوى فتिला

⁵⁰³ - نفسه، ص 19

⁵⁰⁴ - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 19

فبقول لا لا أجد السبيلا
ولذاك لا جعل الاله
ما مبتني الدار التي
إن لم تنل خير أخوا
وتجنب الشهوات واحذر
فلرب شهوة ساعة
إليه يكره أن ينيل
له إلى خير سبيلا
هو مسرع عنها الرحيل
كفكن له عبدا ذليلا
أن تكون لها قتيلا
قد أورثت حزنا
طويلا⁵⁰⁵

عبد الله بن أبي حسان اليحصبي:

عاصر زيادة الله الأغلبي، توفي سنة سبع، أو ست وعشرين ومائتين قال:

من لم يؤدبه الجميل
ففي عقوبته صلاحه⁵⁰⁶
محمد بن داود:

من أصحاب محمد بن سحنون فهو معاصره، قال يرثيه:

أذر الدموع على أعز محجل
ما ضرها لو أمتعت بمجمد...
يا عين جودي بالدموع على الذي
ولقد رأيت الأرض يوم رأيت
قل للمنيّة بعد موت محمد
لما رأيت تعطيل مسجدك الذي
ذاك المحل الأرحب العالي إذا
بسطت له أيدي المنون حبالها
هيهات رب العالمين قضى لها
نشرت عليه المكرمات ظلالها
فوق المناكب زلزلت زلزالها
تكسو الخليفة بعده أجالها
بأزاء قبرك غالها ما غالها
أعطى البريئة ربها أعمالها⁵⁰⁷

⁵⁰⁵ - المصدر نفسه، ص 20

⁵⁰⁶ - العربي نحو الشعر المغربي من الفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات ص 169.

⁵⁰⁷ - المصدر نفسه ص 173.

الأمام أفلح عبد الوهاب:

ثالث أمراء الدولة الرستمية بتيهت بالجزائر، يشهد له بالعدل، والورع والتقوى، توفي سنة 240هـ.

قال:

العلم أبقى لأهل العلم أثارا
حي وإن مات ذو علم، وذو ورع
العلم در له فضل ولا أحد
للعلم فضل على الأعمال قاطبة
يقول طالب علم بات ليلته
من عابد سنة لله مجتهدا
أشدد إلى العلم رحلا فوق راحلة
واصبر على دلج الأغساق معتسفا
حتى تزور رجالا في رحلهم
والطف بمن أنت منه العلم مقتبس
ولا تكن جامعا للصحف تخونها
نعم الفضيلة، نعم الذخيرة تورثه
واجعله لله لا تجعله مفخرة
تعتسا لكل مرء غير مقتصد
يصطاد بالعلم أموال العباد كما
ولا تدهن إذا ما قلت مسألة
واجعل لنفسك حطا من مذاكرة
وكن بربك لا بالناس معتصما
خير العباد عباد الله إن له

يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
ما مات عبد قضى من أوطارا
في الناس يدري لذاك الدر مقدارا
عن النبي روينا فيه أخبارا
في العلم أعظم عند الله أخطارا
صام النهار وأحي الليل أسهارة
وصل إلى العلم في الأفاق أسفارا
مهامه الأرض أحزانا وأقطارا
فضلا، فأكرم بأهل العلم زوارا
جدد له كل يوم منك أبرارا
كالعير يحمل بين العير أسفارا
لنفسك اليوم إن أحسنت أثارا
ولا تراني به بدوا، وأحضارا
وقد تقلد آثاما، وأوزارا
يصطاد مقتنص بالباز أطيارا
أضررت بالدين إن داهنت إضرارا
مع الصديق إذا استوحشت أسمارا
كفى بربك رزاقا وغفارا
لطفًا خفيا يرد العسر أيسارا

سبحانه صمد لا شيء يشبهه
أقررت لله بالتوحيد اقراراً⁵⁰⁸
حمديس القطان:

اسمه أحمد بن محمد الأشعري، عاصر ابن الأغلّب، وتوفي سنة 289هـ. قال: (مجزو الرمل)

بيد الله دوائبي
الذي يعلم دائبي
إمّا أظلم نفسي
بإتباعي لهوائبي
كلما داويت نفسي
غلب الداء دوائبي⁵⁰⁹
أبو الأحوص أحمد بن عبد الله:

مكفوف البصر في مرحلة من مراحل عمره، من المغرب سكن بسوسة، صاحب لسحنون،
توفي سنة 284هـ.

قال (الهجج):

أبو أن يرقدوا ليلا
فهم لله قوام
أبو أن يفظروا دهرا
فهم لله صوام
أبو أن يخدموا الدنيا
فهم لله خدام⁵¹⁰
عمر بن يوسف، بن عمروس:

بن عيسى أبو حفص أصله من أشبيله ولكنه أقام في إفريقية، توفي بسوسة سنة 290هـ.

أيا نفس قد أنقلنتني بذنوبي
أيا نفس كفي عن هواك وتوبي
وكيف التصابي بعدما ذهب الصبا
وقد مل مقرا مني عتاب مشيبي⁵¹¹
عيسى بن مسكين:

بن منصور بن جريح بن محمد الإفريقي، من تلاميذ سحنون، انتقل عبر الشام ومصر، اشتغل
بالقضاء، توفي في سنة 295هـ، قال:

⁵⁰⁸ -العربي دحو الشعر المغربي من الفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات، ص 207.208

⁵⁰⁹ -المصدر نفسه ص 175.

⁵¹⁰ -العربي دحو الشعر المغربي للفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات، ص 177.

⁵¹¹ -المصدر نفسه ص 177.

لما كبرت أنتني كل داهية
وكل ما كان مني زاندا نقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وإن
مشيت تصحبني ذات اليمين عصا⁵¹²
وله أيضا في ساقه:

أصاب الدهر عظم ساق
به قد كنت مشاء جليدا
إلى الفقهاء أنقلها وأطوي
بها للحاجة البلد البعيد!!
إذا رجل الفتى يوما أصيبت
وظال سقامه ألف القعودا
وصار لبيته جلسا وأمسى
من الإخوان منفردا وحيد⁵¹³
وأیضا في الشباب كذلك:

لعمري يا شبابي لو جدتك
بما ملكت يمين لارتجعتك
ولو جعلت لي الدنيا ثوبا
ومما فيها عليك لما وهبتك
فقدتك، فافتقدت لذنيذ نومي
وطيب معيشي، لما فقدتك
ونحتك وانتحبتت عليك دهرا
فلم تعن النياحة حيث نحتك⁵¹⁴
أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان داود الصواف:

توفي سنة 219هـ، قال: (المتقارب)

سألبس للصبور ثوبا جميلا
وأفتل للصخر حبلا طويلا
وأصبر بالرغم لا بالرضا
أخلص نفسي قليلا قليلا⁵¹⁵
له أيضا: (الكامل)

يا لذة قصرت وطال بلاؤها
عند التذكر في الزمان الأول
لما تذكرها قال ندامة
من بعدها: يا ليتني لم أفعل⁵¹⁶
وقال كذلك: (الطويل)

⁵¹²-المصدر نفسه ص175.

⁵¹³-العربي دحو الشعر المغربي للفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات، ص 175.

⁵¹⁴- المصدر نفسه، ص 175.

⁵¹⁵-المصدر نفسه، ص193.

⁵¹⁶-المصدر نفسه، ص 193.

أرى البرق من نحو العذيب توقدا
أفق أيها الباكي المسائل منزلا
كفى عجباً أنا جهنناه ماخلا
ألفت به غداء إذا هي ناهد
وكنت قريبا إذا دعنتي ابن عمها
وكن نساء الحي يهوين طلعتي
فلما اكتسبت الشيب صرت إلى النهي
لبست به ثوب الوقار، وكلما
جزى الله طول العمر خيرا
ولما نحا عمري ثمانين حجة
تركت تكاليف الحياة لأهلها
رأيت حلِيم القوم فيهم مقدما
أراني بحمد الله في المال زاهدا
تخلت من دنياي إلا ثلاثة
غيت بها عن كل شيء حويته
وقدم نم قوم ما فعلت جهالة
ولو فهموا رأيي، وأمري لأبصروا
ألم تر أن الدهر وأقر أهله
فما حل يوم فيه إلا بفجعة
وما فرحة إلا ستصبح ترحة
وكم قدر رأينا من عزيز مشرف
فجته المنايا وهو في حين غفلة

تغيب طورا لمعه، وترددا
تشتت منه أهله فتبددا
ملاعب ولدان ونؤيا وموقدا
وإن كنت مرموق الزيادة أمردا
فلما دعنتي عمها كنت مبعدا
ليالي كان الشعر أرجل، أسودا
وأصلحت من شأني الذي كان مفسدا
بليت، وأبليت الثياب تجددا
فإنه حداني إلى التقوى ودل وأرشدا
وأيقنت أي قد قربت من المدى
وجانبتها طوعا مجانبتي الردى
ومن نال علما نال جاها وسؤددا!!
وفي شرف الدنيا، وفي العز أزهدا
دفاتر من علم، وبيتا ومسجدا
وكنت بها أعفى، وأقنى، وأسعدا
فعدوا مع الجهال في الجهل أحمدا
وقالوا: رأى رأيا سديدا مسددا
هموما، وأن العيش صاروا منكدا!!
وأنت لآخرى فيه منتظر غدا
وما صاحب إلا سيصبح مفردا
ببيت مقبرة في القباب ممهدا
فأضحى ذليلا في التراب
موسدا⁵¹⁷

⁵¹⁷—المصدر السابق، ص194.

وقال: (الطويل)

ولما صحا عمري ثمانين حجة
ولاقيت أترابي فأحذب ماشيا
تمنيت طول العمر أحيا مؤدبا
وخالط عيني العشا بعد حدة
وفي أدني وقر، وظهري به حنا
رأيت الذي قد كنت فيه لدى الصبي
وأصلح أزماني أو أن زمانني
وأصبحت مما كنت أبغني من الغنى
وحبست نفسي بين بيتي ومسجدي
كأنني بهم قد أعلنوا بعدي البكا
وفي حين يقضي، وفي قول بعضهم
فيا خير مرغوب إليه لراغب
كما لم تضيعني رب، منذ خلقتني
وله أيضا: (الوافر)

تفهم يا حبيب، هديت قبلي
سمعتك تذكر الشعراء طرا
وليس مؤلف قولا حكيما
ويرجف قوله لينال دنيا
فلا تشغل بقول غير قبلي
فدع عنك المذاهب واتبعني
فقيه الناس سحنون تجدني
وفي فقه الفقيه أبي سعيد
تنال بفهمه خيرا كثيرا
وتنشد قولهم جما غفيرا
كآخر قائلا: إفكا وزورا
إذا ما ناله نال الغورا
فما في النفع كان له نظيرا
متابعة تجد خيرا كثيرا
لأكثر فقهه بصرا بصيرا
وجدت الحق متضحا منيرا

⁵¹⁸ -العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص 195.

وفي تعليمه علما عليما
لزممت فنساءه عشرين عاما
وكنيت مؤدبا نفسي لنفسي
فقلبت من العلوم لطول عمري
وحزت من السلامة ما كفاني
ولم ألبس لذل الفقر ثوبا
ولم أجزع، وللأيام صرف
ولم أفرح لأن لها انقلابا
وإنني وإن توالى فجعتها
ولا أنا وإن نابت نائبة خضوعا
أو دعت سرا كنت حرزا
إذا كان الفتى عني غنيا
أواصله إذ يبغي وصالي
وليس من الجميل يرى كبير
أرى الدنيا تغيرها الليالي
أرى يما يجيء بكل خير
كذا أحوال دهرك، حال أمن
وكم ملك عظيم ذي اختيال
وكان مداه ذا خطر عظيم
ومن ذاك التملك والتعالي
وأضجع في التراب بلا مهاد
من طالب للمال يسعى
فصار يود أن لو كان أضحى
وعاد يود أن لو كان أمسى

وفي تأديبه سترا ستيرا
أغاديه وأغشاه هجيرا
على نفس أجنبها النكير
وإمضائي وتجربتي الدهورا
ووقائي، وبلغني السرورا
ولم أك في الغني بطرا فخورا
يعود عسيرها سهلا يسيرا
يعيد يسيرها صعبا عسيرا
لجدا... صبرا
ولا متضعفا جزعا ضجورا وإن
ولم أخبر بذاك أخا وزيرا
فلمست إليه محتاجا فقيرا
وأمنحه - إذا قطع - الدبورا
يتابع مدارا حدثا صغيرا
وأياما مؤلفاة شهورا
ويوما بالحوادث مستطيرا
وحال تجزع البطل الجسورا
أعد خزاننا وبنى قصورا
فصار موجلا أجلا قصيرا
وسكنى قصره، سكن الحقيقرا
يضيق الحد منجدلا غفيرا وكم
ويركب في مطالبه البحورا!!
على تفريق ما حوى قديرا
وليس بمالك منه نقيرا

وقد حبس اللسان فلا كلام
فإما مؤمن يرجو خلاصا
فويل للشقي إذا تردى
إلى نار تلظيها شديد
وطوبى للسعيد إذ حباه
وصار شرابه من سلسبيل
أراني وقد كبرت ورق عظمي
كأنني بالبكاء علي فاش
إلى دار البلى حملا سريعا
وخلونى بأعمالى فروحي
أجرنى من عذابك وأعف عني
فإنى قد كبرت ورق عظمي
وإنى لم أزل أرجو عفوا
وقال: الوافر

دعيت معلما إذ صرت شيخا
لئن كان المشيب أتى نذيرا
فأهلا بالمشيب لنا لباسا
وجزت بتسعة وسبعين عاما
وصرت كرايع يمشي دببيا
وألقي الدهر في أذني وقرا
وفي فقهه الفقيه أبي سعيد
لزممت فنساءه عشرين عاما
وأيام الشبيبة كنت بورا
فإنى سوف أدعوه بشيرا
وقارا نستزيد له وقارا
وقد ضمننت أصحابي القبورا
وأصبح خاسئا بصري خسيرا
وفي بدني، وفي بطني فتورا
رأي الحق متضحاً، منيرا
أغاديته، وأغشاه
هجيرا⁵²⁰

⁵¹⁹ -العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص 196-198.

⁵²⁰ -المصدر نفسه، ص 199.

أبو عقال ابن غلبون:

عاصر أخته مهريّة، وهذه برزت في واسط القرن الثالث الهجري بقيادة بتونس يقول

(الكامل):

عقدت عليك مكنات خواطري
إن الزمان عدا علي فزادني
ما نالني ضرر بوجه مساءة
حسبي بأنك عالم بمصالحني
فامض القضاء على الرضى مني به
عقد الرجاء فألزمتني حقوقا
علما بأنك سيدي تحقيقا
إلا وجدت به إليك طريقا!
إن كنت مأمونا علي شفيقا
أنّي رأيتك في البلاد
رفيقا⁵²¹

وقال: (المتقارب)

أيا من يرى الرشد في غيه
تجاف بنفسك عن حتفها
أجب داعي الله لا تعصه
ولا تله بالموبقات التي
وأققرت الربيع من أهله
وشتت الشمم بعد انتلاف
بلوت الزمان ودست البلاد
شربت المدام وسست القيان
أصيد الغزال وأم الرئصال
وصعلكت في البر والبحر دهرًا
أسوم البعاد، وأهوى اللذائذ
أروح على هـذا وذاك
إلى أن تناهت حدود القضاء
ويخبط في الداجيات القتادا
وخذ لأمانك منك القيادا
فقد جاد بالنصح جهرا ونادى
أبادت بوائقها من تمادى
وأبقت حنوف الندامى فرادى
فلم تبق للرائدين ارتيادا!
ونافست في كل شيء عنادا
ورضت الجياد، ورعت الشدادا
بطرف أراه يجيد الطرادا
أخلف أهلي علي حدادا
وأظهر في الأرض مني الفسادا
أديم السهاد، وأجفوا المهادا
وأنفذ سلطانـه ما أرادا

⁵²¹—المصدر السابق، ص200.

فجلى من القلب إظلامه
فأنزمت نفسي مدى صبرها
وبأينت ما كنت أهو به
رضيت بدون الكفاية قوتا
فأضحى الملوك، وأهل النعيم
وأسقطت لومي عن العالمين
فمن دام دمت له في الوفاء
ومن تاه تهت بمن لا يذل
فلم أر عيشا كعيش القنوع

وأقول ما كان منه سوادا
وخالفها في هواها عنادا
فأمسى وأصبح عندي سهادا
وبالله عن كل خلق عمادا
أقل البرية عندي عادا
فمن شاء ود و من شاء عادى
وزايدته أبدا ما استزادا
به من أعز ولا من أسادا
ولم أر مثل التقي لي
مرادا⁵²²

وقال: (الطويل)

أما والأكف المهديات سلامها
وتلك الخدود البيض والأعين التي

إلى مدنف لم يستطع أن يسلمها
قضى ندمي أن يفيض
ويسجما⁵²³

وله أيضا:

لاح المشيب بلمتي فنعاني
ونائت خطوب الحادثات بأسرتي
فئن مضى صدر الزمان بصفوه
ولأقطع عن علائقي من غيري
ولأنفين مطاعمي، وملابسي
ولأهجرن أحبتي، ومعارفي
ولأبكين على الصبا ولما مضى
فعل من شمل العباد بفضله

ونفسي الصبا عني، وذم عناني
فبقيت منفردا من الأقران
فلأخدمن لسيد المنان
حتى أحل ساحة الميدان
ولأمنعن من الكلام لساني
ولأقطع عن عصابة المجان
من غرتي في سالف الأزمان
يحي الفؤاد بكثرة الأشجان

⁵²² -المصدر السابق، ص200-202.

⁵²³ -المصدر نفسه، ص203

أنت المؤمل عند كل أوان
معطي الجميل ومسدي
الإحسان⁵²⁴

وخلفني عنهم نصيبهم من الفقر
أضاعوه من حقي ولو كنت في الأسر
أبحثهم رحلي وعدت إلى طمري!
ولكنه شيء تجاذبه فكري
وأثر بالموجود منها على الضر
وأحمل نفسي في الجفاء على الصبر
مقسمة بين التواصل والهجر
عن الجد والتشمير في النهي والأمر
حبال الإخا فما ينوب من الدهر!
وفضلا لأهل القرب باح به شكري
بأربعة أنبست فيها على الصبر
أبحثكم حظي من البر والبحر
معينة الأوقات ظاهرة الستر
علي بجاه في الأنام ولا
قدر⁵²⁵

يا من إليه حسن ظني قادمي
فامنن علي بما أومل منك يا

ويروى له أيضا قوله: (الطويل)
لئن عرف الأخوان عني نزاهاة
لقد سرني أني خلي من الذي
ولو كنت في الدنيا على مثل حالهم
فما لي إلى خلق سوى إليه حاجة
أتية على الدنيا إذا ما تعذرت
سأرعى لهم ما هان مني عليهم
عليهم سلام الله مني رسالة
فما ألفة الآلاف إلا تشاغل
رضيت بوصل الله عن كل قاطع
وأيقنت أن المنع من فيض جوده
فمقت على صول الزمان مفكرا
فقل لحصون الغرب طرا من بها
يقار عني من شاء منكم بعيشة
بلا عوض منها إلى النفس راجع

وله كذلك: (الطويل)

وأعملها فيما عليها بمالها
بحظ من الدار التي لا أنقضالها
مناي وتسويقي بنفسي أذلها
تميل إلى حظ القوت دارس

⁵²⁴ -المصدر نفسه، ص203.

⁵²⁵ -العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص203-204.

كأني للدينا رهين بخدعة
وناشئة الليل البهيم يقومها
سوامر أسدال الظلام ضوامر
ولأذت بمولاها بصائر فكرها
فلما رأى من آثرت بحبها
فعفى مراقيها وأوصى سهولها
نعيم نوي الأبواب، برهان صدقهم
كأني ونفس بين حرب وهدنة
إذا زادها للورد حادي وعيدها
تخالفني في كل أمر أريده
فمن لي بنفس لا تزال غوية
فلو كان لي التخيير في بدء خلقتي
وكنت كمن لم يبدع الله خلقه
ولو تكنت في الدارين حرا مدلا
فلا كانت الدنيا، ولا كنت قبلها
ومالها⁵²⁶

وقال: (الوافر)

قرين الحزن نوهم يجول
دؤوم الكد أواه إذا ما
عزوف النفس عن شهوات دار
قريير العين بالاخوان، صب
سخي الكف ليس بها لديه
رحيب الصدر ليس له ادخار
أخو سهر إذا نام الغفول
تذكر ما توعدده الجليل
تميل لها القلوب وما تميل!
غزير الدمع بسام وصول
من الدنيا، وإن جلت، بخيل!
ولا أهل، ولا ولد يعول

⁵²⁶-المصدر السابق، ص204-205.

فـعـول ما يقـول وکل ما أمر
ذکـي النفس ذو عقل ولب
يدل عليه فهو له عمول
صدوق اللفظ، يفهم ما
يقول⁵²⁷

وله أيضا: (الطويل)

دعاه من الأوطان شوق مبرح
عليه لكتمان المودة شاهد
عزوف عن الآمال بين ضلوعه
ألا فعلني الدنيا عفاء يشوبه
فإن أقبلت يوماً علي بوذا
لعمرک ما في الدنيا شيء أريده
فجاد عليه دمه وهو قاطر
من الوجد يبدي ما تجن الضائر
بين الحشا من لوعة الحب باتر
طلاقي لها ما ساعدتني البصائر
فاني لما تولي من البر كافر
سوى أنها نزل وأنبي
مسافر⁵²⁸

وقال:

أبصر بالقلوب سبيل الرشده
وجد في اليسر إلى ربه
قد صارت الدنيا بأقطارها
فباين الأصل معا والولد
مشمرا يطلب ملك الأبد
عليه كالسجن فمنها
شرد⁵²⁹

محمد زرزور الفارسي المتوفي عام 291هـ، عالم وشاعر مكثر:

قال:

تهتك الستر عن ذي الغي والفند
وأيقن المشرك الداعي له ولدا
لا موت يدركه ، لا شيء يشبهه
وحصحص الحق بعد البغي واللدن
بأنه الله لـم يولد ولم يلد
يبلى الأبد ولا يبلى على الأبد

⁵²⁷ -المصدر نفسه، ص205-206.

⁵²⁸ -العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص 206.

⁵²⁹ -إبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص156.

ويح ابن آدم من عاص يخالفه
وفى الخلود نعيم غير منصرم

ومن مصرر على الآثام معتقد
بباق بقدرته به باق
بالأمد⁵³⁰

بكر بن حماد: ت296هـ.

الخير في الدنيا قليل: الطويل.

نقد جفت الأفلام بالخلق كلهم
تمر الليالي بالنفوس السريعة
أرى الخير في الدنيا يقل بكثرة
فلو كان خيرا قل كالخير كله

فمنهم شقي خائب وسعيد
ويبدئ ربي خلقه، ويعيد
وينقص نقصا والحديث يزيده
وأحسب أن الخير منه
بعيد⁵³¹

السفر من غير زاد: (الوافر)

نهار مشرق وظلام ليلى
هما هدما دائم عمر نوح
فيا بكر بن حماد تعجب
تبيت على فراشك مطمئنا
فيا سبحان من أرسى الرواسي

ألحا بالبياض وبالسواد
ولقمان وشداد وعاد
لقوم سافروا من غير زاد
كأنك قد أمنت من المعاد
وأوتدها مع السبع
الشداد⁵³²

تفضيل بعض الناس على بعض (الطويل)

تبارك من ساس الأمور بعلمه
ومن قسم الأرزاق بين عباده
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده

وذل له أهل السموات والأرض
وفضل بعض الناس فيها على بعض
فقولوا له: يزداد في الطول
والعرض⁵³³

⁵³⁰ -المصدر نفسه، ص 141.

⁵³¹ -محمد بن رمضان شاوش، الدرر الوقاد من شعر البكر بن حماد، المطبعة العلوية بمستغانم، 1966، ص 75.

⁵³² -المصدر السابق، ص 76.

⁵³³ -المصدر السابق، ص 77.

ذكر الموت: (الطويل)

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت
فيا أسفي من جنح ليل يقودها
إلى مشهد لا بد لي من شهودة
ستأكلها الديدان في باطن الثرى
مواطن للقصاص فيها مظالم
سحاب المنايا كل يوم مظلة
وللنفس حاجات تروح وتغدي
تجهمت خمسا بعد سبعين حجة
وأيدي المنايا كل يوم وليلة
يصبح أقواما على حين غفلة
ولكن أحاديث الزمان يعوقها
ودام غروب الشمس لي وطلوعها
إذا فتقت لا يستطاع رتوقها
ويأتيك في حين البيات
طروقها⁵³⁴

وقفة بالقبور: (البسيط)

قف بالقبور فنادا لها مدين بها
قوم تقطعت الأسباب بينها
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا
والله لو ردوا ولو نطقوا
فبرز القوم وامتدت عساكرهم
ما بالقلوب حياة بعد غفلتها
أين البقاء وهذا الموت يطلبنا
بيننا نرى المرء في لهو وفي لعب
هذا يباكر دنياه منغصصة
وكلنا واقف منها على سفـر

⁵³⁴ -المرجع السابق، 78-79.

في كل يوم نرى نعشا نشيعة الموت يهدم ما نبنيه من بـذخ
فرائح فارق الأحباب أو غـاد
فما انتظارك يا بكر بن
حماد⁵³⁵

رثاء ابنه عبد الرحمن (الوافر):

بكيت على الأحبة إذا تولوا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا
كفى حزنا بأنني منك خـلو
ولم أرك آسيا فيئست لمـا
فليت الخلق إذ خلقوا أطاعوا
تسير بأشهر تمضي سـراعا
فلا يفرح بدنيا ليس تبقي
فقد قطع البقاء غروب شمـس
وليس الهم يجلوه نهـار
رثاء ابنه عبد الرحمن أيضا (الطويل):
وهون وجدي أنني بك لاحق
وأن بقائي في الحياة قليـل
وأن ليس يبقي للحبيب حـبيب
ولو أن طول الحزن مما يـرده
وليتك لم تك يا بكر شيـا
وتطوي في ليالهن طيـرا
ولا تأسف عليها يابنيـا
ومطلعها على يا أخيـا
تدور له الفـراق
والثريا⁵³⁶

رثاء ابنه عبد الرحمن أيضا (الطويل):

وهون وجدي أنني بك لاحق
وأن ليس يبقي للحبيب حـبيب
ولو أن طول الحزن مما يـرده
وليتك لم تك يا بكر شيـا
وتطوي في ليالهن طيـرا
ولا تأسف عليها يابنيـا
ومطلعها على يا أخيـا
تدور له الفـراق
والثريا⁵³⁷

رثاء تاهرت بعد تخريبها (البسيط):

زرنا منازل قوم لم يزورونـا
لو ينطقون لقالوا: الزاد ويحكم
إنا لفي غفلة عما يقاسونـا
حل الرحيل فما يرجو المقيمونـا

⁵³⁵—رمضان شاوش، الدر الوقاد من شر بكر بن حماد، ص 80-82.

⁵³⁶—المصدر السابق، ص 87-88.

⁵³⁷—المصدر نفسه، ص 89.

الموت أجحف بالدنيا فخر بهـــــ
فالأآن فابكوا فقد حق البكاء لكم
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعهـــــ
لو كان جمع فيها كنز
قاروننا⁵³⁸

رثاء الشاعر نفسه (الرجز):

أحبو إلى الموت كما يحبو الـجمل
قد جاعني ما ليس لي فيه
حيل⁵³⁹

يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني (الطويل): ت 289 هـ:

هممت ولم أفعل ولو كنت صادقـــــ
عزمت ولكن الفطام شديـــــ
ألا ليت شعري! هل أبتين لياـــــة
إليك انقطــــاعِي إني
لسعيد⁵⁴⁰

أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري: ت 314 هـ أخذ عن ابن عبدوس وابن
سحنون وغيرهما، توفي سنة 307 هـ.

يقول: (مجزو الرمل)

لا يــــعجبك يا فتى
حســــن فرش ومتكــــا
إن للــــعرس فرحــــة
بعدهـــــا النــــوح
والبكا⁵⁴¹

وقال:

إذا احتاج البنون إلى أبيهم
أتو بالبير والفضل الجزيل
وإذا احتاج وألدهم إليهم
يقاسي الهـم في الليل الطويل

⁵³⁸—المصدر السابق، ص90.

⁵³⁹—المصدر نفسه، ص92.

⁵⁴⁰—القاضي عياض، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر الجامعة التونسية، 1968، ص268.

⁵⁴¹—المصدر السابق، ص369. والماكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وسير من أخبارهم وفضائلهم

وأوصافهم، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994، ص186.

فأحسن والد لم يعط شيئا

وعاش بماله حتى
الرحيل⁵⁴²

سعيد بن الحداد: ت 302 هـ.

قال:

ويصرنى إذا ذو المال يزهى

بما يحوي من المال الجزيل

أراه وكأن عيني لا تراه

وأعرض عنه إعراض الملول⁵⁴³

وكان يقول في مثل ذلك (الطويل):

رغبت بنفسى عن دنى المكاسب

وما أعجزتنى حيلة عن مطالبى

فإن لم أتل دنيا فقد نلت همة

تنزهه نفسى عن دنى المعائب

أبت همتى إلا سموا إلى العلى

وإن طأطأتنى حادثان النوائب

ترانى وفي صدري هموم كثيرة

ضحوكا لأخفى عن جليس و

صاحب⁵⁴⁴

قال:

يمنعنى من عيب غيرى الذي

أعلمه فى من العيب

عيبى لهم بالظن منى لهم

ولست من عيبى فى ريب

إن كان عيبى غاب عنهم

فقد أحصى ذنوبى عالم

الغيب⁵⁴⁵

وقال:

مازلت من حادثات الدهر معتجبا

حتى انقضى عجبى بعد الثلاثمائة

لا ببارك الله فى عام وفى سنة

كانت لشـر زمان كان مختبئه

⁵⁴² -المالكي، رياض النفوس، ج2، ص185.

⁵⁴³ -المصدر نفسه، ص98.

⁵⁴⁴ -نفسه، ص 98.

⁵⁴⁵ -المصدر السابق، ص 107.

عادت أسافلــــه طرا أعاليه

ولا أعاليــــي إلا وهــــي
منكفةة⁵⁴⁶

وقال أيضا:

كم عساني أعيش (كم كم عساني)
بعد سبعين حجة وثمان
يا خليلي قد دنا الموت مني

كم عساني أبقى على الحدثن
قد توفيتها من الأزمان
فابكياني هديتمــــا و
انعياني⁵⁴⁷

وقال سهل بن إبراهيم الوراق: من شعراء القرن الثاني الهجري:

نفى النوم من عيني خيال مروع
فبت شجي القلب سفاح عبرة
حياة الفتى ما عاش بؤس وحيرة
كان خطوب الدهر بيني وبينها
لعمرك ما صاد عن الماء حائم
ولا هاتف بالليل بين حمائم
فريد وحيد بأن عنه قرينه
بأوجع من قلب قريح بيته
نعى من شجا قلبي وكنت محاذرا
يسرق لهذا القلب من طول بثه
وشرد نوم العين فيض دموعها
لقد كنت جادا في النوائب صابرا
فبان العزى والصبر يوم فراقه
وبان اصطباري عن حبيب فقدته
تجرع كأس الموت وهي كريهة

وعاود قلبي شجوه فهو موجد
أراعي نجوم الليل من حيث تطلع
ومر الليالي قد يسر ويفجع
سوالف ثأر فهي بي تتوقع
يطوف به حيران يدنو فيمنع
هواجع محزون يحن ويسجع
فيبكي، ويحكي قس دير يرجع
غداة نعى عثمان ناع مروع
عليه من الأقدار ما ليس يدفع
دموع كتبيد الجمعان تدفع
وأنى لعين بعد عثمان تهجع
على حادث الأيام ما تتضع
ومن فارق الأحباب يأسى ويجزع
فكيف وما للصبر في القلب موضع
فما لي بكأس الحزن لا أتجرع

⁵⁴⁶—المصدر نفسه، ص110.

⁵⁴⁷—المصدر نفسه، ص 110-111.

يؤرقني طيف لعثمان زائر
يؤرق عيني من لذيذ غموضها
عجبت لنفسي بعده كيف لم تمت
فلو أن شيئاً كان يفدي فديته
لقد راح صبري يوم راحو بنعشه
أريحانة قد صرت ريحانة الثرى
ألا يأبي الغصن النضير الذي ذوى
سقى قبرك الصوب الموشى لأرضه
إذا هجع النوام يسري وينزع
فليس لها إلا سهاد وأدمع
وما بحياة بعد إذ مات أصنع
وهيهات ما في الميت للحي مطمع
فتووه لحدا ثم أبوا وودعوا
فأضحى البلا في جسمك الغض يسرع
فعيني على تلك النظارة تدمع
وجادات عليه مزنة ليس
تقلع⁵⁴⁸

قال محمد بن عسكر:

إن أقبلت قلت: صباح أقبلا
جارية تيمت المتيما
وإن أدبرت قلت: ليل أظلما
يحكي شعاع الشمس منها
المبسما⁵⁴⁹

أبو محمد عبد الله بن سعد اللحام: ت 331 هـ.

أزعجت عن لذة القرآن يا سندي
أتلو القرآن فاسهو عن عجائبه
فما سلكت طريق الناعمين به
وطول أنس بهم في وقت خلوتهم
هيهات يا نفس أن تحظى بحالتهم
أهجر بلادك وكن للذنب باكية
وذلك لما ركبت الذنب باللد
لشهوة قطعت من عرى كبدي
قد صار تذكارهم أحلى من الشهد
يتلون له دائما قربا من الصمد
وأنت مخدوعه والله بالرصد
وراقب الله في الألفاظ
والجسد⁵⁵⁰

يوسف بن عبيد الله القفصي التميمي: ت 332 هـ.

⁵⁴⁸-المصدر السابق، ص 112-114.

⁵⁴⁹-المصدر نفسه، ص 270.

⁵⁵⁰-المصدر نفسه، ص 276-277.

قال:

وما الدهر إلا ليلة بعد يومها
وقـرن جديد خلف قرن ودولة
فلو صح لي عقلي بما أنا واصف
ولو صح لي عقلي لحزت خلاتقا
ولو كنت من داري على كنه علمها
لأعرضت عنها حين أولت إساءة
ولو أن لي قلبا يعي لتقطعت
ولو أن لي سمعا قد أسمع البلى
ولو أن لي عينا ترى بدالها
ولو أن لي نفسا علي عزيزة
ولو أن لي إلفا حميما لحاد بي
ولو أن لي رأيا يعاش بمثله
ولو أن لي سعيا جميلا لمال بي
ولو أن لي أدنى حياء لهدني
وفقد تقاة من حميم وجيرة
وفوالي أيام الحياة ولم أف
إذا ذكروا ريع الفؤاد لذكهم
ولو لم يكن بالوجه مني صلابة
لو أن لي حسا لأحسست للبلى
ولو أن لي حزما لأعددت جنة
وما جنة المستجن يعدها
من البر إن البر للمرء معقل

ونجم تراه طالعا ثم أفلا
تعاقب أخرى لا يزلن شواملا
لبت وجنبي لا يمل قلاقلا
أباري بهن الصالحين الأفاضلا
وقد ذوقت مني اللهاة حناظلا
وجازيتها بالصاع صاعا مكايلا
علائق دنياي فبتن زوائلا
للبيت منه المنذرات العواذلا
لأجرت بنحري من دموعي جداول
لكسبتها تلك الكسوب الأمثال
عن الرق للدنيا إلى العتق مائلا
تخيرت أحوالا به ومنازلا
إلى الكد حتى يترك الجسم ناحلا
وداعي أترابا وخذنا مواصلا
تولوا فما عاجوا علي الرواحلا
وأصبحت عنهم لاهي القلب ذاهلا
وهيج أشجانا له وبلا بلا
لوقرت شيبا بالعذارين مائلا
دبيبا بجسم قد أحال الشمائل
بها أتوقى الحادثات النوازلا
باحصن أركان وأزكى نوافل
بعيد من الآفات فاق المعاقلا⁵⁵¹

⁵⁵¹—المصدر السابق، ص 278-280.

ومن قوله:

صافى الجليل من العباد رجالا
عرفوا جلال مليكهم بحقائق
أنسوا بــــه دون الورى وتقربوا
متنعمين بذكره فبذكره
متعبدين له تعبد ذلة
صمت عن الفحشاء إن مرت بهم
قد أودعوا علما خفيا فاجتنبوا
وهم إذا ما الليل أقبل أقبلوا
يتسابقون إلى القيام قد امتطوا
تكسبوا الرؤوس على الصدور وهيجوا
لله درهم عصابة عصمة
تحيا القلوب بذكرهم من موتها

وقال أيضا:

بعيشك أجساد أضربها الكد
إذا رجعوا فيه الحنين فرققوا
ينوحون إشفاقا ويشجون رقة
قياما على الأقدام طورا وتارة
ركوعا سجودا والأكف شوارع
سراة إلى مأمولهم ما لحاجهم
إلى من إلى معروفة ينتهى المنى
قد بذلو المجهود فيه إذ أيقنوا
وصانوا وجوها لم تخلق صفاحها

وطول السرى فى الليل والليل ممتد
تجدد وجد منهم دونه الوجد
تشوق موعود إذا نجز الوعد
يجرون أقداما نحا نضوها الجهد
خضوعا كما يخذي لسيدة العبد
سواه ولا من بعدها لهم بعد
ومن نحوه الآمال تسمو وتمتد
بأن ليس يوما من ملاقاته بد
قبائح أعمال عواقبها نكد

⁵⁵²—المصدر نفسه، ص 280-281.

أولاتك حزب للجليل جباهم
أذاقهم روح الحياة وبردها
بما تقصر الآمال عنه وتنقد
وذوقهم كأس الوداد فما صدوا
مراتب فضل ليس يبلغها حد
فطاب الذي يحدى وطاب الذي يحدو
بهم تسلم الدنيا ويستبشر الخلد⁵⁵³
وعلمهم علما إليه حداهم
بنفسي هم من معشر أي معشر

أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن هارون البجلي: ت 315هـ.
وألا ذهب الوفاء فلا وفاء
وأسلمني لزمان إلى رجال
وباد رجاله وبقي الغناء
حياتهم وموتهم سواء
وأعداء إذا نزل البلاء⁵⁵⁴
أخلاء إذا استغنت عنهم

أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن أبي قشاش: 322 هـ.
أكرم صديقك حتى ينقضي السفر
ولا تكن كلئام أظهروا ضجرا
إن الذي أنت موليه سينتشر
إن اللئام إذا ما سافروا ضجروا⁵⁵⁵

أبو الفضل مولى نجم: ت 324 هـ.
ألا يا عين ويحك فاسعديني
لعلك في القيامة أن تفوزي
بسكب بالدمع في ظلم الليالي
بخير الفوز في تلك العاللي⁵⁵⁶

أبو العرب بن تميم: ت 333 هـ.

قال:

إذا انقطع الصديق لغير عذر
إلى يوم التتادي بلا رجوع
فزاد الله خلته انقطاعا
فإن رام الرجوع فلا استطاعا
فول قفاك عنه وزده باعا
إذا ولى أخوك قفاه عنك

⁵⁵³—المصدر السابق، ص 181-182.

⁵⁵⁴—المصدر نفسه، ص 187.

⁵⁵⁵—نفسه، ص 202.

⁵⁵⁶—نفسه، ص 243.

وناد وراءه يا رب تمم

ويقول أيضا:

أإن سجعت أيكية بتغرد

وهاجت بي الأحزان حين تجاوبت

حمام بكى من غير دمع جرى له

فما تتسني الأيام لم أنس حبتي

ولما رأيت الشيب عم مفرقي

وأقصرت عن ذكر الصبى وهجرته

ضعفت حيلتي وقل اصطبارب

وهن العظم بعد أن كان صلبا

ولقد كنت والشباب لباسي

وتراني أميس كالغصن حسنا

وترى الغانيات نحوي صورا

ولقد كن يشتهين حديثي

ربيع القطان: ت 334 هـ.

قال:

أنت دائي ودوائي

أنت فخري، أنت ذخري

ويقول أيضا:

طور يصول وطورا يألف الكمد

ولا تجعل لفرقته اجتماعا⁵⁵⁷

بكيت بدمع واكف متردد

حمام ورق فاستلبن تجلدي

فهاج البكا من حائل الدمع مسعدي

ومجلسنا والشمل لم يتبدد

ففكرت فعل الخائف المتزهد

وصدت فريدا لا أبالك أوجد

وإلي الله أشتكى كل ما بي

وفقدت الشباب وأي شباب

أسحب الذيل عابثا في الثياب

وقذالي كمثل ريش الغراب

يتراءين مرجعي وذهابي

فادعهن خشية للعقاب⁵⁵⁸

أنت عزي ومناي

أنت كنزي وغناي⁵⁵⁹

صب مشوق يعاني القرب والبعدا

⁵⁵⁷ -نفسه، ص 310-311.

⁵⁵⁸ -المالكي، رياض النفوس، ج2، ص311-312.

⁵⁵⁹ -المصدر نفسه، ص327.

ويحي لما حل بالمشتاح من كمد
يا حسنة وسواد الليل منسدل
يتلو الكتاب بترجيح الخطاب متى
لو إذا تراه إذا ما الوجد خامره
خلت الشموس دياجي عند زهرته
يجني الثمار لدى الروضات عرفهم
حتى إذا حل في صفو الصفاء بدا
للعلم أوقفه وقفا بلا جزع
فالأنس ينطقه والقدر يخجله
لما صفا في الوفا غابت حساسية
فالقرب معدنه والغيب مشهده
صب تراه إذا ما حل ذو لدد
نطاق بالحق تياه بلا صلف
يكفيك وصفهم يا لائمي ديما
كيف السلو وكيف الصبر دونهم
مني عليهم سلام الله متصلا
غردا⁵⁶⁰

محمود القطان:

لا تظمئن فإن الناس قد حالوا
واحذر زمانك إذ أخرت عن زمن
وابك الدماء على ما فات من زمن
واقبض لسانك عما قلت أو قالوا
بادي النصيحة إما ملت أو مالوا
فيه الوفاء وفيه الدين والمال

⁵⁶⁰ -المصدر السابق، ص335-336.

لله أنت لقد غودرت في زمن
واقنع بجلسك إن تقبل نصيحتنا
أعلى الفضائح آداب وأفضال
أو تصمتن فما يعينك تسأل⁵⁶¹
أبو علي النحوي المكفوف: ت 342 هـ.

قال:

مراض من الأشواق تحيا قلوبهم
يضيء ظلام الليل نور قلوبهم
نذرك بل كادت إليك تطير
فهم لليالي المظلمات بدور
وهن على من لا يجب وعور
وأنت بشكواهم لديك خبير
أعاليل دنيا للفناء تصير⁵⁶²
وقال أيضا:

من كان يبغي الذل في نفسه
ما للفتى إن عضه دهره
فليطلع الناس على فقره
معول أحسن من صبره⁵⁶³

أبو بكر بن سعدون: ت 344 هـ
قال.

الخير أجمع في السكوت
فإذا تهيأ ذا وذا
وفي ملازمة البيوت
فالقنع -إذن بأقل قوت⁵⁶⁴
وأنشد أيضا:
إذا القوت تأتي
وأصبحت أبا حزن
لك والصحة والأمن
فلا فارقك الحزن⁵⁶⁵
وأنشد أيضا:

⁵⁶¹-المصدر نفسه، ص 349.

⁵⁶²-المصدر نفسه، ص 410.

⁵⁶³-المصدر نفسه، ص 410.

⁵⁶⁴-المصدر نفسه، ص 417.

⁵⁶⁵-نفسه، ص 418.

سجن اللسان هو السلامة للفتى

إن اللسان إذا حلت عقاله

أبو الخير العبد: ت 348 هـ.

ما الدهر إلا ليلة

وكلاهما بك فاعل

قال أبو القاسم الفزاري:

تلفع في مفارقه القيتير

وليس يؤدب الإنسان شيء

وإن ببابك اللهم عبدا

دعاك وقد رجاك فصنه مما

ولا تسلمه للدنيا فتهوي

سلامتها، وإن دامت سقام

ومرعاها لراعيتها وخيم

ستر المرء يوما ثم يغدو

وإن واتتك إقبالا ونعمى

وكل الخير فيها مستعار

وإن عزيزها عما قليل

وكل مؤمل أمل طويل

وبعد الموت أهوال عظام

وتذهل كل مرضعة لكرب

وبعد الموت للأرواح إما

من كل نازلة لها استئصال

ألقاك في شنعاء ليس تقال⁵⁶⁶

من بعدها يوم جديد

ما لا تريد وما تريد⁵⁶⁷

وقوس عضنه اللدن النضير

كتأديب الحوادث إذا تدور

من الخذلان أصبح يستجبر

يحاذر ذو المراقبة الحذور

به منها بطون أو ظهور

ونعمتها، وإن رافت غرور

وكثرتها لمكثرها يسير

فيسلب ما أتاح له السرور

فعباها الفجائع والقبور

وسوف يرد ذاك المستعير

ذليل، والغنى بها فقير

وعمر لو تأمله قصير

يشيب لبعضها الطفل الصغير

ليوم فيه شر مستطير

نعيم في الكرامة أو سعير⁵⁶⁸

⁵⁶⁶-نفسه، ص 418.

⁵⁶⁷-نفسه، ص 439.

⁵⁶⁸-إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 267-268، والقصيدة طويلة تزيد على 68 بيت.

سحنون:

قال: الوافر

لمنزلة الفقيه من السفية
فماذا زاهد في رأي هذا
كمنزلة السفية من الفقيه
وهذا فيه أزهده منه فيه⁵⁶⁹

عبد الله بن غانم: ت 196 هـ.

قال (الطويل):

إذا انقرضت عني من العيش مدتي
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي
فإن غناء الباقيات قليل
ويحدث بعدي للخليل خليل⁵⁷⁰

وقال أيضا (الوافر):

فهل من خالد إذا ما هلكننا
وهل بالموت يا للناس عار⁵⁷¹

يقول أبو المعمر بن محمد حمزة الربيعي (ت 265 هـ): (البيسط)

الموت لا بد آت فاستعد له
وكيف يلهو بعيش أو يلذ به
إن اللبيب بذكر الموت مشغول
من التراب على عينه محمول⁵⁷²

⁵⁶⁹-القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار مكتبة الحياة، ليبيا، ج1، ص620.

⁵⁷⁰-القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 19.

⁵⁷¹-المصدر نفسه، ص24.

⁵⁷²-المصدر نفسه، ص 329.